هذا القرآن

تأليف:
عبد الحي العمراني

1403 هـ — 1983 م

طبع هذا الكتاب تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر إحياء التراث الإسلامي
بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة.

بسم الله الرحمن الرحيم

« تصدير »

(هذا القرءان) كتاب ألفه العلامة عبد الحي العمراني احد علماء فاس ، وخريج جامعة القرويين ، بمناسبة احتفال المملكة المغربية بمرور أربعة عشر قرنا على نزول القرءان الكريم ، على سيد المرسلين محمد بن عبد الله عليه افضل الصلاة وأزكى التسليم ، تلك المناسبة الكريمة التي خلدها المغرب سنة 1387 هجرية ، موافق 1968 ميلادية ، ودعى اليها نخبة من جهابذة العلم والفكر والتفسير ، من كافة اقطار العالم الاسلامي ، فكانت مشاركة هذه النخبة مشاركة فعالة بعديد من المقالات والابحاث والدراسات القرآنية ، نشرتها وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية في حينها ، بالعدد الخاص من (دعوة الحق) بذكرى نزول القرءان .

هذا هو موضوع الكتاب الذي بين أيدينا ، والذي تناول فيه مؤلفه نماذج خاصة من أخلاق القرءان وفضائل النضال والتضحية من أجل العقيدة والايمان ، وموضع العلم والعمل والشورى والحكم والمساواة في شريعة القرءان ومنهجية الاسلام مما يعين القارىء على فهم القرءان الكريم فهما حقيقيا ودقيقا لموضوعات تتضمن تسجيل لمسات تبدد حيرة المسلمين ، وتهديهم في عصرنا الحاضر سواء السبيل في دنياهم وآخرتهم .

(أن هذا القرءان يهدي للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) فهو حبل الله المتين الذي لا تلتبس به الالسن ، ولا

يخلف على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى اليه هدى الى الصراط المستقيم ، ومن تركه من جبار قصمه الله ، ومن آتبع الهدى في غيره أضله الله ، قال تعالى : (فاما ياتينكم مني هدى فمن آتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) .

فالقرءان رسالة دائمة ومستمرة وخالدة مدى الحياة ، لهداية البشر، ولمحاربة الشرك والاوثان ، ولتكريم الانسان ، وتحريره من الرق والعبودية، الا الله الواحد الاحد .

كما انه العروة الوثقى لا انفصام لها ، الرابطة بين المسلمين في الماضي والحاضر والمستقبل ، والموحدة بين صفوفهم ، والمزيحة العراقل عن طريقهم ، والقاضية كل القضاء على الضغائن والمشاحنات المتواجدة بينهم ، والتي عرفتها مجتمعاتهم الحين بعد الحين فأزالها القرءان عنهم ورد عليهم جميل اعتبارهم كمسلمين على صعيد واحد ، فلا عنصرية ، ولا لونية ، ولا عرقية ، ولا طائفية ، بينهم . كلكم من آدم وآدم من تراب ، ولا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى ، مصداقا لقول الله تبارك وتعالى : (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم) .

هذا وان وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية اذ تقدم كتاب (هذا القرءان) الى القراء الكرام في اطار الصندوق المشترك بين المغرب وأبو ضبي . وبأمر من أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأخيه الجليل الامير الشيخ زائد بن سلطان آل نهيان حفظه الله . كما يشرفها كل الشرف أن تواصل العمل في هذا الصدد من أجل خدمة كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وان تضعهما أمام الناشئة من أبناء الاسلام والمسلمين بهذا البلد الامين ، وكافة بلاد المسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية
الهاشمي الفلالي أمين

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة أولى :

خلد الشعب المغربي المسلم ذكرى من أعظم الذكريات الاسلامية وأجلها باحتفاله بمرور أربعة عشر قرنا على بدء نزول القرءان الكريم على رسول الاسلام محمد (ص)، وكان الاحتفال عاطرا وشيقا وحافلا بوفود العلماء المسلمين القادمين من مختلف الدول الاسلامية لمشاركة المغرب المجاهد في هذا الحدث الفريد ولابراز هذه الذكرى المجيدة في تاريخ المسلمين واعطائها ما تستحقه من الاهتمام.

ولما كان نزول القرءان في شهر رمضان المبارك كما ذكر القرءان الكريم في قوله : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرءان هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » جاء الاحتفال في ذات الشهر من عام ألف وثلاثمائة وسبعة وثمانين هجرية الموافق لشهر يناير من سنة الف وتسعمائة وثمان وستين ميلادية . وفي هذا الشهر يعود المسلمون الصادقون لانفسهم ليتدبروا ويعتبروا ويتخلصوا من العقد والشوائب والادران ويستوحوا من ذكريات القرءان ما يدفع بهم الى المضي في تحقيق رسالة القرءان وما تتطلبه من تضحية ونضال وجهاد وتغلب على شرور النفس وأهوائها لتستمر رسالة القرءان نيرة بينة واضحة هادفة في جميع مرافق الحياة من سياسية واجتماعية واقتصادية، وبهذا التفكير يستطيع المسلمون بناء قوتهم وتحرير أوطانهم من الاحتلال السياسي والاقتصادي

ومن الذل والانكماش والتراجع والجهل والفقر وكل أنواع الابتلاء . وفي مقدمة ما يستعجلهم للوثوب والصمود أرض مسجد الاسراء بفلسطين السليبة المدنسة برجس الصهيونية المتآمرة .

والقرءان هو العروة الوثقى التي تربط بين جميع المسلمين وتوحد صفوفهم وتزيح العراقيل من طريقهم وتقضي على النزوات الطائشة فيما بينهم .

ان أرض المغرب منذ استمسكت بعروة القرءان وهي تقف سدا حاجزا للحفاظ عليه ، بل وتنشره بكل قوة وحزم وتدافع عن أهدافه وتستبسل من أجله حتى نفذ الى أعماق افريقيا ومجاهلها وتخطى حاجز البحر لينفذ الى أروبا النصرانية ويقيم على أرضها حضارة اسلامية زاهرة تراجعت لما تراجع المسلمون عن رسالتهم وركبوا أهواءهم وشهواتهم حتى انفكت عرواتهم وارتخت أواصرهم فانفصم ما بينهم وبين رسالتهم الخالدة وطمع فيهم أعداؤهم فأخرجوهم من أوطانهم واستعبدوا بها من بقي منهم فيها وأذاقوهم شر أنواع الاذاية ، وشككوهم في قرآنهم الذي ينادي ويلح فى النداء بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. فهل كانت أحوال المسلمين ستصير الى ما صارت اليه لو تشبثوا بمفاهيم القرءان العميقة واكتشفوا أسراره واتخذوا من آياته دستورا عمليا وهو الكتاب الجامع للقيم الانسانية والعقيدة النظيفة والتشريعات البينة والاشارات العلمية ، ويحفظ على استعمال العقل وعلى النظر والتفكير والاعتبار ، ويدعو الى تأسيس حكم شورى نزيه ، لا عنصرية فيه ولا لونية ولا طائفية ، يقوم على التقوى والرحمة والعدل الذي يجب أن يربط بين الحاكمين والمحكومين ، لا تشوبه نزعات ولا انقسامات ولا أحقاد وراثية لكون كلمة الله هي الجامع الرابط مهما حصل من خلاف أو نزل من شقاق .

ومهما نصر المسلمون قرآنهم وكافحوا عنه وخضعوا لاوامره واجتنبوا نواهيه الا وتعززوا بالنصر كما يقول القرءان الكريم : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم » .

وجلالة الحسن الثاني نصره الله حينما دعا الى الاحتفال بمرور أربعة عشر قرنا على بدء نزول القرءان ووجه دعوته الكريمة الى مجموعة من

جهابذة علماء الاسلام من دول اسلامية متعددة فعل ذلك من موقفه الاسلامي ومن تاريخ وطنه الحافل بالامجاد الاسلامية ، وهو موقن بأن لا صلاح للمسلمين الا بالرجوع الى دينهم والتشبث بفضائله ومزاياه ووضعه في مكان العمل والتطبيق ، وهو الملك المسلم المدرك لما في الاسلام من قدرة على الاستيعاب ، ومن مرونة نادرة يمكن بها التغلب على مشاكل الحضارة المعاصرة في مختلف الشؤون ، كانت مالية او اقتصادية او سياسية او اجتماعية ، ويعلم يقينا ان المغرب حصن منيع للاسلام ، على صخرته تحطم الغزو الصليبي والاحتلال الاستعماري .

لقد اتخذ جلالة الملك بادرته كقائد اسلامي متميز ، وكأمير للمؤمنين له من المسؤوليات ما ليس لغيره .

ورجاؤنا في الله أن تكون خطوة جلالته خطوة موفقة حتى يعود للاسلام مجده وقوته وعزته ، وياخذ مكانته في العمل والتطبيق .

هـــذا القـــرءان

ان هذا القرءان يهدي المسلمين للتي هي أقوم في دنياهم وأخراهم ، ويخط لهم طريق الاصلاح والصلاح ، وينظم لهم شؤونهم تنظيما محكمـــا سديدا قيما بترو وحكمة حصيفة ، بعيدة عن التسرع والزيف والارتكاس .

هذا القرءان الذي سنحاول ان نسجل لمسات منه ، لان الاحاطـــة بجوانبه تنوء بالعصبة أولى القوة ، ان لم تكن ضربا من المحال ، ذلك ان القرءان كثير الجوانب ، متجدد الحركات ، كم كتب فيه الكتاب ، وكـــم شرح الشراح ، ومع ذلك لا زالت معانيه تتجدد مع الايـــام ، ولا زالـــت عجائبه تنكشف مع العلم والاختراع .

هذا القرءان الذي أخذ في هذا العصر جانبا هاما من البحوث التـــي تصدر في كل من أروبا وأمريكا ، ويذهب كل باحث في بحثه عن القرءان ، والاسلام مذاهب متنوعة ومتباينة ، اذ كل واحد يتحدث حسب مشربـــه وتأثره واتجاهه وسلوكه ، فمن مصيب ومن مخطىء من حاقد ومن مسالم ، من باحث عن الحقيقة ، ومن مدلس ، من مستعمر ومن متطاول ، ولكنهم في مجملهم لا يكادون يفهمون حقيقة القرءان دون ان يتأثروا بتأثير ما ، ولـــو أخلصوا في البحث والاستقصاء ، لان الاخطاء المسلمة المنتشرة بينهـــم تسد عليهم أبواب الوصول الى الهدف الاسما للقرءان الذي كان خاتمـــة الكتب السماوية التي ربطت بين المادة والروح رباطا خرج بالانسانية من الزحزحة والضلال الى طريق الهدى والفلاح . وكثير من الباحثين تاهوا في مجاهيل الفلسفات يقلبونها على وجوهها ليقولوا قولـــة أو رأيـــا في القرءان حسب ما ظهر لهم من بحثهم ، ثم منهـــم من يقـــوم بالمقارنـــات والاحصاءات بين ديانات مختلفة كالاسلام والمسيحية والبوذية ، وديانات أخرى لا تقوم على الدعوة كالهندوكية والشنتية واليهودية .

وقد استطاع القرءان وحده أن يقف في وجه كل أولئك الذين درسوه عن سوء نية واستطاع أن يفرض وجوده ومذهبه وأن ينتـــزع الاعجـــاب والتقدير بالرغم عنهم جميعا . ويقول سدني فيشر في كتابـــه (الشرق الاوسط في العصر الاسلامي) : « ان القرءان صوت حي يروع فؤاد العربي

وتزداد روعته حين يتلى عليه بصوت مسموع ، ولكنه لا يفهم هذه الروعة كما لم يفهمها زملاؤه الذين سبقوه الى الاعتراف ببلاغة القرءان اعتمادا على أثره البليغ في قلوب قرائه وسامعيه ، ثم يقفون عند تقرير هذه البلاغة بشهادة السماع . انه كتاب تربية وتثقيف ، وليس كل ما فيه كلاما عن الفرائض والشعائر ، وان الفضائل التي يحث عليها المسلمين من أجمل الفضائل وأرجحها في موازين الاخلاق ، وتتجلى هداية الكتاب في نواهيه ، كما تتجلى في أوامره ، فلا يجوز للمسلم أن يشرب الخمر ولا أن يقامر ولا أن يعتدي وأن لا يستسلم للترف والرذيلة ... » .

هذا القرءان السماوي وحده الذي لم يدخله تغيير دون بقية الكتب السماوية الاخرى ، وبقي مرفوع العماد دون سواه منذ أربعة عشر قرنا من الزمن .

هذا القرءان الذي يريد للمسلمين أن يكونوا قوة في أنفسهم وعلى أعدائهم ، لا يظلمون ولا يعتدون ، ولكن عليهم أن يردوا الظلم والاعتداء ، ثم لا يستزيدون .

هذا القرءان الذي يريد للبشرية أن لا تبتعد — مهما بلغت من العلم — عن النبع الالاهي الذي لا ينضب حتى لا تضل طريقها في مهامه الحياة المادية الجافة القاحلة ، التي تضطرها الى السفالة الاخلاقية التي لا تحترم قانونا ولا تومن بقيم ولا تحترم واجبات ، وليس أدل على ذلك مما عم وانتشر ، لا في العالم غير الاسلامي ، بل وحتى في العالم الاسلامي من ركون الى الخمور والمخدرات والجنس ، هروبا من الاحساس بالفراغ الروحي الذي أصبح سمة من سمات الحضارة العصرية المادية .

هذا القرءان الذي اذا تفهمه المسلم على حقيقته وعلم أهدافه استطاع ان يبتعد عن الجاهلية الرعناء بكل ما تحمله من مفاسد وضلالات .

والجاهلية في عرف هذا القرءان ليست من الجهل المتعارف عليه بين الناس بل انها تقصد ان يبتعد المسلم عن كل ما يشينه ظاهرا وباطنا ، وان يجعل الايمان بالله وسيلته للنضال في هذه الارض التي استخلفه الله فيها لتعميرها واصلاحها لا لتدميرها وتخريبها .

هذا القرءان الذي لا يمكن ان يفهمه المسلم حق فهمه أذا لم يعش مع آياته البينات يستشفها ويغوص في دررها وتوجيهاتها القيمة السديدة.

وكيف يستطيع المسلم ان يفهم هذا القرءان اذا لم يكن مهيأ لفهمه فهما صحيحا قويما بعيدا عن نزعات اليهودية ودسائس النفاق وأحقاد الصليبية وبغضاء الاستعمار ونفثات المستشرقين المسمومة .

هذا القرءان الذي لم يترك ذرة من ذرات هذا الوجود الا وردها الى مصدرها الاول ، وهو الباري جل وعلا ، ولم يعللها بعلل من يدعون لانفسهم التعقل والحكمة والادراك ، فيستنتجوا من الاستنتاجات ما تكشف الايام على أنهم ضالون مضلون .

هذا القرءان الذي كرم الانسان بخصائصه المميزة له وشرفه عن ان يكون من سلالة القردة كما يريد له الدرويون وجعله نفحة من الروح الاسما حيث يقول : « فاذا سويته ونفخت فيه من روحي » .

هذا القرءان الذي وجد معارضة عنيفة من أصحاب المطامع والشهوات والامتيازات فصارعهم في غلوائهم ، فكانت معارك قاسية بين الرشد والغي ، والهدى والضلال ، والنور والظلام ، والحقائق والاوهام ، والكفر والايمان ، وبقى في عراكه مستميتا رغم التقلبات والطعنات ، فزادته المعركة اشراقة على اشراقه وجدة على كر الايام .

هذا القرءان المنزل من عند الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا ولن تجد لسنته تبديلا ولا تحويلا .

هذا القرءا الذي اذا رجع اليه المسلمون وتفهموه على وجهه الصحيح استطاعوا بناء أمة قوية تقدر على خوض معركة الحياة الضارية بعزم وحزم وهي متسلحة بسلاح العلم والمعرفة والتقوى والايمان والفضائل والاخلاق التي لم يعد لها مكان في الحضارة المادية المتغلبة على القلوب والعقول .

هذا القرءان الذي ينادي بالعمل والخير مع اليسر والاعتدال ، وان الذين لا يهتدون بهديه ويركبون أهواءهم لفي ضلال بعيد .

هذا القرءان الذي يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا بالايمان والعمل والتقوى والنضال . فهو يهدي المؤمنين الى معرفة الله والى معرفة أسرار الكون ، اما الكافرون الجاحدون فلهم فيه مصيرهم من العذاب الاليم لتنكبهم عن الطريق القويم .

وفي سورة الاسراء : « ان هذا القرءان يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا كبيرا وان الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما » .

هذا القرءان الذي جاء بالحق ليقرأ على مهل وتدبر وتمعن كما تقول آية الاسراء : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » . وقد استقبله المكذبون به استقبالا عنيفا محاولين ايقاف زحفه حفاظا على مكاسبهم ، ورغم ذلك فمنهم من كان يشعر بعظمته وسموه .

ولم يستطع موقفهم العنيد ايقاف زحف رسالة القرءان الذي كون أمة وأنشأها وأقام لها كيانا ونظاما حتى استطاعت أن تصل به الى الاوج وحققت الكثير من أهدافه ، وعليها أن تتابع رسالتها بعد ما تردى العالم فى جاهلية المادة والجحود ، ولن يتأتى ذلك للامة الاسلامية اليوم الا بعد تفهم مقاصد القرءان أولا .

والمسلمون اليوم يتلون القرءان بلسانهم ويحتفلون به ، ولكنهم يهملون معانيه ومحتوياته .

روى عن الصحابي المقرىء عبد الله بن مسعود قال : « كان الرجل منا اذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » .

هذا القرءان الذي نزله الله في أحسن حلة وأجمل مظهر وأغزر معنى كتاب متناسق الآيات لا اختلاف فيه ولا تضارب ولا تناقض ، يشبه بعضه بعضا في الحسن والجمال ودقة التعبير ، مثاني تكرر فيه المواعظ والقصص . فهذا القرءان اذا تكررت مقاطعه وقصصه وأحكامه فهي لا تختلف ولا تتعارض ، وتكرارها لفائدة تقتضي ذلك ، وتكرار القرءان حلو

بليغ ، أخاذ بالنفس ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ويتقونه ، ثم تهدأ مطمئنة لايمانها واستقامتها فتلين لذكر الله عز وجل ..

قال تعالى في سورة الزمر : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ».

وفي هذا القرءان تقول سورة النساء : « أفلا يتدبرون القرءان ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا)) .

هذا الخطاب العام المستمر لتدبر القرءان وامعان النظر فيه . هذا القرءان الذي اذا تدبره الانسان فسيجد فيه مبتغاه ، وسيلحظ فيه عدم التناقض والاختلاف ، سواء من جهة فنيته وصنعته او مما اشتمل عليه من قواعد وأحكام بخلاف كلام البشر ، فانه قابل للنقض لفظا وللتضارب معنى .

والتناقض الذي قد يتراءى فيه اما أنه راجع لسوء فهم اللغة التي جاء بها او لعدم الاحاطة بالموضوع المتحدث عنه في جميع الآيات او لعدم ادراك المقصد الذي وردت فيه الآية في المكان المنظور فيه .

ولا شك ان علم الله محيط لا تخفى عليه خافية ، فالنقص لا يرجع لكلام الله ، وانما يرجع الى الناظر فيه .

ولا يدخل في موضوع الآية ما ورد في القرءان من المتشابه لكون التشابه لا يعد تناقضا لاحتمالاته . والعقل البشري مهما ادعى من العلم والمعرفة فعلمه لا يقاس الى علم الله لكونه خلق ضعيفا قاصرا ، ثم مصيره الفناء ، ومن كان هذا شأنه يدرك أمورا وتخفى عيله أمور أخرى ، ويدرك جانبا وتخفى عليه جوانب ، وقد لا يدرك مكان العبرة في الآية فيدعى ان في القرءان تناقضا .

ويقول القرءان في سورة يونس : « وما كان هذا القرءان أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم

من دون الله ان كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » .

فلقد كان الكفرة يتقولون بأن القرءان مفترى من دون الله ، ومنهم من كان يقول ذلك عنادا ويعتقد خلاف ما يقول ويمنعه جحوده من الصدع بالحقيقة كما يتصورها ، ورب القرءان عليم بخفايا أولئك وهؤلاء ، فتحداهم جميعا سواء منهم من جحده من أساسه معتقدا ذلك ، او من جحده ظاهرا وهو في نفسه لا يعتقد ما يظهره بأن يأتوا بسورة مثله وهم أهل بلاغة وفصاحة وقدرة على القول .

وهذا التحدي القرآني هنا يظهر الكفرة جميعا بمظهر العجز والتقول والافتراء ويقوي عزم الرسول (ص) ويثبت فؤاده ليصبر على صدمات الشرك واليهودية والنفاق .

فهذا القرءان الذي زحزح مكاسب الشرك واليهودية جاء تاما ، شكلا وموضوعا وعمقا ،وتصورا وتصويرا وتنظيما وتحديثا وشرحا وتوضيحا وبيانا ومن شأنه كذلك ، وعجز خلاص البلاغة والبيان عن معارضته وطعنه كما عجز أهل المعرفة وقتئذ من دحضه وتسفيهه وتمييعه ، لا شك انه كلام من عند الله تلي عليهم فبهرهم ثم لا زال يتلى علينا ، ولا زلنا نجد فيه كل طراوة وجدة واشراق ، ولا زلنا نقف أمام آياته البينات ، مبهورين ، ولا زلنا نستنبط منه ، بل ان الكفرة من المستشرقين لا زالوا يبحثون هذا القرءان ويتحدثون عنه وعن عجائبه ، بل انشئت لهذا القرءان كراسي خاصة في جامعاتهم العلمية لبحثه وبحث حضارته ومقاصده وأهدافه ومراميه ، وكل هذا يدل على ما في القرءان من حيوية متدفقة ،وصمود لم يستطع البحث الحديث أن يتحداه ، كما لم يستطع كفرة القرون الخوالي.

فكيف يقبل أن يكون هذا القرءان مفترى ؟

وكيف يمكن لشرذمة الصهاينة والصلبيين والاستعماريين ان يوقفوا زحفه ولو تجمع شرهم وكيدهم ومكرهم ، وللقرءان أمته ولكنها لا تستطيع تحقيق رسالة القرءان الا اذا سلكت به نفس المنهج الذي سلكه الرسول الكريم (ص) وصحبه الابرار ، ومن خلفهم من الصادقين .

وهذا القرءان ليس بدعا من الرسالات السماوية فهو يقرر الكثير من أحكامها ثم يفوقها بكونه رسالة انسانية عامة خالدة باقية ختمت كل اتصال بين الارض والسماء وقررت حكم الله النهائي للبشرية في حياتها الدنيا وفي الآخرة .

وفي سورة هود : « أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين)) .

ان القرءان يتحدى المعاندين في صورتين من أنواع التحدي بحسب الحال ، فهو قد تحداهم بأن ياتوا بمثل هذا القرءان وتحداهم بأن ياتوا بسورة من مثله ، وتحداهم بأن ياتوا بعشر سور من مثله مفتريات ، فكانوا يعجزون دائما .

وليس القصد العدد لذاته وانما القصد التحدي لان ياتوا بنوع من الكلام يشبه نوع القرءان ويشتمل على مثل بلاغته واعجازه وأحكامه ، او فليؤلفوا قرآنا من نوع آخر فيه اتجاه معين ومذهب معين متكامل ، ويشبه أسلوب القرءان في صفائه وقوته وبيانه .

وتزيد هذه الآية في تحديهم بأن يتعاونوا على ذلك ويجمعوا له بلغاءهم وفصحاءهم وحكماءهم وعلماءهم ان كانوا صادقين .

وما أقساه من تحد يدفع أولئك الجاحدين وأمثالهم في كل زمان ومكان .

ان هذا القرءان لو عرض على قلوب المؤمنين الصادقين لهز مشاعرهم هذا القرءان الذي لو عرض على الصخر الجامد لاهتز خاشعا لله كما تقول آية سورة الحشر : « لو أنزلنا هذا القرءان على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون» فهذه الآية تمثيل لحقيقة القرءان وأثره ، فهو حقيقة رائعة ثابتة ، لا تتزحزح ولا تتقهقر .

وان المؤمن الصادق ليهتز ويخشع من أثر هذا القرءان ، وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون .

وفي سورة الاسراء : « وننزل من القرءان ما هـــو شفاء ورحمـــة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا » .

ففي هذا القرءان شفاء ورحمة لكل من آمن به بصدق وعمل حسب أوامره ونواهيه وتوجيهاته وتشريعاته ليطمئن من هول الحياة وقساوتهـا وضراوتها وقلقها وحزنها وحيرتها وأطماعها وأتعابها .

وفي هذا القرءان ضمانة للمؤمن به من أي انحـــراف أخلاقـــي أو سياسي أو اجتماعي أو مالي او شعوري او مذهبي .

وفي هذا القرءان عدل وحرية ونظام وبيان لكل شيء .

هذا القرءان العظيم الذي بدأ نزوله في ليلة القدر من شهر رمضان المعظم على قلب الرسول محمد (ص) فكانت تلك الليلة ليلة خالـــدة في تاريخ البشرية كلهـــا .

قال تعالى في سورة القدر : (انا أنزلناه في ليلة القدر ومـــا أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر » .

ويقول في سورة الدخان : « انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمرا من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربك انـــه هو السميع العليـــم » .

هذه الليلة المباركة التي بينت شهرها سورة البقرة في الآية الكريمة: « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرءان هدى للناس وبينات من الهـــدى والفرقـــــان » .

هذه الليلة المباركة التي هي خير من الف شهر ، والعدد هنا لا يقصد به سوى التكثير ، فهي ليلة عظيمة خالدة مشرقة نيرة تتنزل فيها الملائكة .

وكان صاحب الوحي جبريل عليه السلام ينزل بالقـــرءان على محمد (ص) بكل ما يحمله من معان سامية وقيم انسانية عالية .

هذه الليلة التي تستحق من المسلمين أن يتدبروا مغزاها ومعناها وأن يحتفلوا بها ويخلدوا ذكراها ايظل القرءان نبراسا لهم وهاديا . وقد قال (ص) : من قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه .

هذا القرءان الذي ذكرت آية سورة النحل آداب تلاوته حيث قالت : « فاذا قرأت القرءان فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)) .

فالقارىء للقرءان عليه ان يستعيذ من الشيطان الرجيم قبل الشروع في التلاوة تطهيرا لنفسه من الوساوس وتوجيها لقلبه للتدبر والخشوع .

والوسوسة لا تجد طريقها الا الى قلوب الذين ينفصل تفكيرهم عن الايمان وتميل قلوبهم الى الجحود والنكران أولئك الذين يستسلمون للشهوات والشرور والآثام . ومن هذه الطائفة المشركون الذين يتقولون على القرءان ورسوله بالكذب والبهتان . فاذا بدل الله آية ونسخها بآية بعد استنفاد غرضها قالوا : انما أنت مفتر لانهم جاهلون بمقاصد الشريعة ومراميها فلا يعلمون أسرارها واتجاهاتها .

وتؤكد الآية صحة هذا القرءان فتقول : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق . فليس هذا القرءان بمفترى . ليثبت الله به المومنين ويهديهم الى سواء السبيل » .

ثم تزيد الآية فتقول في الرد على المفترين : ((ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » . وهذا الزعم باطل أيضا ولا حجة تصدقه وهم يعلمون ذلك ويدركونه ولكنهم يتقولون ويشيعون الكذب والبهتان .

وقد روت كتب الاحاديث والسير أن المشركين زعموا أن النبي (ص) كان يجلس لرجل (1) اعجمي لا يتقن العربية فيعلمه القرءان ولكن كذب هذه الفرية واضح ، فالشخص الذي زعموا ان النبي (ص) يجلس له لا يستطيع بعجمته ان ياتي بهذه الآيات البينات الواضحات الفصيحات .

وفي سورة الاعراف : « واذا قرئ القرءان فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون)) .

هذا القرءان المقدس الجليل القدر المتعبد بتلاوته ، اذا تلي وجب الانصات اليه لمكانته وجلاله وكونه من كلام الله عز وجل .

ويجب مع الانصات التدبر في معناه والعمل بما يرد فيه من أوامر واجتناب ما يرد فيه من نواه . وقد جاء في سورة الانفال : « انما المؤمنون الذن اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا)) .

هذا القرءان الذي ألفت المؤلفات الضخمة في اعجازه وأجريت المناقشات والمباحثات والمناظرات في أسلوبه ، ولا يشك بليغ في اعجاز القرءان البياني ، ولكن اعجازه الحقيقي في نظامه وشكله وموضوعاته التي لا زالت مفاهمها تتجدد مع الاحداث والايام ولا زالت بين أيدينا نتدبرها ونهتدي بهديها كلما قدر لنا أن نرجع الى القرءان بالدرس والتمحيص والتدبر .

هذا القرءان الذي هو هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .

هذا الذي يجمع الى محتواه الخالد تعبيرا رائعا وقوة بيان ودقة تركيب ونصاعة وضوح .

وكتوضيح لتعابير القرءان الرائعة نقتطف من سورة البقرة قوله تعالى: « فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة » .

---

(1) اختلفت الروايات في اسم هذا الشخص ، فقيل اسمه جبر وقيل يعيش ، وقيل بلعام ، وكان نصرانيا .

حيث التصوير البديع والاعجاز الفائق الاخاذ فجعل الذين مصيرهـم الى النار بمنزلة الوقود لها هذه النار الشديدة التي تحرق حتـى الحجـارة الصلبة الصلـدة .

ولنقرأ كذلك قوله تعالى في سورة الرعد : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا في ضلال » .

دعوة الله هي الحق والهدى والرشاد ، أما الدعوات الجاهلية فهـي الى الباطل والغي والضلال وهي دعوات يصورها القرءان تصويرا فنيـا ممتازا حيث يجعلهم في جاهليتهم كظمآن يبسط كفيه يرفع الماء الى فيه ولكنه لا يبلغه . فهؤلاء الذين يدعون من دون الله لا يبلغون الى غايـة ولا يحققون مطلبـا .

وفي سورة الاسراء : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن ياتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ولقد صرفنا للناس في هذا القرءان من كل مثل فأبى اكثر الناس الا كفورا)) .

فهذا القرءان في اعجازه وبيانه ومحتوياته معجزة فريدة لا يقـدر الخلق على تقليده والاتيان بمثله ولو تظافرت على ذلك عوالـم متعـددة ومخلوقات متنوعة .

ولو أنها استطاعت ان تأتي بكلام يحوي بلاغـة وبيانـا وعلمـا لما استطاعت ان تأتي بكلام كامل مؤلف على نهج يشبه نهج القرءان .

والقرءان قد أتى بأمثال موضحة وبيانات شارحة ، ومـع ذلك أبـى الكفرة الا ان يستمروا في كفرهم فلم تنفعهم أمثال القرءان وحكمه .

وكم في القرءان من أمثال رائعة في بلاغتها سلسة فـي فصاحتهـا شيقـة في تعابيرهـا .

وحاول الكفرة أن يشككوا في القرءان لضربه الامثال بالاشياء الحقيرة والصغيرة ، ولذلك رد عليهم القرءان في سورة البقرة بقوله : « ان الله لا

يستحيي ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ما ذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الارض أولئك هم الخاسرون » .

ولننقل بعضا من أمثال القرءان لما فيها من الاشراق البلاغي والموعظة والذكرى .

فمن الامثال التي ضربها القرءان لتصوير نفسية المنافقين وحالتهم المضطربة القلقة قوله تعالى في سورة البقرة « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شيء قدير)).

فالمثل الاول يصورهم في صورة من استحب العمى على الهدى فلم ينتفعوا بما في القرءان من هدى وارشاد ، بل اختاروا الغواية والضلال .

والثاني يصورهم في اضطرابهم وفزعهم بمن أصيب بمطر فيه ظلمات ورعد وبرق فدخلهم الرعب والخوف حتى جعلوا أصابعهم في آذانهم من شدة الصواعق حذرا من الموت ، ويكاد البرق يخطف بصرهم من شدته وعنفه ، فكلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا .

ويضرب القرءان مثلا آخر في سورة البقرة للكفرة من مشركين ويهود في عنادهم ومروقهم وانحرافهم فيقول : « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الادعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون » .

فهم في كفرهم وعنادهم وجحودهم كالبهيمة التي لا تعقل ولا تعي ما يلقى اليها حتى اذا ما صاح بها صائح لا تفقه ما يقول ولا تسمع الا صوتا وكفى ، بل ان القرءان يجعل هؤلاء المارقين غير الواعين في حالة تجعلهم

أضل من السوائم لكونهم لا يستعملون عقلهم وتفكيرهم للاهتـــداء الى ما ينفعهـــــم .

وفي سورة ابراهيم : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ، ذلك هو الضلال البعيـــــد .

فيضرب الله مثلا في هذه الآية للذين كفروا وكذبوا بآيـات الله بأن أعمالهم هباء لكونها تفتقد عنصر الايمان ، فهي لا تفيدهم مع الله شيئا ولو بلغت ما بلغت فهي كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف . والرماد اذا اشتدت به الرياح في يوم عاصف يتبدد ويتشتت ولا يقدر أصحابـــه على الامساك بـــــه .

وفي سورة الحج : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذبـــاب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » .

فيعلن القرءان للناس كافة في هذه الآية مشهدا في مثل عجيب يقرر فيه أن الذين يعبدون من دون الله ويتعلقون بهم لن يستطيعوا ان يخلقـــوا ذبابا ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه . وهل يقبل ان يعبد من كان عاجزا عن خلق أتفه مخلوق كالذبابة ؟

والله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها اظهارا لعجـــز غيره عن الخلق والايجـــاد .

فهؤلاء الذين يدعون من دون الله لو اجتمعوا وتعاونوا على خلق ذبابة ما استطاعوا ، فما بالك بخلق ما هو أعظم قدرا منها .

ولا يعرف معنى هذا المثل حق معرفته الا من درس علـــم الاحيـــاء وتراكيب الاجسام وخاصياتها وانها في الطبيعة لشيء عجاب .

ثم تزيد الآية في بيان ضعفهم وعجزهم عن الخلق فتقـــول : « وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه » . فأصغر مخلوق كالذباب وما له من الاثر في الحياة ، يدل على قدرة الخالق وتفرده بالالوهية ، والمختصون

في العلوم الحيوانية والحشرية كما قلنا يدركون معنى هذا المثل في الآية أكثر من غيرهم ، والاطباء يعلمون جيدا ان الذباب قد يؤدي الى الموت بما يحمله من ميكروبات فينقلها ولا تدركها الابصار .

وضرب المثل بالذباب دون غيره من المخلوقات ذات الحجم الاكبر يظهر من ضرب لهم المثل بمظهر الضعف والعجز ، اذ لو ضرب المثل بحيوان كاشر كالسبع مثلا لكان في ذلك من القوة ما لا نحسه في التعبير بالذبابة المحتقرة الضعيفة التي لا تلفت النظر ولا تستوجب الوقوف . ضعف الطالب والمطلوب .

وتقول آية سورة العنكبوت : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

في معرض الكلام عن الكفر والطغيان والظلم والفسق والبلوى والفتنة يأتي هذا المثل ليصور ان القوات المدعاة ليست شيئا أمام قوه الله الحقيقية ، فهي كالعنكبوت الضعيفة الواهية ليتدبر أصحاب الجاه والسلطان والحكم والمال ، انهم ولو بلغوا في تعاليهم ما بلغوا فانما ذلك خديعة لانفسهم ، فهم من الضعف بمكان . وكذلك بالنسبة للماديين الذين يعتقدون أنهم قد سيطروا على الاكوان بعلمهم وتدبيرهم ويسقطون من حسابهم قدرة الخالق وعظمته وبطشه بالجبارين بعد امهالهم وترك الفرص لهم علهم ان يتوبوا الى رشدهم ويرجعوا عن غيهم .

مثل هؤلاء جميعا كمثل العنكبوت التي تبني بيتها من خيوط رخوة واهية لا تحمل ثقلا ولا تصمد لصدمة وهي في رخاوتها كلا شيء مع أنها في عملها آية من آيات هذا الكون ، فهي تبني بيتها بخيوط حريرية دقيقة يعجز الانسان عن صنعها وتغزلها وتنسجها بنفسها . فمن علم العنكبوت الغزل ؟ ومن علمها صناعتها الدقيقة ؟ ومن أرشدها للتغذية بالذباب عن طريق صيده بشباكها الحريرية اللزجة ؟ فليتدبر المتجبرون والطغاة عظمة الخالق وضعفهم الانساني أمام تلك العظمة التي تستطيع ان تسحقهم وتحيلهم الى عدم ، كما يستطيع أي واحد ان يحطم بيت العنكبوت بدون أدنى مجهود . وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون .

وفي سورة آل عمران : « ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا واولئك أصحاب النار هم فيها خالدون مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » .

هذا المثل أيضا كالمثل في سورة ابراهيم ، يبين أن ما ينفقه الكافر لا يغني عنه من الله شيئا ، لانه يفتقد عنصر الايمان الذي جعله الله وسيلة لقبول الصالحات ، وهؤلاء الكفرة لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، ولا تنجيهم من عذابـــه .

ويضرب القرءان هنا لذلك مثلا بالريح تحمل عاصفة بردية تهلـــك الحرث والنسل وتصيب الارض المخصبة فتتركها يبابا ، فكذلك ما ينفقـــه الكافر في الحياة ، قاصدا به الخير والاحسان .

والاولاد حسنة من حسنات آبائهم ، وينقطع عمل المرء بعد موتــه الا من ثلاث ، كما قال (ص) : ومنها ولد صالح يدعو له ، فاذا كان الولد كافرا كأبيه فلا يفيد ولا يستفيد .

وفي سورة الاعراف : « واتل عليهم نبأ الذي آتينـــاه في آياتنـــا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهـــث او تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا .

وترد هذه الآية في معرض الكلام عن التوحيد والشرك ، وما أخـــذ الله من ميثاق عن البشر ليؤمنوا به ويوحدوه يوم كانوا في عالم الغيـــب وأشهدهم على أنفسهم ان لست بربكم فقالوا بلى ولكنهم انحرفوا عن فطرة الايمان ونقضوا العهد فأشركوا بالله وكفروا .

وتأتي هذه الآية بمثل رائع في تصوير انسلاخ الجاحدين وبين يديهم الآيات البينات على ألوهية الله وانفراده بالوحدانية ، فهم يتبعون هواهم او يقلدون أباطيل آبائهم وأجدادهم فغدوا كمن أريد له الرفعة وأبى الا الهبوط والضعة والمسخ فهو كالكلب يلازمه اللهث في احواله سواء طورد أو لـــم يطـــــارد .

وهذا من أمثال القرءان العجيبة المصورة للاحوال الانسانية المتبعة لاهوائها المتخلية عن طريق الهدى .

ومن انحرف عن الجادة وركب هواه وأغلق قلبه فمن الصعب ان تجد الهداية طريقا اليه ويصبح حاله كحال الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهـــت .

وفي سورة يونس : ((انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما ياكل الناس والانعام حتـــى اذا أخذت الارض زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها امرنا ليـــلا او نهـــارا فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » .

هذه الآيات تمثل الدنيا في مظاهرها ومتاعبها وانغمار النـــاس في المتاع واغفالهم للخير والصلاح بالماء الذي ينزل من السمـــاء فيمتصـــه النبات فيخضر ويزهر وينتج ، وفي هذه الحالة تشاهد الارض في حللهـــا الزاهية وفي زينتها وما يخرج من نعيم للناس والانعام فيظنون انهم هـــم الذين جعلوها في حلتها بقدرتهم ومعرفتهم فيأتيها أمر الله ليـــلا ونهـــارا فيجعلها حصيدا كأن لم تغن بالامس . وان زمنا قصيرا ياتي فيـــه وباء أو برد أو فيضان أو حريق قد يحطم كل بهجة وزينة ، وهكذا حال الدنيا قـــد يستغرق جمع حطامها من الشخص وقته كله بشره ونهم ونذالة ولؤم بدون أن يفكر في مصيره ولا في أبواب الخير ، وقد يكون قاسيا في معاملاتـــه وبهذا الشره يصبح وكأنه لم يخلق الا ليجمع الحطام ويدخـــره بـــدون حساب .

ان المثل في القرءان يأتي ليميز الحق من الباطل او ليكشف عـــن شيء بالايضاح والبيان ونحو ذلك ، ومن ذلك ما ورد في سورة الرعـــد : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيـــا ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حيلة أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض ، كذلك يضرب الله الامثال)) .

هذا المثل يبين قوة الله وتدبيره ، فهو بقدرته ينزل الماء من السماء على الارض فتسيل به الوديان ، كل بحسب قدره فتحمـــل في سيرهـــا

واندفاعها ما يصادفها من غثاء يتحرك بقوة الدفع فيظهر منه شيء كالزبد يطفو على وجه الماء وهو منتفخ .

وكما تقع هذه الصورة عند نزول المطر وطفو الزبد فوق الماء تقع شبيهتها عند صهر المعادن لتصاغ منها الحلي او الآلات ونحو ذلك ، فان الغثاء يطفو على سطح المعادن ولكنه يذهب ليبقى المعدن نظيف صالحا كما يبقى الماء تحت الزبد صالحا للسقي .

كذلك الحق مع الباطل ، فالباطل له صولة ظاهرة ، ولكنه لا يلبث ان تختفي صولته ليظهر الحق بينا ناصعا .

ومن نواميس الكون أن الباطل يحاول دائما أن يتغلب على الحق ولكنه لا يستطيع الاستمرار في ظهوره ، لان الحق يكبته مهما طال أمده ، ولا يحتاج ذلك الا للصبر والعمل والنضال .

وأحداث التاريخ كلها تشهد بصولة الباطل ثم انهزامه وخفوت الحق ثم انتصاره .

والاسلام عند ظهوره صادف من عقبات الباطل ما جعل بعض النفوس تشفق على مصيره ، ولكن صاحب الدعوة الاسلامية برسوخ ايمانه وتصديقه بوعد الله حقق نصر الله الذي وعد به المؤمنين الصادقين .

وهذا شأن كل دعوة اصلاحية لا بد لها ان تصادف عقبات الباطل وبهتانه وبا صبر والثبات والصمود تحقق المبتغى والمرتجى .

وورد في سورة البقرة : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » .

فيمثل القرءان الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله بحبة يبارك الله في انتاجها الى سبعمائة حبة ، وليس القصد العدد والحصر ، بل هناك معنى اسما يقصد اليه القرءان وهو ان الله سبحانه يبارك للمنفقين في سبيله الفاعلين للخير والمعروف .

والمثل ما هو الا شيء محسوس يقرب المعنى للاذهان التي قــد لا تدرك فضل الله عليها وتظن ان أنفاقها ينقص من مكدساتها .

والله سبحانه لا يقبل عطاء المرابين ،وانما يتقبل عطاء الصادقيــن التوابين الذين لا يتبعون عطاءهم منا ولا أذى لما فيهما من الخسة والضعة والسقوط النفسي الدفين ، أولئك الذين يقصدون بانعطاء اهدار الكرامات ومس العواطف واخضاع الرقاب وقهرها ، وهو سبحانه لا يرضى ذلــك لعباده ولا يقبل من العطاء الا ما كان خالصا لوجهه بعيـــدا عن النذالــة والاسفــــاف .

ثم تزيد الآية فتقول : « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثــم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ،ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم ، يا يها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذي ينفق ماله رئـاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القــوم الكافرين ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاه الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة اصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لـم يصبها وابــل فطل ،وا لله بما تعملون بصير » .

ان قول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي يتبعهــا الاذى ، وتؤكد الآية على المؤمنين الصادقين ان لا يبطلوا صدقاتهم بالمــن والاذى كالمتظاهرين بالمعروف الذين لا يحسون بحلاوة الايمان لتكبرهم وجفائهم وتضرب لذلك مثلا بصفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا أي حجرا لاينبت ، كان عليه شيء من تراب فنزل عليه مطر غزير فأزال ما عليه من تراب وتركه بارزا كما هو في حقيقته .

فالذي ينفق ماله قصد التظاهر والتعاظم لا يستفيد منه ثوابا لكونه لم ينفق كما أراد الله منه أن ينفق فبقي كالحجر الصلد الذي لا خصب فيه. وعلى العكس من ينفق ماله في سبيل الله بدون رياء ولا من ،ولا أذى فمثله كمثل جنة خصبة تقوم على ربوة ، فاذا جاءها المطر انتجت واتت بالخير والبركات ، وجاء اكلها ضعفين ، فاذا لم يصبها وابل غزير وانما أصابها طل فانه يفيدها ويخصبها ، فهي على كل حال منتجة مفيدة .

وورد في سورة ابراهيم : « ألم تركيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار .

فيضرب القرءان مثلا هنا للكلمة الطيبة وللكلمة الخبيثة . فالاولى كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين باذن ربها . والثانية كالشجرة الخبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار .

والكلمة الطيبة تحمل معنى عاما يشمل النطق الاخلاقي الكريم وقول الحق والصبر على الاذى من أجله .

والكلمة الخبيثة تحمل معنى عاما كذلك فتشمل كل نطق فيه جفاء وضمور وجفاف وأذى وتغاضي عن الحق والاصلاح .

ان الكلمة الطيبة ذات أصل ثابت فهي رفيعة العماد مفيدة مثمرة ، لا تزحزها أعاصير الباطل وهيجانه .

وأن الكلمة الخبيثة من ذات أصل خبيث ، لا ثبات لها ، فلا تلبث ان تجتث من فوق الارض وتتلاشى ، ولا عبرة بهيكلها الذي قد يغر ضعاف العقول الذين لا يميزون بين المفيد وغير المفيد .

فالخير ثابت واو طعنه الباطل . والشر مزحزح ولو رصع بالاكاليل والتنفيقات السخيفة .

وهكذا يضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون .

وورد في سورة النور : « الله نور السماوات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم ».

فالنور قوام الحياة وعصبها ، فاذا كان الماء أصل الحياة فبالنور تتم الحياة وتزدهر ، وبالكشف عن أسرار النور استطاع الانسان ان يصل الى

مكنونات في الوجود عظيمة . ومن دعاء النبي (ص) : (أعوذ بنور وجهك الذي اشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة) .

ويضرب القرءان هنا مثلا لنور الله الذي يعجز البشر عن ادراكه وسره ليقرب لعقله الضعيف معنى يدركه بحسه .

فمثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المشكاة هي الكوة غير النافذة ، فاذا كان المصباح في مشكاة فان نوره يكون أقوى وأبين لتجمع الاشعة في دائرة محدودة . ويزيد تألقه بكون المصباح في زجاجة صافية لامعة كأنها كوكب دري منسوب الى الدر لشدة صفائه . وهذا المصباح يوقد من شجرة مباركة زيتونة . وزيت الزيتون صافي اللمعان . وسماها القرءان مباركة لما فيها من الفوائد التي تعود على الانسان . وهذه الزيتونة المباركة ليست شرقية ولا غربية أي لا يحجبها عن الشمس أى حاجز لا شرقي ولا غربي ، فتكون ثمرتها ناضجة وطيبة ، وهو بيان للتقريب والايضاح لا غير .

ويعرف رجال الفلاحة أن شجرة كالزيتون لا تكون منتجة الا اذا كانت في أمكنة معينة وعلى ارتفاع معين وتتمتع بحرارة الشمس ، لانها لو كانت مظللة لما أنتجت ، او لانتجت نتاجا سيئا . يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . ويدرك هذا جيدا من يعرف زيت الزيتون الصافية جدا عند ما تكون في زجاجة شفافة .

ان هذا المثل رائع حقا في تصوير نور الله وهدايته .

والله يهدي لنوره من يشاء من اولئك الذين تتفتح قلوبهم وعقولهم . وهكذا يضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم .

والآية تخاطب قوما لم يكونوا يعرفون ضياء الكهرباء ، ومع ذلك فالمثل يحلق في سماء البلاغة والبيان المعجز ويصور النور تصويرا رائعا حتى فى عصر الكهرباء . وهذا من اعجازات القرءان الذي ينتزع من الطبيعة صورا ليقدمها للبشر لعلهم يرشدون .

وما أجمل هذا التصوير القرآني الذي أبرز النور في صورة رائعة .

ثم بعد ذلك تصور لنا الآية تصويرا اخاذا مشهدين للكفر الذي يعيش صاحبه في ظلام من الضلال والجهالة والانحراف ، وذلك في مقابل

صورة الاشراق والنور فتقول : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله نورا فما له من نور)) .

فأعمال الكفار كسراب بأرض متسعة ومنبسطة ولا نبات فيها ، تلتمع فيتبعها الظامىء متوقعا الماء بها حسب الرؤية فاذا وصل لا يجد شيئا يروي عطشه .

فهؤلاء الكفرة أعمالهم التي ظاهرها خير ، اذا كان يوم الحساب وجدوها كسراب بقيعة فلا يجازون عليها ، فهي أشبه حالا بالسراب الذي يظنه العطشان ماء ولا يجده كذلك ، ووجدوا يوم البعث الله سبحانه فوفاهم حسابهم على كفرهم وجحودهم وهو سبحانه سريع الحساب .

أو كظلمات في بحر لجي كثير الماء لا يدرك قعره متموج يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض .

وهذا المشهد أيضا يصور بطلان أعمال الكفرة ، وكأنه قذف بها في بحر لجي متراكم الغيوم شديد الظلام والهول .

فالكفر ظلام دامس مهول لانقطاع صاحبه عن نور الايمان والطريق السوي ، فلايكاد يميز النور ، فيرتكس في الظلام والاهوال . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

وهكذا يضرب القرءان الامثال الرائعة البليغة المعبرة عن الكثير في جمل قليلة .

وفي سورة الكهف : « ولقد صرفنا في هذا القرءان للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شيء جدلا)) .

فيضرب الله الامثال للناس ليتدبروا ويفتحوا عقولهم ويصرفوا قلوبهم على الكفر والجحود .

والكفرة لم يتوجهوا الوجهة التفكيرية السليمة لينظروا في القرءان ويتدبره شأنهم في ذلك كشأن الجاهليين اليوم بل أخذوا يجادلون ويكثرون من الجدل السخيف البعيد عن الحق والهدى .

والآية تظهر نزعة من نزعات الانسان ، فهو كثيــر الجدل ، كثيــر الغرور ، لا يكاد يستقر على حـــال .

وكما ساق القرءان الامثال ساق القصص في مواضع مختلفة أيضـا ولم يسقها لمجرد الحكاية او التاريخ ، وانما ساقها لعبرة أو لاقامة حجة ، لكون القرءان ليس كتاب تاريخ بالمعنى التاريخي المعروف .

وتتميز القصة في القرءان بمميزات خاصة تجعلها متناسقة مــع ما تنشده الدعوة الاسلامية من بناء وتكوين روحي وموضوعي ونفسي .

وقد نجد قصة واحدة تكررت في القرءان في مواضع شتى لدواعي ملحة قد يغفل عنها القاصرون فيظنون ان في ذلك تكرارا لا فائدة فيه .

ومن الناحية الفنية فالتكرار للقصة في القــرءان لـيس على نسق واحد لدواعي توجب ذلك ، وبالاخص في موضع الصــراع بين الدعــوة وخصومها ، وفي اقامة الحجة والبرهان على وجود الخالـق ، وتصرفــه المطلق في هذا الكون تصرفا قد يخرج بالاشياء عما اعتادت ان تسير عليه من نواميس معينـــة .

والقرءان عند ما يعرض القصة لا يعرضها الا بقدر الاحتياج الـــذي يقتضيه المقام ويترك ما عدا ذلك .

وقد اعتنى القرءان اعتناء خاصا بقصص الانبياء وجهادهم في سبيل العقيدة وموقف قومهم منهم موقفا عنيدا قاسيا شريرا ، يعبـــر عمـــا في النفس الانسانية من جحود وعزوف عن الحق اذا اصطدم بالمصالح الخاصة أو بما الفه الناس من تقليد بدون ان يحاولوا الاستعمال لتفكيرهم وعقلهم ، ولذلك نجد القرءان يحض على استعمال العقل كلما عرض الى صراع من هــذا النـــوع .

ولا نكاد نجد قصة من قصص الانبياء في القرءان لا تماشي الامتداد الايماني الذي يلهمه الله للناس عن طريق رسله وأنبيائه . ثم يخلص لنتيجة واحدة هي وجوب الايمان بالله الذي هو محور الدعوات كلها منذ عهد نوح الى رسالة الاسلام العامة الخالدة .

القـــرءان الكريـــم

منذ نزل القرءان وهو محل اكبار واجلال ، لا من المسلمين وحدهم ، بل حتى من أولئك المشركين الذين كانت تاخذهم بلاغته وفصاحته وبيانه وسلامة تعبيره فيصفون صاحبه بالسحر لقدرة تأثيره بالقرءان على العرب الذين كانوا يدخلون في الاسلام سرا وجهرا .

وتاخذ الدعوة الاسلامية طريق نجاحها ، وينتقل النبي (ص) من مكة موطن المشركين الذين أعمتهم الغواية عن التفكير وصرفهم حب الرياسة عن تفهم المعاني السامية التي كان يرشدهم اليها محمد (ص) بآيات القرءان المعجزات الى المدينة حيث وجد الاسلام خصوبة عقـــول قـــوم سمعوا القرءان بقلوبهم وافهامهم ، فأطاعوا معانيه السامية وخضعـــوا لاحكامـــه الوادعة ، وفي هذا الجو الاسلامي الرائع سجل القرءان انتصاره على غلاظ الاكباد ورعائن الوثنية لينشر الاسلام والاخوة بين البشرية قاطبة وليبني المؤمنين دولة يطمئنون تحت رايتها ، لما في شريعتها من أنظمة رائعـــة تنشد المحبة والعدل والمساواة والاخوة .

ولم يرق لليهود بالمدينة ان ينتصر القرءان ، ولم تسمح لهم نفوسهم الشريرة برؤية محمد (ص) ينتقل بدينه من مكة الى مدينة يثـــرب لينشر قرآنه ويكتل حوله جماعات طالما تقاتلت وتخاصمت ولم يستطع أحد ان يوحد كلمتها حتى جاء القرءان بنظامه وأحكامه ليحقق بينهم الوحدة ، ومع غيرهم من الذين كانت تغمرهم القبلية والعصبية . وأخـــذ اليهـــود على أنفسهم أن يحاربوا الاسلام والمسلمين بالسلاح ان وجدوا السبيل ، فان لم يجدوا فبالمكر والدس والوقيعة والاختلاق ، وهي أمور يجيدها اليهود منذ كانوا حتى ان علماءهم لم يتورعوا في كيدهـــم عن أن يدسوا في كتابهـــم السماوي ما يماشي هواهم ويحقق طيشهم . ولم يكن موقف النصارى على قلتهم بالجزيرة وقتئذ من الاسلام مثل موقف اليهود ، بل كان من بينهم من ينتظر ظهور نبي العرب حسب تنبؤات كتبهم ليدخلوا في دينه وليؤمنـــوا برسالتـــــــه .

والقرءان لم ينزل دفعة واحدة ، وانما نزل منجما حسب الوقائـــع والاحداث لاصلاح الاحوال وبناء دولة متميزة بتجديداتها الانسانية .

والقرءان ككتاب دعوة اسلامية شاملة للعقيدة والشريعة اشتمل على بيان العقيدة في صفائها وعلى وضع أسس التشريع في مختلف الجوانب التي تمس حياة العباد . فرجل التوحيد والفلسفة يبحث فيه عما يؤيد نظريته ، والفقيه يستنبط منه الاحكام ، سواء ما يرجع منها للعبادة ، كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، او ما يرجع منها الى الامور المدنية ، كالبيوعات والاجارات ، او الى الجنائية كالسرقة والقتل ، أو الى نظام الاسرة والاحوال الشخصية كالزواج والطلاق والارث ، او الى علاقات المسلمين مع بعضهم أو مع غيرهم كالقتال وأحكام المحاربين والغنائم والعهود . وفيه الوعد للمؤمنين بالاجر والفلاح ، والوعيد للكافين والمنحرفين الضالين بما يخوفهم من كفرهم وضلالهم ليتوبوا ويرجعوا ، فاذا فعلوا وجدوا ثواب الله وغفرانه وعفوه . وفيه قصص وأخبار لتذكير المتطاولين حتى ياخذوا العبرة ممن سبقهم من الامم ، ولذلك كانت القصة في القرءان قصيرة ، فهي لم يؤت بها لتسجيل التاريخ ، لان القرءان ليس مؤلفا تاريخيا بقدر ما هو كتاب دعوة وتوجيه . وفيه مواعظ وأمثال يضربها الله لمن تاهوا ووقعوا في الاثم والفجور ، كما تضرب أمثال القرءان لاصحاب الفكر ليعتبروا ويتذكروا . ويرجع للقرءان علماء النحو واللغة والبلاغة والبيان لياخذوا من تركيبه ما يفيدون به اللغة العربية التي حفظت بالقرءان وبقيت آياته من دلائل الفصاحة والبلاغة والابداع . الى غير ذلك مما يشتمل عليه القرءان ككتاب مقدس معجز في أسلوبه ومعانيه .

فأسلوب القرءان لا يضارعه أسلوب ، فهو نسيج وحده في حلاوة أسلوبه وبديع نظمه وعذوبة وضعه وروعة دلالاته وتنوع طرقه وقوة خطابه وانفراده بالدقة في اللفظ والمعنى . « أفلا يتدبرون القرءان ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

أما معاني القرءان ، فمنذ نزل والبشر يدرسه ويستنبط منه ويبحث ذخائره وعجائبه حتى جاء العصر الحديث حيث توجه لدراسته جمهور من غير المسلمين ، وأخذتهم الدهشة من هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولما كان اعجاز القرءان البياني يتبين في لفظه العربي الدال على معاني دقيقة وتعابير خالدة ، فقد امتنعت ترجمته الاعجازية ، فهو اذا ترجم لفظه فقد قوته التعبيرية ودقة معانيه .

ورسالة القرءان هي رسالة اصلاح وتوجيه الى الخير والرشاد وابعاد عن المشقة والضيق والحرج والجمود ، والتشريع القرآني تشريع ميسر لا مشقة فيه ولا جمود ، قليل التكاليف ، متدرجا فيما يفرضه من أحكام .

والمسلمون جميعا عنوا بالقرءان عناية خاصة ، فحفظوه ورتلوه ودونوه ودرسوه من جميع الجوانب حتى أصبحت دراسته تتطلب الاطلاع على علوم شتى تجمعت مع القرون التي قطعها الاسلام ، مما يطول التعرض اه بتفصيل ، فليرجع الى كتب علوم القرءان وفي مقدمتها الكتاب الجليل : (الاتقان في علوم القرءان) للحافظ جلال الدين السيوطي .

والقرءان في ألفاظه ومعانيه وأساليبه جار على أساليب اللغة العربية فهو كتاب عربي صميم نزل على رجل عربي أصيل ، قال تعالى :

« انا جعلناه قرآنا عربيا » .

« قرآنا عربيا غير ذي عوج » .

« نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » .

« ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)) .

والدعوة الاسلامية لما أخذت طريقها الى الانتشار كان لزاما أن ينتشر القرءان وان تنتشر لغته العربية ، وهكذا احتلت اللغة العربية مكان الصدارة في العالم على عهد صعود الحضارة الاسلامية وأصبحت بسبب القرءان لغة العلم والعمران .

ودعوة القرءان دعوة شاملة عامة لا تتقيد بقبيلة ولا جماعة ولا شعب ولا أمة معينة ، ولذلك فالقرءان ، ولو كانت لغته عربية فأحكامه وتعاليمه لا تخص العرب وحدهم ، ولكن لا بد لغير العرب اذا ما أرادوا أن يفهموا كتاب الله على حقيقته واعجازه فلا بد لهم من تعلم لغة القرءان ، هذا

القرءان الذي فسح لهم الطريق عند جهلهم بلغته وعدم تعلقهم باعجازه أن يتعبدوا به ويتدارسوه حسبما تيسر لهم بلغاتهم .

قال الامام الشافعي بعد ما تكلم على لغة العرب في الخاص والعام : « فمن جهل هذا من لسانها وبلسانها نزل القرءان وجاءت السنة فتكلف القول في علمها تكلف ما يجهل لفظه ، ومن تكلف ما جهل وما لم تثبته معرفته كانت موافقته للصواب ان وافقه غير محمودة ، وكان في تخطئته غير معذور ، اذ نظر فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الصواب والخطا فيه ».

وقال الشاطبي في ألاعتصام تعليقا على قول الشافعي :

« وما قاله حق ، فان القول في القرءان والسنة بغير علم تكلف ، وقد نهينا عن التكلف والدخول تحت معنى الحديث حيث قال (ص) : (حتى اذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا) الحديث ، لانهم اذا لم يكن لهم لسان عربي يرجعون اليه في كتاب الله وسنة نبيه ، رجع الى فهمه الاعجمي وعقله المجرد عن التمسك بدليل فيضل عن الجادة . وقد خرج ابن وهب عن الحسن أنه قيل له : أرأيت الرجل يتعلم العربية ليفهم بها لسانه ويصلح بها منطقه ؟ قال : نعم فليتعلمها ، فان الرجل يقرأ الآية فيعيا بوجهها فيهلك . وعن الحسن قال : أهلكتهم العجمة يتأولونه على غير تأويله ... لزم كل من أراد أن ينظر في الكتاب والسنة أن ينعلم الكلام الذي به أديت وان لا يحسن ظنه بنفسه قبل الشهادة له من أهل علم العربية بأنه يستحق النظر وأن لا يستقل بنفسه في المسائل المشكلة التي لم يحط بها علمه دون أن يسأل عنها من هو من أهلها ... » .

فالقرءان نزل باسان عربي مبين ، ولا يستطيع ان يغوص في معانيه الا من كان ذا مقدرة على تفهم اللغة العربية وأساليبها تفهما قويا وصحيحا وهو شيء يحتاج الى الدراسة الواعية العميقة .

أما فى عهد النبوة فقد كان العرب من الصحابة يسمعون الآية فياخذهم بيانها ، فمنهم من كانت له القدرة على فهم المعنى كله ، ومنهم من كان دون ذلك ، وهناك ثلة من الصحابة كعبد الله بن عباس وعلي ابن أبي طالب وعمر ابن الخطاب وأضرابهم كانت لهم قدرة راسخة في تفهم القرءان وتفهم أسراره ، ومع ذلك لم تكن فيهم الجرأة على ان يتقولوا على كتاب الله بمجرد

الاعتماد على ما ظهر لهم فيما كان في احتياج الى زيادة الاطلاع والتفكير والبحث ، أو ما كان متشابها لا يسمح لهم دينهم ان يتقولوا فيه بمجرد الظن .

ومحمد (ص) الذي نزل عليه القرءان عربي صميم من أفصح العرب فشرحه للقرءان بصفته نبيا ،وعربيا هو أصح شرح ، وكذلك شروح علماء الصحابة الذين جرى الخطاب على لسانهم وما اعتادوه في كلامهم . ((ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي)) .

ولا يمكن ان يفهم القرءان فهما صحيحا الا لمن كانت له القدرة العربية على فهمه ، فالذين لا يعرفون العربية من الاجانب او من العرب الذين قصر بهم الحال عن تفهم اللغة العربية ، هؤلاء جميعا يعتمدون في تفهمهم للقرءان اما على مطلق الظن ، والظن لا يغني من الحق شيئا ، او على مجرد ما قاله غيرهم والتقليد في مثل هذا لا يليق بالعلماء والباحثين .

قال الشاطبي في الموافقات تلخيصا من رسالة الامام الشافعي :

فان قلنا ان القرءان نزل بلسان العرب ،وانه عربي وانه لا عجمة فيه فبمعنى انه نزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها ، وانها فيما فطرت عليه من لسانها تخاطب بالعام يراد به ظاهره ، وبالعام يراد به العام في وجه والخاص في وجه ، وبالعام يراد به الخاص وظاهر يراد به غير الظاهر ، وكل ذلك يعرف من أول الكلام او وسطه او آخره ، وتتكلم بالشيء يعرف بالمعنى كما يعرف بالاشارة ، وتسمى الشيء الواحد بأسماء كثيرة ، والاشياء الكثيرة باسم واحد وكل هذا معروف عندها لا ترتاب في شيء منه ولا من تعلق بعلم كلامها ، فاذا كان كذلك فالقرءان في معانيه وأساليبه على هذا الترتيب ، فكما ان لسان بعض الاعاجم لا يمكن ان يفهم من جهة لسان العرب ، كذلك لا يمكن ان يفهم لسان العرب من جهة فهم لسان العجم لاختلاف الاوضاع والاساليب هـ ا.

وقال الحسن البصري : أهلكتهم العجمة يتأولونه على غير تأويله .

وكان أئمة المسلمين رغم تبحرهم في معاني اللغة العربية يتخذون كامل الحيطة عند تفهم معاني القرءان حتى لا يحرفوا الكلم عن مواضعه

ولو بحسن نية ، اذ قد تخفى على الواعي احيانا بعض مسالك الكلام فيحتاج الى كثير من التروي وتقليب الكلام على وجوهه المختلفة .

قال ابن عباس (ض) : كنت لا ادري ما فاطر السماوات والارض حتى أتاني أعرابيان مختصمان في بئر ، فقال أحدهما : انا فطرتهـــا اى انــا ابتدأتهـــا .

وروي عن عمر (ض) أنه سأل وهو على المنبر عن معنى قوله تعالى : « أو ياخذهم على تخوف » . فأخبره رجل من هذيل أن التخوف عندهم هو التنقـــــــص .

فابن عباس وعمر من الصحابة الواعين ، ومع ذلك توقفا في فهـــم بعض آيات القرءان ، ولا ضير في ذلك ، فاللغة العربية متسعة الجوانـــب وكتاب الله البليغ يقلب الكلام على الوجوه العربية البيانية ، والزلـــق في فهم القرءان خطير ، وبالاخص ممن هو في مكان القدوة ، ومن أجل هـــذا كان المخلصون من المسلمين يتخذون الحيطة قبل ان يدلـــوا بالـــرأي ، ولنسقط من حسابنا المتنطعين الذين لا يتورعون عن القول حسب هواهم ومشيئتهـــم .

والقرءان كما هو معروف وضع للاسلام اتجاهه العام وكليات قواعده وترك للمجتهدين القادرين من المسلمين أمر التصرف في تطبيق أحكـــام الكليات على الجزئيات الطارئة ، ولا يتوفر ذلك الا فيمن علم لغة القرءان ومقاصد الشريعة الاسلامية الغراء .

وقد برأ الله سبحانه القرءان من أن يكون فيه تضاد في معانيه حيث قال سبحانه : « أفلا يتدبرون القرءان ولو كان من عنـــد غير الله لوجدوا فيـــه اختلافا كثيرا » .

وكيف يمكن ان يعرف عدم الاختلاف من لم تكن له القدرة على جمع الآيات بعضها لبعض وتفهمها فهما صحيحا . ولو ان القـــرءان كان فيـــه تضارب لتنبه له اولئك الاقحاح الذين بذلوا محاولاتهم لمعارضـــة القرءان فعجزوا وتحداهم القرءان تحديا صارخا ليقيم الحجة عليهم وليستفيد من ذلك التحدي الخلف عند تدبره للقرءان .

والاختلاف في وجهة نظر المجتهدين في فهم القرءان لا يستوجب أن في القرءان تضاربا ، لان القرءان انما يقرر معنى واحدا لا يختلف في نفسه ولكن فهم الدلالة في اللسان العربي يفتح المجال للعقل الذي أقره القرءان وحض المسلمين على استعماله ، وهذا يدل على عظمة هـــذا القـــرءان وتوجيهـــه القويـــم .

واختلاف الآراء رحمة بالعباد ، غير ان هذا الاختـــلاف اذا تفاحش لا بد ان يرد الى الله ورسوله كما قال تعالـــى : « فان تنازعتـــم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيـــر وأحسن تاويـــلا » .

والرد الى الله ورسوله بالرجوع الى الكتاب والسنـــة الصحيحـــة ومقاصد الشريعة وتوجيهات الاسلام العامة التـــي هـــي صـــراط الله المستقيـــم .

وقد تعرض علماء الاسلام الى ازاحة الشبه عن بعض الآيات القرآنية التي قد تظهر وكأنها متناقضة كقوله تعالى : « وأقبل بعضهم على بعـــض يتساءلون » مع قوله سبحانه : « فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهـــم يومئذ ولا يتساءلون » .

وقد أوضح ابن عباس أنه لا تناقض هنا بقوله : فـــلا أنساب بينهـــم يومئذ ولا يتساءلون في النفخة الاولى : « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات والارض الا من شاء الله فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون» ثم في النفخة الاخرى : « ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون . أقبل بعضهم على بعض يتساءلون » .

ان الفاظ اللغة العربية قد تكون واضحة في دلالتها لا تحتمل تأويلا وحيئذ يجب ان تفهم حسب دلالتها واما ان تحتمل التأويل ، وهناك تختلف الآراء ، ولكن يجب أن لا تخرج في اختلافها عن مفاهيم الاسلام ومقاصده ، ولذلك نرفض قبول التفسير بالاشارة لانه لا يماشي الدلالة العربية ويختلف مع القرءان نفسه الذي نص على انه نزل بلسان عربي مبين .

والتفسير الاشاري هو ان يؤول القرءان بغير ظاهره لاشارة خفيـــة تظهر لارباب السلوك والتصوف .

ورغم أن الدلالة اللغوية تختلف مع هذا النوع من التفسير فقد اختلف العلماء فيه ، فمنهم من أجازه ومنهم من منعه .

قال الزركشي في البرهان : « كلام الصوفية فى تفسير القرءان ، قيل انه ليس بتفسير ، وانما هو معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة كقول بعضهم في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار» ان المراد النفس اذ أقرب شيء الى الانسان نفسه » .

وكتفسير أهل الاشارة لقوله تعالى : « واذ قال موسى لقومه ان الله يامركم ان تذبحوا بقرة » . ان ذبح البقرة اشارة الى ذبح النفس البهيمية، فان ذبحها حياة القلب الروحانية .

قال السيوطي في الاتقان : « وأما كلام الصوفية في القرءان فليس بتفسير » .

ذلك ان ما يفسرون به لا يتفق ومدلول اللغة العربية ومفاهيم الشريعة .

ومثل هذا التفسير يشوه معاني القرءان ويسيء الى اللغة العربية ويفسد بيان القرءان وبلاغته واعجازه .

قال أبو الحسن الواحدي : « صنف أبو عبد الرحمان السلمي حقائق في التفسير ، فان كان قد اعتقد ان ذلك تفسير فقد كفر » .

وقال النسفي في عقائده : « النصوص على ظواهرها والعدول عنها الى معان يدعيها أهل الباطل الحاد » .

وقال التفتزاني : « سميت الملاحدة باطنية لادعائهم ان النصوص ليست على ظاهرها ، بل لها معان لا يعرفها الا المعلم ، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية » .

قال ابن عطاء الله : « أعلم ان تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني الغريبة ليس احالة للظاهر على ظاهره ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جاءت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان ولهم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه ، وقد جاء في الحديث لكل آية

ظهر وبطن فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم ان يقول لك ذو جـــدل ومعارضة : هذا احالة لكلام الله وكلام رسوله (ص) فليس ذلك باحالة وانما يكون احالة لو قالوا : لا معنى للآية الا هذا ، وهم لم يقولـــوا ذلـــك ، بل يقررون الظواهر على ظواهرها مرادا بها موضوعاتها ويفهمون عن الله مـــا ألهمهـــــم » .

ولننبه الى ان هذا الكلام صادر عن رجل صوفي ، والصوفية ينحون منحى التفسير الاشاري وهم أهل وجدان وشطحات ، ولـــو ان الاسلام أسس على الوجدانيات والشطحات لما استطاع ان يؤسس حكمـــا ولا ان يقيم دولة ولا ان يخوض معارك الحياة على اختلافها ، ولكان قد انقـــرض منذ زمان كما تنقرض طوائف الدراويش واحدة تلو الاخرى .

ويقول الاستاذ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابـــه : (مناهـــل العرفان في علوم القرءان » :

« ... ومن هنا يعلم الفرق بين تفسير الصوفية المسمى بالتفسير الاشاري وبين تفسير الباطنية الملاحدة ، فالصوفية لا يمنعون ارادة الظاهر بل يحضون عليه ويقولون : لا بد منه اولا اذ من ادعى فهم أسرار القرءان ولم يحكم الظاهر كمن ادعى بلوغ سطح البيت قبل ان يجاوز الباب . وأما الباطنية فانهم يقولون : ان الظاهر غير مراد أصلا وانما المراد الباطـــن ، وقصدهم نفي الشريعـــة » .

فالاستاذ الزرقاني يحاول ان يبرر اشارات الصوفية دون الباطنيـــة بكون الصوفية لا يرفضون الظاهر بخلاف الباطنية ، وسواء رفض الظاهر أو لم يرفض فان الذي يفسر بالاشارة ينحرف بالقرءان عن مدلوله وهـــو شيء لا يقبل سواء صدر عن الصوفية او عن الباطنية ، اذ كل ذلك تفسير بالاشارة .

ولم يثبت ان النبي (ص) كان يفسر القرءان عن طريق الاشارة وهـــو أعلم الناس بالقرءان ومعاني القرءان .

قال ابن تيمية : « يجب ان يعلم ان النبي (ص) بين لاصحابه معانـــي القرءان كما بين لهم ألفاظه فيقول تعالى : « لتبين للناس ما نزل اليهم » . تنـــاول هـــذا وهـــذا)) هـ .

وقد كان الصحابة على عهد النبوة اذا تعلموا من النبـــي (ص) عشر آيات لا يتجاوزونها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، وكان النبي (ص) يعلمهم معاني القرءان حسب تنزيله ولم يلوث الصحابة الاولون كتاب الله بالتقولات والتخرصات وانما كانوا يفهمونه كما تلقوه من صاحب الرسالة بدلالته العربية الواضحة .

وما روجه اليهود من الاسرائيليات كان له كبير الخطر على تفسيـــر القرءان ، اذ تأثر بذلك بعض المفسرين وادخلوا ذلـــك في تفاسيرهـــم فأساءوا للقرءان وللاسلام ولو عن حسن نية . وأظن أن التفسير بالاشارة ما هو الا ضرب من المتسربات التي تسربت للاسلام عن طريق اليهـــود والمنافقين وأحلاس الامم الذين دخلوا للاسلام وفي قلوبهم مرض .

ومن كلام الزركشي في البرهان مختصرا : « للناظـــر في القرءان لطلب التفسير مآخذ كثيرة أمهاتها أربعة : النقل عن النبي (ص) والاخـــذ بقول الصحابي ، فان تفسيره بمنزلة المرفوع الى النبي (ص) مما لا دخل للرأي فيه ، والاخذ بمطلق اللغة ، فان القرءان نزل بلسان عربي ، والتفسير بالمقتضى من معنى الكلام ، والمقتضب من قوة الشرع ، وهذا هو الذي دعا به النبي (ص) لابن عباس حيث قال : اللهم فقهه في الديـــن وعلمـــه التأويل . والذي عناه علي بقوله : الا فهما يؤتاه الرجل في القرءان . ومن هنا اختلف الصحابة في معنى الآية فأخذ كل برأيه على منتهـــى نظره ، ولا يجوز تفسير القرءان بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل ، قال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » . وقال : « وان تقولوا على الله ما لا تعلمون» وقال : « لتبين للناس ما نزل اليهم » . وقال (ص) : « مـــن قـــال في القرءان بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » هـ .

وحديث لكل آية ظهر وبطن ، قد فهمه علماء الحديث وشرحوه حسب مشاربهم ، ولكن جلال الدين السيوطي في الاتقان ارتضى ما قاله أبو عبيد: من أن القصص التي قصها الله تعالى عن الامم الماضية وما عاقبهم بـــه ظاهرها الاخبار بهلاك الاولين ، انما هو حديث حدث به عن قوم ، وباطنهـا وعظ الآخرين وتحذيرهم ان يفعلوا كفعلهم فيحل بهم مثل ما حل بهم هـ .

وذكر ان المراد بالظاهر المفهوم العربي ، والباطن هو مراد الله تعالى من كلامـــه وخطابـــه .

وقيل الظاهر ظاهر التلاوة ، والباطن هو الفهم عن الله لمراده ، وكان المشركون والمعاندون للاسلام يغفلون عن مراد الله في خطابه ، لان الكفر والضلال طمس بصيرتهم عن الادراك حيث انهم لم يسمحوا لعقولهم بأن تفكر وتستنتج وأن كانوا بصفتهم عربا يفهمون ظاهر الدلالة ، وقد يعميهم كفرهم حتى عن فهمها ، والواقع يشهد بأن بعض الناس يسمعون كلاما يفهمونه ، ولكن لا يعونه كما يجب لتشتت عقولهم ، وقد قال تعالى : فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا .

وقال : « أفلا يتدبرون القرءان ولو كان من عند غير الله لو جدوا فيه اختلافا كثيرا » .

ولا تفهم دلالة القرءان جيدا الا باستقصاء معانيه المنبثة في عدة آيات وبمجموع تفهمها كلها يستطيع المرء ان يدرك مدلول الخطاب ، وعلماء الاصول قد تحدثوا بما يكفي ويشفي عن العام والخاص والمطلق والمقيد والمجمل والمبين ، وعن كل ما يدخل في مفهوم الدلالة القرآنية العربية من قواعد تكشف للدارس مفاهم الدلالة .

والمجتهدون الذين استنبطوا من القرءان أحكاما شتى لم يقدروا على استنباطهم الا بعد ما درسوا القرءان والسنة دراسة عميقة هي التي منحتهم القدرة على تفهم الخطاب الكريم .

والاشارة القرآنية التي كان يفهمها الصحابة كعرب ليست من النوع الذي حاول المتصوفة ومن لف لفهم أن يقحمه على مدلولات القرءان العربية ، ومن أمثلة ذلك :

سئل ابن عباس عن معنى قوله تعالى : « اذا جاء نصر الله والفتح » فقال : انما هو أجل رسول الله (ص) أعلمه الله اياه . وهو تفسير باطن ، أما ظاهر الدلالة أن السورة فيها أمر للنبي (ص) بتسبيح الله واستغفاره ، اذ نصره الله وفتح عليه .

وهذه الاشارة التي فسر بها ابن عباس مقبولة ولا تخرج بالقرءان عن اتجاهه .

ولما نزل قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » فرح المسلمون ، ولكن عمر بن الخطاب فهم ان الآية تشير الى قرب أجل النبي (ص) فبكى وقال : ما بعد الكمال الا النقصان ، وبالفعل توفي رسول الله (ص) بعد واحد وثمانين يوما من نزولها .

ولا يخفى على البصير باللغة العربية ان دلالتها تكون على الحقيقة والظاهر أو على أنواع المجاز والتعابير المختلفة ، ولذلك لا يمكن فهم القرءان الا ممن كانت له القدرة الكافية على تفهم أساليب اللغة العربية ، وعلى هذا الاساس نستطيع أن نفهم مثل قوله تعالى : « تجري بأعيننا . وهو السميع البصير . والارض جميعا قبضته يوم القيامة . الرحمان على العرش استوى » .

وقال ابن عباس : ان القرءان ذو شجون وفنون وظهور وبطون ، لا تنقضي عجائبه ولا تبلغ غايته ، فمن أوغل فيه برفق نجا ، ومن أوغل فيه بعنف هوى ، أخبار وأمثال وحلال وحرام وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه وظهر وبطن ، فظهره التلاوة وبطنه التاويل ، فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء .

والتفسير بالاشارة فتح بابا من التأويلات المضللة والارجاف بالاقاويل التدجيلية واستغلال ذلك استغلالا بشعا حتى على الصعيد السياسي كقول من قال في تفسير قوله تعالى : « حمعسق » : ان الحاء حرب علي ومعاوية ، والميم ولاية المروانية ، والعين ولاية العباسية ، والسين ولاية السفيانية ، والقاف قدوة مهدي .

وفي تفسير قوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب » أنه قصص القرءان .

وفي قوله تعالى : « ولكن ليطمئن قلبي » . ان ابراهيم كان له صديق وصفه بأنه قلبه أي ليسكن هذا الصديق الى هذه المشاهدة اذا رآها عيانا .

وفي قوله تعالى : « ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به » . انه الحب والعشق .

وفي قوله تعالى : « الذي جعل لكم من الشجر الاخضر . يعني ابراهيم . نارا أى نورا وهو محمد (ص) . فاذا أنتم منه توقدون . تقتبسون الدين » .

وفي قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » . ان الآية لم ترد الاكل في الحقيقة وانما أرادت معنى مساكنة الهمة أي لا تهتم بشيء هو غيري .

وفي قوله تعالى : « ان أول بيت وضع للناس » الآية أن باطن البيت قلب محمد (ص) .

وفي قوله تعالى : « والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل » . ان الجار ذي القربى القلب . والجار الجنب النفس الطبيعي . والصاحب بالجنب العقل المقتدى بعمل الشرع . وابن السبيل الجوارح المطيعة لله عز وجل .

الى غير ذلك من الترهات التي يجب ان تبعد عن كلام الله وعن مفاهيم الاسلام القويمة .

أن دلالة القرءان واضحة بينة في اللسان العربي ، وقد قال سبحانه : « ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)) . قيل في المراد بالبشر أنه سلمان الفارسي او حبر من أحبار النصارى دخل في الاسلام او غيرهما ، ممن لسانه ليس عربيا .

وعلى أي فالقرءان يصرخ في وجوه الذين يحاولون الادعاء بأن النبي (ص) كان يتلقى من أهل ديانات أخرى وفي نفس الوقت يثبت في الرد عليهم عربية القرءان وعجمة المشار اليهم ممن لسانهم ليس بعربي .

وقال تعالى : « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته آعجمي وعربي » .

قال الشاطبي في الموافقات : ... فاذا كل معنى مستنبط من القرءان ، غير جار على اللسان العربي ، فليس من علوم القرءان في شيء لا مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به ، ومن ادعى فيه ذلك فهو في دعواه مبطل ... ربما أخذ تفسير القرءان على التوسط والاعتدال ، وعليه أكثر السلف المتقدمين ، بل ذلك شأنهم وبه كانوا أفقه الناس فيه وأعلم العلماء بمقاصده وبواطنه . وربما أخذ على أحد الطرفين الخارجين عن الاعتدال

اما على الافراط واما على التفريط ، وكلا طرفي قصد الامور ذميم . فالذين أخذوه على التفريط قصروا في فهم اللسان الذي به جاء وهو العربيـــة ، فما قاموا في تفهم معانيه ولا قعدوا كما تقدم عن الباطنية وغيرهـــا ، ولا اشكال في اطراح التعويل على هؤلاء . والذين أخذوه على الافراط أيضـــا قصروا في فهم معانيه من جهة أخرى ...

والواقع ان المتأولين للقرءان والخارجين به عن دلالته في معظمهـم انما يفعلون ذلك لغرض ما كما فعل أصحاب السياسة حينمـــا حاولـــوا أن يستغلوا القرءان لتأييد دعوتهم السياسية . وقد ذكروا ان عبيـــد الله المهدي رائد المملكة الفاطمية الشيعية كان له مناصران من كتامة ، يسمى احدهما بنصر الله والآخر بالفتح فكان يقول لهما : أنتما اللذان ذكركما الله في القرءان حيث قال : « اذا جاء نصر الله والفتح » وهو الذي غير قول الله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » بقوله : (كتامة خير أمـــة أخرجت للناس) . أليس هذا تزويرا وكفرا وبهتانا ؟ وكيف ستصبح معاني القرءان لو أخذ كل ناعق يؤوله حسب هواه ونعرته ؟ ، لقد فتـــح انحراف المتأولين والاشاريين والخارجين عن المدلول العربي أبوابا من البهتـــان جرت على الاسلام تقولات ما أنزل الله بها من سلطان .

ومهما يقل من شيء فان الدارس للقرءان يجب أن يكـــون مـــزودا بمعرفة اللغة العربية معرفة دقيقة وبمعرفة مقاصد الشريعة وأهدافها .

والصحابة الكرم كانوا لا يتقولون على القرءان ولا يتكلمون فيـــه الا بمعرفة وادراك ، فقد قال أبو بكر (ض) حينما سئل عن قولـــه تعالـــى : « وفاكهة وابا » : أي سماء تظلني وأي أرض تقلني ان انا قلت في كتاب الله ما لا اعلم . ولكن ذلك لم يمنعه من ابداء الراي عن بينة واجتهاد ، فقد سئل عن الكلالة في قوله تعالى : « يستفتونك قل الله يفتكم في الكلالـــة » . فقال : أقول فيها برأيي فان كان صوابا فمن الله وان كان خطأ فمني ومن الشيطان . وهو في شرحه للكلالة يعتمد على فهمه العربي وعلى مقاصـد الشريعة ، وليس كأولئك المتأولين للقرءان حسب هواهم او كأولئك الذين دفعوا بالقرءان الى مجاهل غامضة وتأويلات مسرفة .

وروى ابن مسعود (ض) أنه قال : ستجدون أقواما يدعونكم الى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم ، فعليكم بالعلم ، واياكم والتبدع ، واياكـــم والتنطع وعليكم بالعتيق .

وقال عمر بن الخطاب : انما أخاف عليكم رجلين : رجل يتأول القرءان على غير تأويله ، ورجل ينافس الملك على أخيه .

وقال : ما أخاف على هذه الامة من مؤمن ينهاه ايمانه ، ولا من فاسق بين فسقه ، ولكني أخاف عليها رجلا قد قرأ القرءان حتى أذلقه بلسانه ثم تأوله على غير تأويله .

فالذي يستطيع أن يفهم القرءان فهما حقيقيا لا بد ان يكون مزودا بالمعارف الكافية ، ولا بد ان يكون أيضا حسن النية والمقصد متفتح المدارك للخوض في دلالات اللغة وأساليبها وحتى الكلمات التي استعملها القرءان معربة قد أخضعها لاساليب العربية بحيث يسهل فهمها على العربي فلا يجد غضاضة في فهمها وهضمها . والدخيل في اللغة وتعدد القراءات كلاهما لا يقدح في مفهوم القرءان ، وكان النابهون من الصحابة يستطيعون فهمه بمجرد سماعه لكونه نزل بلغتهم ، وان كان يوجد بينهم تفاوت في الادراك ، لان العقول مختلفة في درجات الوعي والذكاء بدليل ان الصحابة كان بعضهم يسأل بعضا عن معاني في القرءان . وتاريخ الصحابة يحدثنا عن جماعة من الواعين الذين كان يرجع اليهم ويوخذ رأيهم في أشياء كثيرة تحتاج الى معرفة القرءان وشريعته كعلي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأضرابهم .

وفي القرءان آيات متشابهات ، فما شرحه الرسول منها نتمسك بشرحه ، وما لم يشرحه بقى معرضا للتأويلات المختلفة ، وأظن ان بعض المتشابهات انما تشابهت بالنسبة لنا لا بالنسبة للصدر الاول حيث كانت العقيدة صافية كصفاء اللجين ، ثم بعد ان أخذت تختلط بالمتسربات أخذ المتشابه يظهر وكأنه كان مختفيا .

والقرءان يقرر وجود المتشابه فيقول سبحانه : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم » . ومن أجل ذلك فان بعض الآيات القرءانية لا تحتاج الى معرفة اللغة فحسب ، بل لا بد معها من معرفة أشياء أخرى .

ونحن ملزمون بتفهم الآيات المحكمات غير ملزمين بادراك حقيقة المتشابه ، لاننا لم نكلف بذلك وان كنا لم نمنع من المحاولة .

ومهما يكن من أمر فان الصحابة وحدهم من اقدر الناس على تفهم معاني القرءان ، اذ بلغتهم نزل وهم أعلم بأسباب نزوله ،ومكامن أسراره مع اعتبار ما بينهم من تفاوت في المعرفة ،وملازمة النبي (ص) . ثم خلفهم خلف أقحموا في تفاسير القرءان اشياء ، ثم منهم من ادعى ان كل شيء في القرءان حتى ما يرجع للعلوم ، وغاب عنهم ان القرءان كتاب دعوة قبل ان يكون كتاب علوم ، وان من الاضرار بالاسلام ان نحشر القرءان فيما لم ينزل من اجله ، اما تفاسير الصحابة وشروحهم فقد كانت بعيدة عن كل المقحمات الطارئة .

وحاول المقحمون ان يستدلوا لعملهم بقوله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء . ما فرطنا في الكتاب من شيء » . ولكن الواعين من المفسرين حملوها على ما يتعلق بحال التكليف والتعبد . ومن المفسرين من قال : ان المراد بالكتاب في الآية هو اللوح المحفوظ .

ولما كان القرءان كتابا مقدسا عند المسلمين ومشتملا على أحكام دينهم وعقيدتهم وشريعتهم اهتموا به اهتماما فائقا وبحثوا عن معانيه وحفظوه وتدارسوه واستطلعوا معانيه ونشروها بين الناس .

وبعد الهجرة الى المدينة وتحقيق النصرة للاسلام بانتشاره بين القبائل أخذ القراء من الصحابة يذهبون الى هنا وهناك لينشروا القرءان ويوضحوا تعاليمه حتى كان عمر بن الخطاب يرسل الى القبائل قراء ويعاقب بعد ذلك من لم يحفظ شيئا من القرءان ، ثم أصبح من سنة المسلمين أن يحفظوا القرءان ويعتنوا به . ذكر ان أبا الدرداء كان اذا صلى الصبح في جامع بني أمية بدمشق اجتمع الناس عليه للقراءة ، فكان يصفهم عشرة عشرة ويجعل على كل عشرة عريفا حتى بلغ تلامذته أكثر من ألف وستمائة .

قال الامام الشافعي : رأيت سفيان بن عيينة قائما على باب كتاب ، فقلت له : ما تصنع ههنا ؟ قال : أحب أن أسمع كلام ربي من فم هذا الغلام .

لقد حفظ المسلمون القرءان وحافظوا عليه بلفظه العربي المنزل على محمد (ص) لاشتماله على شؤون دينهم ولكونه متعبدا بتلاوته ، وقد نقل الينا هذا القرءان بالتواتر ، فيكون القرءان الذي بين أيدينا هو القرءان الذي نزل على محمد (ص) بلفظه وجميع آياته من غير تحريف ولا تبديل ولا نقص ولا زيادة .

وتراكيب القرءان كلها عربية ، أما الفاظه فاختلف فيها ، فأجاز بعضهم ان يكون فيه ألفاظ من اصل غير عربي ، ولا ضير في ذلك ، وقال بعض آخر : انه لا يوجد فيه شيء من غير لغة العرب ، وما يظن فيه أنه من غير اللغة العربية ، فهو مما تواردت عليه اللغات فتكلم به غير العرب كما تكلم به العرب .

وأظن أن الدخول في مثل هذه المجادلات مما لا طائل تحته ، فالقرءان ولو أن فيه ألفاظا معربة فهو عربي في دلالته ، وهذا هو المهم . ومن عظمة القرءان اشتماله على ذلك ، فهو ككتاب عظيم يظهر للبشرية على اختلافها تسامحه بتعريب كلمات من عدة لغات لكونه لم ينزل للعرب وحدهم وانما نزل للبشرية قاطبة ، فهو وان كان عربيا في وضعه يدخل السرور على غير العربي عند ما يجده يستعمل كلمات من لغته ، كما ان ذلك يجعل لغة القرءان تسود وتنتشر وتستوعب الحضارات وتجد آفاقا واسعة للازدهار .

ان القرءان معجزة الاسلام في لفظه ومعناه ، فلكونه معجزا في لفظه أمر الرسول بأن يتحدى به خلاص العرب ، ولكونه معجزا في معناه ففي خلوده واستمرار تعاليمه وتجددها كلما نظر فيها بامعان وتدبر ، ولا أدل على ذلك من صموده للضربات ووقوفه في عصرنا هذا ، عصر المخترعات في وجه كل مبدا أرضى مفتعل .

ان المذاهب تنقرض ولكن القرءان لا زال بتعاليمه يقف شامخا في وجه الاعاصير .

فان كانت هناك عقائد ، فللقرءان عقيدته ، وان كانت هناك اخلاق ، فللقرءان أخلاقه ، وان كانت هناك مبادىء واتجاهات ، فللقرءان مبادئه واتجاهه ، وان كان هناك تشريع ، فللقرءان تشريعه الخالد ، وان كانت هناك قوانين للحكم والعدل والمساواة ، فالقرءان من السباقين في هذه الميادين بجانب أشياء أخرى كثيرة تنتشر في آياته البينات هنا وهناك .

ويجب ان لا نغفل ان القرءان ككتاب دعوة يخاطب الضمير ويفتح القلوب بميزة اختص بها وهي انه يحث على التفكير ويدعو الى استعمال العقل ويؤيد العلم ولا يعاديه كما فعلت الكنيسة في الماضي حينما كانت تدين المفكرين والعلماء .

ومن مميزات القرءان بالنسبة المجتمعات أنه جعل الحكم شوريا أي ديموقراطيا في أجمل صور الديموقراطية وأحسنها ، ومنـــع السيطـــرة الفردية المطلقة لانه لا سيطرة الا الله ، والبشر انما هم خلفاء في الارض ، فلا ينبغي ان يتعدوا ما استخلفوا فيه ليصبحوا فراعنة متألهين .

وشورية الاسلام في القرءان تخضع للرأي وتراعي الذمة والضميـــر والعهد والميثاق وتبتعد عن ضلال الشرك والوثنية ، وتمنع على المسلـــم أن يضل عن سبيل الله من أجل السياسة بخضوعه لمخلـــوق يسخـــره ويستعبده وتوجب عليه ان يامر بالمعروف وينهى عن المنكر في نفسه أولا ثم في غيره بالحكمة والموعظة الحسنة والاقناع ، واذا استنزف طـــرق الحكمة والاقناع فله ان يدفع الشر بالطرق التي يراها صالحة لدفعه .

والحاكم في نظر شريعة القرءان ما هو الا خادم لمصالح اخوانـــه ، فيجب ان يكون مخلصا فيما وليه من أعمال والا عد خارجا عن طاعة اللـــه ورسوله وذمة المؤمنين ، وعلى المحكومين ان يعاونوا حكامهم الصادقيـــن على الخير اذا استقاموا بما يصلح دينهم ودنياهم .

والقرءان لا يقبل أن يثري الحكام او غيرهم على حساب عرق الناس ولذلك وزع الثروة توزيعا عادلا وحمل على المحتكرين ووعدهم بالعقـــاب والخسران ، فالمال مال الله والخلق عيال الله ، وعدالة الله أشرف وأكرم من أن تسمح بأن يسخر عياله كما تسخر البهائم والجمادات .

واذا كان القرءان يقر التفاوت في أشياء لا بد من التفاوت فيها فانه لا يقر التفاوت في الحقوق والواجبات والعـــدل والحريـــة والكرامـــة والمساواة .

ان العالم لا يستوي مع الجاهل ، والقادر لا يستوي مع العاجـــز ، والمصلح لا يستوى مع المفسد ، والمجد لا يستوى مع الخامل ، ولكن لا عصبية ولا جنسية ولا طائفية ولا محسوبيـــة ولا تمييـــز في الحقـــوق والواجبات بين الرجل والمرأة الا فيما لا يمكن ان تكون المراه فيه رجلا أو العـــكس .

ولما كان المسلمون مضطرين الى ان يرتبطوا بغيرهم ارتباطات دولية أشار القرءان الى وجوب الوفاء بالعهد ما لم ينقض الطرف الآخر او لم يف بكل ما تعهد بـــه .

والقرءان عند ما شرع الاحكام نص على العقوبات الزاجرة للمعتدين ليستقيم مجتمعه وتضمن سلامته الصحية والعقلية والحكمية والاقتصادية والعلمية ، ويحفظ من الفوضى والاضطراب والتنافس غير الشريف وهو في ذلك يريد من المسلم ان يكون نظيف اليد والقلب واللسان والضمير ، قوي الارادة ثابت العقيدة ، راسخ الايمان ، محافظا على فروضه ، بعيـــدا عن الرهبانيـــات .

ومبادىء القرءان السامية هي التي جعلته ينتشر بقوة خارقة ممـــا أثار الضغينة والحقد عليه من أولئك الذين وقفوا منه موقفا لا يشرفهـــم ، وبلغ بهم الحقد ان تقوّلوا على صاحب الرسالة بأقاويل يمجهـــا الـــذوق السليـــــم .

والقرءان لم ينتصر بالقوة كما يزعمون وانما انتصر بمبادئه وعمـــق ايمان معتنقيه ، ولو انه استعمل القوة والعنف لما ترك مغلوبيه أحرارا في عقائدهم ، اذ كل أحداث الاسلام شهامة وتسامح لا نظير لهما ، تسامح مع اليهود ، فدسوا عليه ما شاءت لهم طويتهم الشريرة واخلاقهم العارية عن كل فضيلة ، وتسامح مع النصارى ، فجردوا عليه حملاتهم الصليبية التي تشوه تاريخهم وتشكك فيه .

وهذه شهادات من علماء نصارى في الاسلام ودعوته :

يقول الدكتور غستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) :

... وقضى أعداء الاسلام من المؤرخين العجب من سرعة انتشار القرءان العظيمة فعزوها الى ما زعموه من تحلل محمد وبطشه ، ويسهـــل علينا ان نثبت ان هذه المزاعم لا تقوم على أساس ... وسيرى القارىء حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم ، ان القوة لم تكن عامـــلا في انتشار القرءان ، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارا في أديانهـــم ، فاذا حدث أن اعتنق بعض الاقوام النصرانية واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما

رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين وبما كان عليه الاسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل ...

ويقول روبرتسون في كتابه : (تاريخ شارلكن) :

« ان المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو اتباع الاديان الاخرى ، وانهم مع امتشاقهم الحسام نشرا لدينهم تركوا من لم يرغبوا فيه أحرارا في التمسك بتعاليمهم الدينية » .

ويقول ميشود في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) :

« ان القرءان الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الاديان الاخرى ، وقد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب ، وحرم محمد (ص) قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات ، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس ، فذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود بلا رحمة وقتما دخلوها » .

ويقول الراهب ميشو في كتابه (رحلة دينية في الشرق) :

« ومن المؤسف أن لا تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الاحسان بين الامم واحترام عقائد الآخرين وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة » .

ويقول جرجي زيدان في كتابه (تاريخ التمدن الاسلامي) :

« ... ومن العوامل الفعالة في سرعة نضج العلم في النهضة العباسية وكثرة ما ترجم في تلك المدة القصيرة ان الخلفاء أصحاب تلك النهضة كانوا يبذلون كل مرتخص وغال في سبيل نقل الكتب ويرغبون النقلة وغيرهم بالبذل والاكرام بقطع النظر عن مللهم او نحلهم او أنسابهم ، وقد كان فيهم النصراني واليهودي والصابىء والسامري والمجوسي ، فكان الخلفاء يعاملونهم كافة بالرفق والاكرام مما يصح ان يكون مثالا للاعتدال والحرية وقدوة لولاة الامور في كل العصور » .

ويقول الاستاذ فنسنك في كتابه (مسلم كريط) :

(ومع أن نصارى الشرق كان يقل عددهم باعتناقهم الاسلام ، فقل منهم من أسلم كرها » .

ويقول الدكتور فيليب حتي :

« ونستطيع القول ان المسيحيين كأقلية في البلدان المسلمة لم يكن حظهم أقل من حظ الكثير من الاقليات حتى في البلدان المتمدنة الآن » .

ويقول هـ. ج. ولز في كتابه (معالم تاريخ الانسانية) :

« ... فهذا الالحاح على الرفق والرعاية في الحياة اليومية انما هو واحد من فضائل الاسلام الكبرى ، بيد انه ليس الفضيلة الوحيدة فيه . ويعادل هذا في الاهمية التوحيد الذي لا هوادة فيه والذي يتجرد من كل اعتزال يهودي وهو توحيد يدعمه القرءان الكريم ، وكان الاسلام منذ البداية قوي المقاومة الى حد بعيد لعمليات الصقل والتفاصيل اللهوتية التي اربكت المسيحية وفرقت كلمتها وقضت على روح عيسى ... ولا يزال للاسلام حتى يومنا هذا فقهاء ومعلمون ووعاظ ، ولكن ليس له كهنة ولا قساوسة . كان مليئا بروح الرفق والسماحة والاخوة ، وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم ، وقد وقفت ضده اليهودية ثم المسيحية ، كما حاربته المزدكية نحلة المجوس ... وقد أوصل محمد (ص) هذه المبادىء الجذابة الى سويداء القلوب دون اى رمزية مبهمة ودون أي تعتيم للهياكل ولا ترتيل للقسوس » هـ .

هذه بعض من آراء حول الاسلام وقرآنه وما أكثرها ، اذ القرءان بنصاعته ومبادئه قد اجتذب كبار المفكرين اليوم ، كما اجتذبهم في الماضي ، وأصبح الاسلام في هذا العصر يحتل مكانة بارزة في الدراسات الغربية بحيث لا تكاد جامعة في أروبا لا يحتل كرسي الاسلام فيها مكانة ، وكثرت الدراسات حول الاسلام كثرة لا تحصى من جميع جوانبه .

والمسلمون منذ أضاء لهم الاسلام معالم الطريق وهم يحلقون حول القرءان دارسين ومنقبين حتى غدت الدراسات القرآنية لديهم تتميز

بالعمق والتحليل والاستنباط ، وألفت الكتب العديدة وقعدت القواعد لدراسة القرءان وتفهمه والخوض في أسراره وما أكثرها حتى بلغت دراساتهم الى البحث في تعداد آيات القرءان وكلماته وحروفه وآداب تلاوته ومعرفة غريبه وما وقع فيه بغير لغة الحجاز وبغير لغة العرب والنظائر ومعرفة اعرابه .

وباختصار لقد درس القرءان من كل الجوانب التي تخطر على العقل ووضعت التفاسير والكتب المطولة لذلك ولا زال القرءان يدرس ، ولا زالت أعاجيبه تكتشف ، ولا زالت قدسيته تبز الملحدين والجاحدين .

قال نبي الاسلام (ص) : ما من الانبياء نبي الا أعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله الي فأرجو ان أكون اكثرهم تابعا .

وذكر في معنى هذا الحديث : ان معجزات الانبياء انقرضت بانقراض عصورهم ، فلم يشاهدها الا من حضرها ، ومعجزة القرءان مستمرة الى يوم القيامة .

وقد أطال علماء الاسلام في شرح أوجه اعجاز القرءان وألفوا في ذلك التآليف المطولة وأكثروا من التحليلات والبيانات حتى لم يبق عالم من علماء الاسلام الا وتجد له قولا او رأيا في أوجه اعجاز القرءان . وفي هذا الموضوع سئل الامام الغزالي عن معنى قوله تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا)) . فأجاب : الاختلاف لفظ مشترك بين معان ، وليس المراد نفي اختلاف الناس فيه بل نفي الاختلاف عن ذات القرءان ، يقال هذا كلام مختلف أي لا يشبه أوله آخره في الفصاحة او هو مختلف الدعوى أي بعضه يدعو الى الدين وبعضه يدعو الى الدنيا ، او هو مختلف النظم فبعضه على وزن الشعر وبعضه منزحف وبعضه على أسلوب مخصوص في الجزالة وبعضه على أسلوب يخالفه ، وكلام الله منزه عن هذه الاختلافات ، فانه على منهاج واحد في النظم مناسب أوله آخره وعلى درجة واحدة في غاية الفصاحة ، فليس يشتمل على الغث والسمين ، ومسوق لمعنى واحد وهو دعوة الخلق الى الله تعالى وصرفهم عن الدنيا الى الدين، وكلام الآدميين تتطرق اليه هذه الاختلافات ، اذ كلام الشعراء والمترسلين اذا قيس عليه وجد فيه اختلاف في منهاج النظم ثم اختلاف في درجة

الفصاحة بل في أصل الفصاحة حتى يشتمل على الغث والسمين ، ولا ينفك كلام آدمي عن هذه الاختلافات ، لان منشأها اختلاف الاغراض بالاحوال ، والانسان تختلف أحواله فتساعده الفصاحة عند انبساط الطبع وفرحه ، وتتعذر عليه عند الانقباض ، وكذلك تختلف أغراضه فيميل الى الشيء مرة ويميل عنه أخرى فيوجب ذلك اختلافا في كلامه بالضرورة فلا يصادف انسان يتكلم في ثلاث وعشرين سنة وهي مدة نزول القرءان ، فيتكلم على غرض واحد ومنهاج واحد . ولقد كان النبي (ص) بشرا تختلف أحواله ، فلو كان هذا كلامه او كلام غيره من البشر لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

فأهداف القرءان واضحة وأساليبه بينة تماشي مفاهيم اللغة العربية لانه نزل بلسانها ، ولذلك قال بعض العلماء : « يجب على المفسر أن يتحرى في التفسير مطابقة المفسر وان يتحرز في ذلك من نقض لما يحتاج اليه فى ايضاح المعنى أو زيادة لا تليق بالغرض ، ومن كون المفسر فيه زيغ عن المعنى وعدول عن طريقه وعليه بمراعاة المعنى الحقيقي والمجازي ومراعاة التأليف والغرض الذي سيق به الكلام)) .

وقال أبو حيان : « كثيرا ما يشحن المفسرون تفاسيرهم عند ذكر الاعراب بعلل النحو ودلائل مسائل أصول الفقه ودلائل مسائل الفقه ودلائل أصول الدين ، وكل ذلك مقرر في تأليف هذه العلوم ، وانما يوخذ ذلك مسلما في علم التفسير دون استدلال عليه ، وكذلك أيضا ذكروا ما لا يصح من أسباب النزول وأحاديث في الفضائل وحكايات لا تناسب وتواريخ اسرائيلية ، ولاينبغي ذكر هذا في علم التفسير » .

أليس أبو حيان هنا يدعو الى تنقية القرءان مما علق به من الشوائب والى الاقتصار على معنى القرءان الكريم لانها وحدها التي تهم ، وأما القواعد فليرجع اليها في الكتب المؤلفة في علوم اللغة والبيان وغير ذلك ، وان كان القرءان أكبر حجة في اللغة العربية ، ولكن ذلك لا يستلزم ان نشوش التفاسير بأشياء بعيدة عن المعنى السامي للقرءان فلعلماء اللغة والبيان ان يستدلوا بالقرءان على قواعدهم ، ولكن المفسر للقرءان ليس ملزما بنقل القواعو وشروحها أثناء التفسير كما يجب ان يبعد من التفاسير الاحاديث الموضوعة التي يأتي بها بعض المفسرين كدليل على فضائل بعض الآيات بدعوى الاستئناس بها ، لاننا نرفض الوضع في جميع أشكاله ، اذ القرءان

أسما من أن يؤيد بالموضوعات ، وكذلك يجب تطهير التفاسير من الخرافات والحكايات والاسرائيليات عموما ، فقد ألحقت كلها أضرارا بالقرءان والاسلام وجعلت المسلمين يعتقدون صحتها ، مع ان معظمها ليس باطلا علميا فحسب بل لا يتفق مع المنطق والعقل ، والقرءان لا يجادل الا بالمنطق والعقل ويرفض الاباطيل كيفما كان نوعها ومصدرها .

واذا عزم المسلمون على بناء مجدهم على أسس قويمة فليرجعوا الى قرآنهم بعقلية متجددة واعية بعيدة عن تضليلات الاسرائيليين والصليبيين والمبشرين والمستشرقين .

أما العرب فعليهم ان يدركوا هذا جيدا ويدركوا أيضا أن القرءان نزل بلسانهم وأخرجهم من جاهليتهم الى نور الحق والمعرفة ومن انكماشهم الى حيث وضعوا أيديهم على ممالك عظيمة وامبراطوريات شاسعة ، فهم لم يسودوا الا بالقرءان ولم يتغلبوا الا بأحكامه الرشيدة وحججه البليغة ، وبالقرءان استمتعوا بنضارة الحياة وطيباتها ، وبه دانت لهم الرقاب ، لا ليستعمروها ولكن ليرشدوها وياخذوا بيدها الى قمة المجد والخلود .

ان على الامة الاسلامية جمعاء وهي في طريق نهوضها ان تراجع تاريخها وحضارتها وان تسترشد بقرآنها وأن لا تسقط في عبادة المادة وحدها وتبتعد عن الناحية الروحية فتقع في هوة من الشذوذ والفساد ، ولو أن الامة الاسلامية في نهضتها الحاضرة اندفعت في طريق المادية المجردة ، وابتعدت عن سبيل القرءان لحل بها ما حل بالدول الغربية ، ولكنها اذا تقدمت علميا وتقنيا وتكنلوجيا وتمسكت بهدي القرءان الذي لا يغفل الجانبين معا ، فانها سوف تنقذ الانسانية كلها كما أنقذها الاسلام من ضلالها في عصور الجاهلية الاولى.

والقرءان الذي هدى الانسانية من جاهليتها ليس كتابا ارشاديا روحيا فحسب وانما يضيف الى ذلك نظما وتشريعات وتلقينات خارقة لها جميعها مكانتها في المادة والحكم والاخلاق وكل المجالات التي تمس حياة الفرد والجماعة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعلميا وعقليا .

ان القرءان يهدي للتي هي أحسن بصدر رحب وتسامح وتفتح على الدنيا وما فيها من خير وبركات .

والذي أصاب المسلمين ليس من القرءان وانما من انحرافهم عن القرءان ، خلافا لما يزعمه أعداء الاسلام ؛ لان الاسلام دعا المسلمين للشورى فحكموا بالاستبداد ، ودعاهم للعدل فظلموا ، وللمساواة فاتبعوا نعراتهم ، وللاخوة فتقاتلوا وتنابذوا حتى عز العثور على الحكم الاسلامي النزيه العادل بعد الصدر الاول من الاسلام ، ومع ذلك تجدهم في ظلمهم يتمشدقون بالقرءان وهي شنشنة المنافقين .

والقرءان لا يمنع من الاخذ بمظاهر القوة والعلم بل يحض على ذلك ويامر به ، ومن آياته : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » .

أليس القرءان هو أول كتاب سماوي ينادي باستعمال العقل والفكر بدون تحديد ؟

أليس القرءان هو الذي هاجم المقلدين والجامدين وشنع عليهم في تقليدهم وجمودهم ؟

أليس القرءان هو الذي عاب على المسلم ان يكون ضعيفا وجبانا وخائرا ؟ لان الضعف والجبن والخور علامة على المذلة والانهيار ، والقرءان يقول : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

وان اولئك الذين يدعون الى نبذ القرءان لانه كتاب ديني ، لا يخرجون في دعواهم عن الايمان بشيء آخر يسمونه بأسماء مختلفة ، وهذا الشيء الذي يدعو اليه لا يخرج عن كونه دينا غير سماوي .

ان كل فلسفة ظهرت في أروبا تأثرت بمؤثر ما وخضعت لظروف معينة كشفها الباحثون والناقدون . والواقع يكشف ان الذين يهاجمون القرءان ويفترون عليه ويدعون أنهم من أنصار العدالة والحرية كاذبون لكونهم ينادون بأفكار لا يطبقونها فهم مستعمرون مضلون ومستغلون او مشبعون بروح صليبية متعصبة تجري في عروقهم وتظهر على فلسفتهم الغربية البعيدة عن تفهم أسرار القرءان وما يرمي اليه من قيم عميقة الجذور .

وليس من المعقول ان يستدلوا على الاسلام بالمسلمين لاننا نقر بأن المسلمين انفسهم انما هم مسلمون بالجنسية . فهل من المعقول ان نستدل بأعمالهم على الاسلام ؟

ان التاريخ يشهد بأن البربرية والنكوص واوحشية لم تترعرع الا في أروبا المتمدينة اليوم وأن بلاد الاسلام ولو حكمها حكام مستبدون لم ترتكس في الاثم كما ارتكست أروبا قبل ان يمسها هدي من الاسلام وحضارته .

فلماذا يحملوننا أوزارهم ويدعون لانفسهم السمو وأياديهم تقطر بدماء الابرياء في الماضي والحاضر ؟

ولماذا يدلسون علينا وهم الذين سنوا قوانين حروب الغاب ان كانت لها قوانين ؟

انما الذي يشرح النفوس أن بعض الاروبيين قد أخذوا يحاولون الخروج من الدروب الضيقة الموروثة ليفتحوا نافذة على القرءان حتى يكون حكمهم صحيحا بالنسبة للاسلام .

أما بالنسبة للمسلمين في العالم الاسلامي فلا بد من التبشير بينهم بدينهم لان التشويه طغى على العقول وبالاخص بالنسبة الى الشباب الذي أصبح لا يعرف عن الاسلام الا شذرات مبتورة ، فاذا لم يوجه هذا الشباب الوجهة الصحيحة فانه سوف يكون ذيلا لاعداء القرءان ان لم تكن طائفة هامة منه قد أصبحت بالفعل ذيلا وخطرا على الاسلام وأوطانه .

ولا يدعو الى نبذ المادة من المسلمين الا من كان جاهلا او جامدا او معتوها ، وكل هؤلاء لا قيمة لهم في ميزان العقل والطموح .

ومن الدسائس الاستعمارية التي يروج لها الاستعماريون بين الشباب ان الدعوة للاسلام تراجع ونكسة الى الوراء ، وهو ادعاء لا يرتكز على أساس صحيح ويتنافى مع آيات القرءان الكريم ، ويرمون من وراء ادعائهم لنبذ القرءان الى أضعاف شأن المسلمين الذين سادوا بالقرءان وبه أضاءوا للانسانية معالم الطريق .

وجهل المسلمين بالقرءان هو الذي أوقعهم في شراك اعدئهم .

ان رسالة الواعين بالاسلام من المسلمين تقتضي منهم ان يقوموا بالتوعية وشرح القرءان للمسلمين في صفائه وطهارته وتسامحه وأخذه بأسباب العيش والقوة والتجديد .

ان رسالة القرءان قد أفسدها الظلم والاستبداد وخربتها الاطماع والشهوات ونخرتها عقلية جماعة من العلماء الذين في عنقهم رسالة لم يؤدوها ، لان بين صفوفهم أصحاب الزلفى والتملق والنفاق .

ولم ينصر الاسلام الا ببذل المسلمين الاولين ، والمسلم الشحيح لا يمكن ان ينقذ الاسلام الذي لا ينتصر الا بالبذل والسخاء ، وكل مسلم تخلى عن هذا الواجب ، فاسلامه مطعون ولو صلى وصام .

روى أبو داود مرفوعا الى النبي (ص) : « يوشك أن تداعى عليكم الامم كما تداعى الاكلة على القصاع ، قالوا : أو من قلة فينا يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن . قال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت)) .

فالمسلمون ضعفوا لتقاعسهم وانطفاء جذوتهم الكفاحية ليحل محلها جمود وخوف وأوهام مع ان القرءان يناديهم للعمل والكد والمثابرة وينهاهم عن اليأس والانكماش والاستجداء .

ويقول القرءان الكريم : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي أرتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » .

وهذا بالعمل الذي هو من آكاد واجبات المسلم المتين الايمان ، هذا المسلم الذي أباح له القرءان التمتع بالخيرات ولفت نظره لان يعي معنى خلافته في الارض وما سخر له في الكون وما أعطي من مواهب .

وفي القرءان الكريم : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حـــلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » .

« يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكـــم واشكروا الله ان كنتم ايـــاه تعبدون » .

« ألم تر ان الله سخر لكم ما في السماوات وما في الارض وأسبـــغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » .

واذا كان القرءان قد وصف الدنيا في بعض آياته بأنها متاع الغرور ، فما ذلك الا للحفاظ على التوازن بين المادة والروح حتى لا ينساق المسلم مع الدنيا وينسى ربه ويتعدى حـــدوده : « ان الانسان ليطغـــى ان رآه استغنـــــى)) .

والمسلمون في الصدر الاول من الاسلام لم يتأخروا عن العمل مـــن أجل الدنيا مع احتفاظهم بايمانهم وعدم انسياقهم مع الهوى والغرور ، وكان من بين الصحابة أصحاب الثراء والاموال ولم يعب عليهم الرسول (ص) ذلك بل انهم بأموالهم نصروا الاسلام وجهزوا جيوشه وبنوا أمجاده .

ونجد العقيدة في القرءان واضحة بينة لا تحتـــاج الى طقـــوس ولا وساطات ولا حبس للنفس والجسم بالتعذيب ، ولا تحتاج العقيدة القرآنية الى قصص وخرافات لتزين وتحبب كما يقص الرهبـــان علـــى زبائنهـــم المتدينيـــــن .

وتنهي عقيدة القرءان عن التزلف لغير الله في أي صورة من العبودية لان ذلك يذل النفس ويحد من طموحها ويقيدها بقيـــود مـــن الانحـــلال والخنـــوع .

ونجد الآيات الزجرية في القرءان لا تقصد الزجر لذاته بل تقصـــد العمل الصالح والاخلاق الفاضلة وأبعاد الخلق على الظلم والغواية والفحش والشرور حتى يستطيع المسلم أن يفرق بين الهدى والضلال ، وفي هذا المجال يضرب القرءان الامثال ويقص القصص للمقارنة والتذكير .

« وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا » .

وكما حدد القرءان العقيدة حدد النظم التي تهم المجتمع الاسلامي من حكم وعدل وحرية وشورى وقضاء ومعاملات وأحوال شخصية وحدود واقتصاد وتربية ، وأمر بتحصين ذلك بالقوة الرادعة ، وأباح مقاتلة المعتدين ، وحدد الروابط الدولية في السلم والحرب ، ورفع عن المكلفين الحرج والمشقة ، وحمل على التطاحن الطبقي والعنصري والطائفي ، ونهى عن المس بالاعراض .

وأوجب طاعة الله ورسوله وطاعة أولي الامر اذا استجابوا لله ورسوله وحكموا كتابه وسنة نبيه .

ولم ينص على كيفية اختيار اولي الامر توسيعا على المسلمين ، اذ الكيفية لا تهم ، وانما المهم تحقيق العدل والشورى والمساواة والحريات .

ولا بد ان يكون الوالي راعيا أمينا ، لا تاجرا ماكرا أو مخاتلا منافقا أو مدلسا كذابا ، ولا بد ان يكون رؤوفا لينا ، لا قاسيا مستغلا ، ولا بد أن يكون هدفه الاول مصلحة المسلمين لا مصلحته ومصلحة خدامه ومتملقيه من أصحاب الشره والطمع والنذالة والنكوص .

ومهما لم تتوفر الشروط في الوالي الا ويجب نبذ طاعته وانزاله من عليائه ، لانه ناصب العداء لله ورسوله والمؤمنين .

وحذر القرءان المسلمين من الاستكانة لحكم أعداء الاسلام وأمرهم بمحاربتهم والتخلص من سيطرتهم .

ولا تتوفر جذوة الكفاح والنضال الا بتنشئة المسلم على الشجاعة والاقدام وتجنبه مسالك الذل والخوف والجبن والضعف والاوهام .

كما يحذر القرءان من الانصياع لكل ناعق أفاك مفرض ، اذ لا قوة الا بوحدة المسلمين ، ولا يجني المسلمون من الفتن والتفرقة الا الهوان .

والقرءان لا يقر التفرقة بين الرجل والمرأة في الاحكام والحقوق والواجبات الا مما يخص طبيعة أحدهما دون الآخر ، وهو عند ما يخاطب المؤمنين لا يميز بين الرجال والنساء .

ويهتم القرءان بطبقة الفقراء والضعفاء لان معظم أصحاب الجاه والثروة يتشبث بالاثرة والانانية ، ولا يقبل ان تكدس الثروة في أيدي طبقة خاصة حتى لا ينشأ في المجتمع الاسلامي رهط من الاستغلاليين والمحتكرين .

ويقر القرءان الملكية الخاصة غير المستغلة ويبيح للناس التصرف في أموالهم بالطرق المشروعة ، اذ من أهدافه العامة حرمة الاموال والدماء والاعراض .

ان القرءان لا يريد من تكاليفه ان تكون عسيرة قاسية موحشة ، وانما يريدها سهلة بسيطة مستأنسة واضحة بينة ، ويقرر ان الانسان لا يواخذ بالخطأ والنسيان والاكراه والاضطرار . ويقول النبي (ص) : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

ومن الاخطاء ما يلحق الضرر بالغير ، ولذلك اتخذ القرءان أحكاما في الخطأ ، كالقتل خطأ لكونه أزهق نفسا بريئة وعرض ذويها للضياع وأنزل بهم نكبة فادحة فقرر لهم التعويض تخفيفا لما أصابهم من البلاء .

والناسي غير مؤاخذ بما نسيه ولو كان فرضا من فروض الدين ، اذ من الحرج أن يؤاخذ الانسان بنسيانه فيظلم ، والله منزه عن الظلم ، فهو سبحانه أعدل العادلين .

والمكره لا يؤاخذ بما استكره عليه ولو كان حراما اذا خشي شرا .

كما رفع الحرج عن المضطر وأبيح له ما حرم للضرورة . فاذا زال المانع رجع التكليف الى حاله .

قال تعالى : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمـــدت قلوبكم ،وكان الله غفورا رحيما » .

وقال : ((من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبـــه مطمئـــن بالايمــــــان » .

وقال : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه » .

وقال : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبـــت وعليها مـــا اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا » .

وقال : ((والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا الا وسعها ».

ويحذر القرءان المسلمين من موالاة أعداء الاسلام ممـــن يضمرون الشر للاسلام ،والمسلمين ، فهم اما غير مخلصين وامـــا متربصون وامـــا جـــواسيس .

وما اغتصاب فلسطين الا دليل قائم على نوايا الكفار ازاء المسلمين .

واذا كان القرءان يحذر من أعداء الله ودسائسهم فانه يدعو للتسامح في معاملة غير المسلميـــن وخصوصا اذا لـــم يقصـــدوا الشر بالاسلام والمسلميـــن .

ان التاريخ يشهد على انه لم يتسامح أهل دين كما تسامح أهل الاسلام مع غيرهم حتى استطاع اهل الديانات الاخرى ان يعيشوا تحت ظل الاسلام عيشة هنيئة رغيدة سمحت لهم بالتمتع بشعائرهم والتصرف في ممتلكاتهم والاشراف على أعراضهم كما يشاءون ، وسمح لهم المسلمـــون بولـــوج المناصب من غير اعتبار لعقيدتهم .

وبعبارة صريحة ان القرءان ينظر للمخلوقين نظرة انسانية صرفـــة ويمنحهم حقوقهم كاملة .

المغاربة والقرءان

لولا القرءان لما دخل المغاربة في الاسلام ، فبفضله أقبلوا على الاسلام منذ مجيئه الى بلادهم ولم يقفوا في وجهه كما وقفوا في وجه الدول التي جاءتهم قبل الاسلام لتستعمرهم وتستعبدهم .

وأولئك العرب الذين حملوا القرءان الى هذه البلاد كانوا يتميزون بأخلاق القرءان من عدل واستقامة ومساواة وشورى وصدق ونزاهة واخلاص ، فرأى المغاربة فيهم وفي كتابهم المنقذ لهم من الضلالة والعمى والجهل والخمول والاستغلال السياسي والاقتصادي الذي عاشوه قرونا وأحقابا متوالية .

وما يذكره ابن خلدون من ان البرابرة ارتدوا عن الاسلام مرارا ، وأنهم لم يستقروا عليه الا في عهد ابن نصير ، ليس معناه ان البرابرة لم يقبلوا على الاسلام بشره بل ما ذكره ابن خلدون يرجع الى خلافات سياسية او الى أخطاء كان يرتكبها بعض الفاتحين تؤدي الى حروب تجعل بعض البرابرة يرتدون امعانا في حربهم لمن اختلفوا معهم في الراي السياسي ، والا فلا جدال في ان البربر اقبلوا على الاسلام اقبالا كبيرا وبعثوا بوفودهم الى خلفاء رسول الله (ص) الاولين كعمر وعثمان .

والمغربي الذي أقبل على الاسلام لم يقبل عليه الا لما وجد في قرآنه من عدل وحق ومساواة وتحرر ، فاذا ما أساء بعض الولاة فان القرءان لا يتحمل جرائر اساءتهم بدليل ان القرءان استطاع ان يستمر في غزو العقول المغربية رغم الاساءات التي لم تكن الا شخصية وعابرة .

وقد اختلط المغاربة بالفاتحين اختلاطا يلفت الانظار ، واستطاع العرب القادمون بالقرءان ان يثبتوه في الجبال والسهول والفيافي وان يعلموه للناس وأن يشرحوا مبادئه وأهدافه حتى أصبح المغاربة من دعاة القرءان الاوفياء على مر الاحقاب ، وقد ذكرت كتب التاريخ أن سفيان بن وهب الصحابي كان يمر على الفلمان بالقيروان وهم في كتابهم يتعلمون القرءان فيسلم عليهم ويحادثهم .

كذلك أرسل عمر بن عبد العزيز الاموي الى افريقية في عهده مجموعة صالحة من القراء والمفسرين للقرءان ، فقامت هذه البعثة بعملها خير قيام.

ولم يكن للبرابرة شأن في تاريخ البشرية الا بعد ان اعتنقوا الاسلام وغدوا من رواد القرءان ، وحينئذ أمكنهم ان يفرضوا سيادتهم ويوطدوا كيانهم ويجمعوا شتاتهم ليذهبوا الى الاندلس فيفتحوها ثم ليكونوا بعد ذلك ملوكا وحكاما وروادا ودعاة لهم من القوة والسيطرة ما لم يحلموا به في تاريخهم الطويل .

ومن الانصاف للمغاربة أنهم في دولهم المختلفة التي قامت بالمغرب لم ينحرفوا عن تمسكهم بالقرءان واعتباره دستورا لهم يلجأون اليه كلما دعاهم أمر او أصابتهم فتنة او حلت بهم كارثة .

وقد كان بعض الحكام منهم يتصرفون تصرفات منحرفة عن أهداف القرءان ، ولكنها لا تلبث ان تصاب بالشلل والبتر كلما راجع المغاربة أنفسهم ورجعوا الى دستورهم الخالد الذي قام عليه كيانهم منذ ان جاءهم الاسلام بقرآنه .

ولم يثبت على المغاربة منذ تمسكهم بالقرءان انهم اضطهدوا الاقليات غير الاسلامية لكونهم كانوا يعلمون عن يقين ان قرآنهم يقرر ان لا اكراه في الدين بعد تبين الرشد من الغي ، ولذلك يعتبر المغرب من الدول التي لم تعرف الاضطهاد الديني منذ دخل الاسلام بقرآنه الى هذه الديار .

ويتميز المغاربة بكونهم يشيدون بمزايا القرءان في كتبهم وأشعارهم وحفلاتهم على الصعيد الحكومي والشعبي ، ولا تكاد ترجمة مغربية لشخصية أو ملك تخلو من نعت المترجم له بأنه كان يحفظ القرءان ، فهي ميزة مغربية عامة في رجال الحكم والولاة والرؤساء والعلماء وكبار الرجال ، كما كانت للمغاربة عناية خاصة بنسخ القرءان وتزيينه بالذهب والديباج والاحجار الكريمة لا بالنسبة لعامة الشعب ولا بالنسبة لملوكه وهي هوية عمت المغاربة على اختلاف طبقاتهم ، وكانوا جميعا يكتبون المصاحف بخطوط مغربية جيدة . ومن الملوك الذين تحدث عنهم التاريخ أنهم كتبوا مصحفا او عدة مصاحف المهدي بن تومرت والمرتضى من الموحدين وأبو يعقوب يوسف وأبو الحسن وأبو عنان وابو فارس من المرينيين .

وكم أوقف المغاربة من المصاحف ، ولا يكاد مسجد جامع بالمغرب يخلو من خزانة للمصاحف القرآنية حبست قصد التلاوة بالاضافة الى ما كان المغاربة يوقفون من أوقاف على تلاوة القرءان دبر الصلوات .

ان مختلف الطبقات المغربية كانت تهتم بالقرءان وتتبرك به وتردده في جميع المناسبات يتلونه في حفلاتهم وأعيادهم ومواسمهم ، بل وعلى أمواتهم ، وكان العلماء المغاربة يتخذون من دروسهم الوعظية مجالا لشرح القرءان وتبيانه . وكم من الاحباس حبسها المغاربة على كراسي للتدريس بالمساجد المغربية حفاظا على القرءان الكريم وتعاليمه ، وان الباحث بين غضون المكتبات المغربية ليندهش من العناية الفائقة التي كان المغاربة يولونها للقرءان ، ولا تكاد تجد مغربيا واحدا لا يحفظ شيئا من القرءان بل ان المغاربة كانوا من حملة القرءان وقرائه حتى تميزت نواح شتى في المغرب باتقان حفظ القرءان بقراءاته ، ففي بلاد جبالة وفي بلاد السوس في الجنوب في الشمال في الشرق في الغرب في السهل في الجبال في كل مكان تسمع هدير القرءان .

ويتميز حفاظ القرءان المغاربة باسم « الطلبة » اذ كان هذا الاسم عنوانا على كل الذين يحفظون القرءان ، وهؤلاء « الطلبة » كانوا محط عناية واحترام من الجمهور يتبركون بهم ويحضرونهم في مناسباتهم ويطلبون الدعاء الصالح منهم .

وتتميز بيوت المغاربة بأنها لا تخلو من مصحف شريف ، وهذه العناية المغربية بالقرءان جعلت المغرب من الدول الاسلامية التي حافظت على تعاليم الاسلام وان كانت ليست في صفائها ولكنها على أي حال استطاعت مع قسوة الزمن أن تحفظ للاسلام قوة في هذا الجانب الاقصى من العالم الاسلامي .

ويشهد على شدة تعلق المغاربة بالقرءان وحفظه ما قاله ابن خلدون عنهم : « فأما أهل افريقية والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرءان القصور على ملكة اللسان جملة ، وذلك أن القرءان لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما ان البشر مصروفون عن الاتيان بمثله فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال عن أساليبه والاحتذاء بها ، وليس لهم ملكة في غير أساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام ، وربما كان أهل افريقية في ذلك أخف من أهل المغرب بما يخلطون في تعليمهم القرءان بعبارات العلوم في قوانينها » هـ .

وكلام ابن خلدون هذا يحتاج الى مناقشة ، ولكنه يدل على ما كان للمغاربة من عناية فائقة بحفظ القرءان وتحفيظه .

ان الباحث لا يجد ناحية من نواحي المغرب لم تكن تعني بتحفيظ القرءان ، اما وحده وهذا هو الغالب ، واما مع شرحه في الاماكن التي انتشرت فيها المعرفة . وكل جهة لها نظامها وطلبتها وفقهاؤها ، ولم يكن المغربي حريصا على شيء كحرصه على أن يتعلم اولاده القرءان ويحفظوه ويبذل من أجل ذلك الغالي والرخيص حتى أصبح القرءان في المغرب يتلى من الجماهير على اختلافها أفرادا وجماعات ، وهذه العناية دفعت بالمغاربة الى اتقان فن القراءات وحبسوا أحباسا خاصة لمن يتلو القرءان بقراءاته، ويوجد بجامع القرويين بفاس حزب خاص بتلاوة القرءان بالقراءات السبع اندثر قريبا بعد اندثار حفاظ القراءات ، ولكن أحباسه لا زالت قائمة الذات.

وقد ألف المغاربة في علوم القراءات وعلوم القرءان والتفسير مؤلفات شتى ونبغ فيهم علماء أجلة كانت لهم عناية خاصة بالقرءان وتفسيره كالقاضي عياض السبتي وابن غازي وأبي القاسم السلوي وأبي علي الشوشاوي والشطيبي وعلي بن عبد الواحد السجلماسي وابن عجيبة والشيخ الطيب ابن كيران وغيرهم ، ومن علماء المغرب الذين كانت لهم عناية بعلم القراءات وتجويد القرءان ابن عاشر الذي برز في هذا الميدان وهناك غيره .

ومن شدة تمسك المغاربة بالقرءان وعنايتهم به وبتحفيظه أنهم كانوا يقيمون الحفلات الشيقة اذا حفظ أبناؤهم سورا من القرءان او القرءان كله ، وكان لهم نظام خاص في ذلك ، فعند ما يحفظ الطفل سورة الاخلاص تقام حفلة ، وعند ما يحفظ نصف القرءان تقام حفلة كبرى ، وعند ما يحفظ القرءان كله تقام حفلة أكبر وأعظم ، كما تقام حفلات أخرى بمناسبة حفظ سور او أحزاب معينة من القرءان ، وكل هذا يدل على ما للمغاربة من شدة التمسك بالقرءان والمحافظة عليه والعناية به والتبرك بآياته ، فهم لا يلبثون يشجعون أبناءهم على تعلمه ويبذلون من أجل ذلك المال ويقيمون الحفلات والذكريات ويتشافون به وبأسرار حروفه وآياته ويكتبونه على حيطان المساجد والدور .

وتعتبر المساجد في المغرب مدرسة لتعليم القرءان والعلوم ومحكمة ومكانا للمشاورة والتجمع زيادة على قيام الشعائر الدينية بها ، بل انها كانت كبرلمانات رسمية ، فيها يقرر مصير البلاد ومنها تخرج الجيوش واليها يأوي عابر السبيل والضيوف ، وبين جدرانها تتلى الآيات البينات وتحفظ وتشرح .

والمساجد تنتشر في المغرب انتشارا عظيما في المدن والقـــرى والسهول والجبال وحتى اولئك المغاربة الرحل يتخذون خيمة خاصة من خيامهم لتعليم القرءان وأداء الشعائر وللاجتماع وينقلونها معهـــم حيثما انتقلوا ويقدمون لها من أغنامهم وأبقارهم كلما تحتاج اليه .

وتتوج مساجد المغرب بمسجد جامع القرويين الذي كانت تشع منه العلوم والمعارف وياخذ القرءان حظـــا وافرا مـــن الدراسات والشروح والتعاليق ، وكان علماؤها يتمتعون باحترام الشعب لكونهم حراس قرآنه حتى كانت بيعة الملوك لا تتم الا على يدهم ، ولا زالت خزانة القرويين تحتفظ بنفائس قيمة من المصاحف القرآنية والتفاسير .

وزيادة على المساجد ورسالتها أسس المغاربة في كـــل ركـــن من بلادهم كتاتيب قرآنية لتحفيظ القرءان لابنائهم منذ طفولتهم المبكـــرة ، وهذه الكتاتيب تكون مستقلة وقد تكون تابعة للمسجد كما هو الشأن فـــي البوادي ، وكان للدولة المغربية عناية فائقة بهذه الكتاتيب وطلابهـــا على الصعيد الحكومي والشعبي .

وكان البرابرة الذين لا يتقنون لغة القـــرءان يحفظونـــه بلهجتهـــم الاصلية ثم يشرح لهم بلهجتهم البربرية ، وقد يتعلمونه في لغته العربيـــة ولو بدون فهم لهـــا .

وكما وجد القرءان العناية في المساجد والكتاتيب وجدها فيمـــا يعرف في المغرب بالزوايا التي تتمذهب بمذاهب معينة وتقام فيها الشعائر الدينية ، ويتلى القرءان ويحفظ وغالبا ما تقام الزوايا على ضريح ولي كانت له طريقة فتركها لرواده ، وقد تقام الزوايا بدون ضريح ولكنها سواء أقيمت على ضريح او لم تقم عليه فالقرءان يحتل المكانة السامية في الزوايا وفي الاوراد التي تتلى بها ، اذ الزوايا في المغرب وان كانت لها اذكارها وأورادها وطريقتها لا تخلو من العناية الكاملة بالقرءان وتعاليمه بل من الزوايا المغربية من كان القائمون عليها يهتمون بالاصلاح عن طريق تفهيم القرءان تفهيمـــا مجردا مما علق به من الشروح الاسرائيلية التي أفسدت على المسلميـــن تعاليم القرءان الصحيحة كما كانت بعض الزوايا تلزم روادها بقراءة أحزاب معدودة من القرءان الكريم .

ويعرف المغرب أيضا بأنه بلاد تكثر فيه رباطات الجهاد ومراقبة الثغور ، وهذه الرباطات تقوم بدورها على أهداف القرءان والدفاع عن أوطانه ، ولذلك كانت تحتوي على مكتبات قرآنية بالاضافة الى كتب أخرى حديثية او فقهية أو لسانية ، وقد قامت هذه الرباطات بأعمال جايلة في تاريخ نشر القرءان في مختلف الاصقاع ، والافريقية منها على الخصوص ؛ ثم ظهرت بالمغرب المدارس التعليمية التي كان برنامجها حافلا بكل ما يمس تحفيظ القرءان وتدريسه .

واذا ما أشرنا الى العناية المغربية بالقرءان وتحفيظه فلا ينبغي ان يعزب عن بالنا ان المغاربة كما اعتنوا بتعليم القرءان لاطفالهم من الذكور اعتنوا كذلك بتحفيظه او بعضه لاطفالهم من الاناث ، لان القرءان من ضروريات المسلم لاعداد شعائره الدينية بقطع النظر عن أنوثته وذكورته ، ومن أجل ذلك نجد المرأة المغربية كانت تحفظ القرءان وتعلمه ، ولما كانت لها حرمتها وكرامتها عند المغربي لم يكن يسمح لها بالاختلاط مع الرجال ، فاتخذت المرأة منزلها لتعليم القرءان مما يعرف عند المغاربة « بدار فقيهة » .

ان الحقيقة الناصعة في تاريخ المغرب ان المغاربة منذ الفتوح الاولى للاسلام قد استجابوا لنداء القرءان ، وأن الفاتحين الاولين لم يحملوا معهم من تكريم سوى تكريم القرءان ، هذا القرءان الذي تمسكوا به عن ايمان وحملوه عن يقين وآمنوا به عن فكرة فنشروه وعمموه وسادوا به وانقذوا المغاربة من جاهليتهم بتعاليمه التي كانت هي الحكم والمرجع والهدف . ولما هاجر ادريس الى أرض المغرب لم يحمل معه سلاحا ولا قوة وانما حمل معه ايمانا في قلبه وقرآنا في لسانه جاء به الى المغرب ليرشد أمة عربية نائية متشوقة الى واحد من ذرية النبوة الطاهرة .

وما ذا أوجد ادريس في المغرب يوم بايعه المغاربة على السمع والطاعة ؟

وجد أمة ممزقة متناحرة ، فيها مسلمون ، ولكن فيها وثنيون ويهود ونصارى ، فقارعهم بحجة القرءان وهداهم بنوره حتى أسلموا جميعا وخضعوا لحكمه .

ولما توفي ادريس الاول وفرغ المغاربة من دفنه وعلى رأسهم مولاه راشد جمع هذا الاخير رؤساء البربر ليستشيرهم في الامر وليخبرهم بأن ادريس لم يترك من الاولاد من يخلفه الا حملا من جاريته كنزة ، فاختاروا أن ينتظروا الحمل حتى اذا كان ذكرا ولوه عليهم ليقوم مقام والده الـــذي جاءهم بهدى القرءان واختاروا أيضا ان يقوم راشد بالامر محل ادريس ، ولم يشترطوا عليه الا ان يقضي بينهم بكتاب الله وسنة رسوله .

وهنا يتجلى تمسك المغاربة بهدي القرءان وحكمه ، هذا الكتاب الذي صادف من قلوبهم مكانا خصبا فتمكن هذا الكتاب الـــذي أخرجهم مـــن ظلمات الكفر والجهالة الى عالم النور والمعرفة . والمغاربة فـــي جميـــع مبايعاتهم لملوكهم لم يكونوا يبايعونهم الا على الكتاب والسنة .

وهكذا قامت دولة الادارسة على القرءان من أول ظهورها .

والمغاربة حينما تكتلوا حول ادريس وأيدوه ، فعلوا ذلك لكونه سبطا للرسول (ص) ولكونه من حملة كتابه وشريعته ، وقد ادى ادريس الامانـــة على وجهها ، وسار في حياته على نهج القرءان وسننه وطريقه ، ثم خلفـــه ولده بعده ليسلك مسلكه وليفتح مجالات الجهاد على أوسع نطاق ، وليثبت أركان القرءان ، وعند ما أسس مدينة فاس لم يؤسسها لتكـــون عاصمـــة امبراطورية تجبي اليها الاموال والرقاب وانما أسسها لتكون مقرا للقرءان وتعاليمه ، ويتجلى ذلك في دعائه الذي دعا به بعد تأسيسه لمدينـــة فاس حينما قال : « اللهم انك تعلم اني ما أردت ببناء هذه المدينة مبـــاهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة وانما أردت ببنائها أن تعبد بها ويتلـــى بهـــا كتـــابـــــك » .

كذلك نجد الدول التي قامـــت بعد الادارسة بالمغـــرب لم تقم الا على مبدأ القرءان ، وان كانت الفتن أحيانا تغطي الحقائـــق الجليـــة في التاريـــخ المغربـــي .

ولو انتقلنا الى دولة المرابطين لوجدنا ان الامير يحيى بن ابراهيـــم الكدالي راس المرابطين قبل قيام حكمهم ينشىء قومه على تعاليم القرءان وينشرها بينهم بواسطة عبد الله بن ياسين الجزولي الذي قوبل من طرف المغاربة بالاكرام والتعظيم .

ولما وقع الاختيار على عبد الله بن ياسين للعمـل على نشر القرءان وتعاليمه بالمغرب من طرف وجاج بن زولو لم نجده يختار ابن ياسين الا لما كان يتوفر عليه من التقوى والمعرفة الكاملة بالقرءان وتعاليمه ، ونجد في رسالة لابي عمران الفاسي كتبها الى وجاج : « أما بعد فاذا وصلك حامل كتابي هذا فابعث معه من طلبتك من تثق بعلمـــه ودينـــه وورعه وحسن سياسته ليقرئهم القرءان ويعلمهم شرائع الاسلام ويفقههم في دين الله)) .

فأبو عمران الفاسي عند ما شكا اليه أبو زكرياء الكدالي حالة المغاربة الدينية لم يكن الاهتمام موجها الى شيء كما هو موجه الى القرءان ، ولذلك كانت رسالة أبي عمران تبحث عن شخصية قادرة على تعليـــم القـــرءان وأهدافه ، وكانت هذه الشخصية هي عبد الله بن ياسين الذي أدى الرسالة على أحسن وجهها .

وأول عمل قام به ابن ياسين في أرض المغرب هو انكبابه على تعليم القرءان الكريم وتثبيت تعاليمه بين الجماهير ، وعلى هذه المبادىء قامت دولـــة المرابطيـــن .

واذا تحدثنا عن المرابطين فان الذهن يذكر عظيم هذه الدولة يوسف ابن تاشفين ، ذلك الرجل الذي لم يحكم الا بمشورة أهل العلم ، وأخـــذ رأيهم ، وأهل العلم في ذلك العصر لم يكونوا يصدرون أحكامهم الا وفـــق القـــرءان .

ويمتاز ابن تاشفين بأنه كان من المتمسكين بالقرءان في نفسه وحكمه. ولما طار خبره الى الشرق الاسلامي وعلم عنه حجة الاسلام الامام الغزالي مواقفه المشرفة عزم على زيارته ولكنه جاءه خبر نعيه فرجع عن عزمه .

ويتميز أهل لمتونة بأنهم أهل قرءان وصدق واخلاص ، على أساس القرءان قامت دولتهم ، وبالقرءان حكموا المغرب والاندلس وبلاد افريقية مترامية ، وان كان التطرف قد تحكم في عقلية بعضهم كما فعل علـــي بن يوسف عند ما أمر باحراق كتاب الاحياء للغزالي باشارة من بعض الفقهـــاء الجامدين المتعصبين . وما أظن أحدا يقرأ كتاب احياء علوم الدين للغزالي ويجد فيه مخالفة للقرءان ، بل ان كتاب الاحياء آية في الفهم والدقة لكثير من الاتجاهات الاسلامية والآراء الشرعية التي كان يباشرها الغزالي بعقلية

متعمقة غفل عنها اولئك الفقهاء فأوقعوا الحكام في غلط ما كان ليقع لو أن عقولهم كانت متفتحة . وآفة المسلمين جميعا هي في جمود بعض فقهائهم وانسياقهم مع التحجر المذهبي ووقوفهم من آراء غيرهم موقفا لا يشرف أناسا ينتسبون للعلم وأهله .

ان أهل لمتونة في مجموعهم قد خدموا القرءان ودافعوا عن وطنه المغرب عند ما كان معرضا للغارات البحرية ، واعتبروا ان الدفاع عن القرءان في ثغور البلاد جهادا في سبيل الله لا مفر منه . وكان سكان الصحراء يأتون للسواحل للدفاع عن دينهم كما كانوا يرابطون على الحدود السودانية لنشر القرءان وتعاليمه في بلاد السودان وافريقيا الغربية .

ومن شدة تمسك المرابطين بتعاليم القرءان أنهم كانوا يتحرون أحداث محدثات لا تجد لها مبررا من تعاليم القرءان كالمكوس ، وكانوا يقتصرون في جلب الاموال على ما يقرره القرءان من زكوات وجزية وخراج وأخماس ومغانم ، وكانت قوانينهم تتبع مذهب الامام مالك الذي يعتبر من أشد المذاهب تمسكا بالقرءان .

ثم قامت دولة الموحدين على القرءان وكان المصامدة أيضا أهل دين ومهديهم لم ينجح في دعوته الا لكونه ركزها على هذا المبدأ الذي كان المغاربة يستجيبون له ويخضعون لاوامره وان كان الساسة قد يستغلون الشعور الديني في الجمهور ورغم ذلك فان دولة الموحدين كانت متمسكة بأهداف القرءان في عمومها ، رفعت رايته عاليا وجاهدت في سبيله جهاد الابطال الصادقين .

وقد اتصل محمد بن عبد الله بن تومرت السوسي مؤسس دولة الموحدين بعلماء كثيرين في المشرق وأخذ عنهم وفي مقدمتهم الامام الغزالي .

ولما رجع الى وطنه أخذ ينشر تعاليم القرءان باللسانين العربي والبربري ، واستطاع بفصاحته البربرية ان يدخل تعاليم القرءان الى قلوب البربر الذين أيدوه ونصروه . وتأثر بمذهب الاشعري في التوحيد فكان في دعوته سلفيا مزودا بالمعرفة العقلية الدامغة .

لقد كان المهدي بن تومرت بارعا في نشر الدعوة القرآنية بين أصحابه وأتباعه ، يسلك مسالك شتى لايصال أثر القرءان الى عقولهم ، ومن ذلك ما تذكره كتب التاريخ من أن جماعة من المصامدة صعب عليهم لعجمة لسانهم حفظ سورة الفاتحة باللسان العربي ، فعمد المهدي الى حيلة ليلقنها لهم بأن لقب بكل كلمة منها رجلا منهم وحملهم على حفظ القابهم وقال لهم : لا يقبل الله منكم صلاة حتى تجمعوا هذه الالقاب على نسقها في كل ركعة وبذلك حفظوا سورة الفاتحة ونجح في ادخال القرءان الى عقول البرابرة وقلوبهم .

ان ابن تومرت لما ذهب الى الشرق لم يذهب بقصد تأسيس ملك وانما ذهب للقراءة والدراسة ، ولكنه هاله ان يجد الاسلام وقرآنه قد أصبحا معرضين للخطر من جراء تضعضع الدولة العباسية والدولة الفاطمية من جهة ، ومن جهة أخرى أدرك ان الامم النصرانية تستعد وتوحد كلمتها لمهاجمة امة القرءان بصليبيتها المتعصبة ، حينئذ أخذ يفكر في انشاء دولة قرآنية مغربية قوية تستطيع ان تواجه ما يدبره الصليبيون للاسلام من مكر ، ولم يتورع ان يقحم كلمة المهدوية في دعوته ليؤثر بها على الجماهير المغربية التي سبق لها ان تأثرت بها في عهد الفاطميين .

وعبد المومن نفسه كان في مطلع حياته يحترف تعليم الصبيان القرءان الكريم .

وعبد المومن هو الذي نقل المصحف العثماني من الاندلس الى المغرب ، وكان يوجد بجامع قرطبة منذ أتى به بنو أمية ، وقد أعتنى به اعتناء كبيرا ، فكساه وحلاه على يد صناع مهرة اظهارا لفضله وتعظيما لشأنه .

ولما ذهب لزيارة قبر المهدي بمدينة تينملل حمل معه المصحف العثماني بحليته ، كما كان يحمل مصحف المهدي ، وتجمع الناس لقراءة القرءان في ضريح المهدي وبحضور عبد المومن وأكثروا من التلاوة حتى ختموا القرءان مرارا متعددة . ثم أصبح هذا المصحف رمزا للموحدين كلهم يتبركون به ويحملونه معهم في أسفارهم الى ان حمله علي بن ادريس الموحدي لما توجه الى تلمسان فقتل ونهب المصحب من معسكره ثم سار بعد ذلك الى ملوك بني عبد الواد في تلمسان فاحتفظوا به وعظموه .

لقد قامت الدولة الموحدية على القرءان والدفاع عنه ، وكان دستورها هو القرءان الكريم والسنة المحمدية التي هي جزء لا يتجزأ من القرءان بدون انتماء الى مذهب معين من المذاهب الاسلامية وان كان بعض المؤرخين يجعلهم من أصحاب المذهب الظاهري الذي كان في نظرهم اجتهاداً في فهم القرءان .

وكان الموحدون يوزعون القرءان أحزابا من أجل قراءته يوميا على حصص معينة .

ثم قام المرينيون الصحراويون برسم الدفاع عن القرءان وأهدافه ونشر تعاليمه .

ونلمس في حياة عبد الحق المريني رأس الدولة المرينية فضلا وتديناً وتقى وصلاحا ، وكل هذه الاوصاف التي أضفاها عليه المؤرخون تظهر منبعها الاصيل الذي هو القرءان الكريم .

ولما فتح السلطان المريني أبو الحسن تلمسان كان من جملة ما استولى عليه المصحف العثماني الذي كان بيد الموحدين ثم انتقل الى ملوك تلمسان من بني عبد الواد وعظم شأنه فكان يحمله في أسفاره ، وفي وقعة طريف سقط المصحف في يد البرتغاليين ، لكن أبا الحسن المريني لم يتركه في يدهم واتخذ عدة وسائل لاستخلاصه منهم واستطاع ان يرجعه الى مدينة فاس ووضعه في خزانته .

لقد كان لبني مرين اعتناء بالعلم والقرءان فأكثروا من بناء المدارس لدراسة القرءان وعلومه بالاضافة الى علوم أخرى ، ومن المدارس التي بنوا مدارس خاصة بدارسي القرءان ، كالمدرسة التي بناها بفاس السلطان أبو سعيد المريني لقراءة القرءان ودراسته وأجرى على طلبتها مرتبات شهرية وحبس عليها أحباسا لتستمر في أداء رسالتها ، وهو الذي بنى أيضا مدرسة العطارين بفاس لنفس الغاية وفعل فيها كما فعل في سالفتها. كما بنى ولي عهده الامير أبو الحسن مدرسة ملتصقة بجامع الاندلس بفاس لقراء القرءان ، وتعرف بمدرسة السبعيين ، لكون طلبتها كانوا يحفظون القراءات السبع ، وحبس عليها أحباسا كثيرة لتحفظها من الضياع ، ووظف بها فقهاء وعلماء للتدريس وأجرى عليهم عطاءات لينكبوا على أداء مهمتهم

السامية ، وفي أيام ولايته أسس ايضا المدرسة المصباحية بفاس ثم بنى مدرسة بمراكش لنفس الغاية واخرى بمدينة سلا ، كما له آثار علمية قرآنية جليلة بمدينة مكناس .

ومن عناية المرينيين بالقرءان الكريم أن السلطان أبا الحسن المريني كتب نسخة من القرءان بخطه وزينها بالذهب والاحجار الكريمة ووضع لها وعاء من العاج والصندل المغشى بالحرير وأوقفها على الحرم الشريف بمكة ، كما كتب نسخة أخرى وأوقفها على قراء المدينة المنورة على شكل الاولى ، كما كتب نسخة ثالثة على طراز النسختين الاخريين وأوقفها على الحرم الشريف بالقدس ، وذلك من شدة اعتناء هذا السلطان بالقرءان مما جعله يتقرب بنسخه .

ومن المميزات التي ذكرها المؤرخون في ترجمة أبي عنان أنه كان يستظهر القرءان الكريم ويعرف ناسخه من منسوخه حتى أسس المدرسة المعروفة بفاس بمدرسة أبي عنان للدارسين للقرءان والحديث وبقية العلوم كما أسس مدرسة لنفس الغاية بمدينة سلا .

وفي عهد السعديين كان من المصاحف ذات المكانة بالمغرب مصحف عقبة بن نافع الفهري فاتح المغرب ، هذا المصحف الذي كانت له منزلة محترمة في نفوس المغاربة حتى ان المنصور الذهبي لما اخذ البيعة لابنه المامون بحضور أهل الحل والعقد من العلماء والشرفاء والرؤساء أحضر مصحف عقبة بن نافع ثم قرئت وثيقة الولاية بعد ذلك ، وهذا عمل يدل على تعلق المغاربة بالقرءان واعتبارهم اياه رمزا للعدالة والتقوى والحكم الصحيح النزيه ، وعهدا على الوفاء والاخلاص ، فالمنصور يحضر المصحف لياخذ على ولده المامون عهدا بأن يسير على نهجه وشريعته ويعمل بما فيه من توجيهات وارشادات سماوية حتى لا يزيغ عن طريقه .

وبقي مصحف عقبة متداولا بين الملوك السعديين الى أن انقرضت دولتهم .

ويصف المؤرخون السلطان أبا عبد الله محمد الشيخ السعدي بأنه كان حافظا للقرءان عارفا بالتفسير كما ذكروا في ترجمة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله انه كان يحفظ القرءان .

ان السعديين كان لهم اعتناء هـم بالقرءان ، وفي عصرهم اشتـــدت العناية به وبقراءاته ، بحيث من لم يكن يحسنها لا يعد عندهم من العلمـــاء الكبـــار .

ولما قامت الدولة العلوية ورثت من الدولة السعدية فيما ورثت عنها مصحف عقبة بن نافع الفهري الذي كان عقبة قد نسخه بالقيـــروان مـــن المصحف العثماني وبقي متوارثا بين الملوك العلويين الى عهد السلطـــان عبد الله بن اسماعيل الذي بعث به الى الحرم النبوي الشريف مع ركـــب الحجاج كهدية ثمينة ومعه مصاحف أخرى كثيرة كلها مرصعة بالدر ومحلاة بالذهـــب .

وكان للدولة العلوية اهتمام كبير بتعميم القرءان ، وكان في القصور الملكية فقهاء يلقنون القرءان لابناء الملوك ذكورا واناثا ويراعي للملوك في اختيارهم ان يكونوا حافظين للقرءان ، ومن أهل الورع والصلاح والتقوى .

وجميع القصور العلوية بالمغرب لا تخلو من كتاتيب قرآنية تقوم بمهمة تعليم القرءان ، وأحيانا يضاف الى تعليم القرءان تلقي المبادىء الضرورية من علـــوم الديـــن .

ومن الانظمة التي كانت عندهم أن لا يختلط في التعليم الذكور مـــع الاناث ويشددون في ذلك . وتستمر القراءة طيلة الاسبوع باستثناء يوم الخميس ومساء يوم الاربعاء وصبيحة يوم الجمعة والعطل الدينية كعيـــد الفطر وعيد الاضحى والعيد النبوي الانور وعاشوراء وبعض المناسبـــات الاخـــرى الخاصة .

ومن اعتناء الملوك العلويين بالقرءان أنهم كانوا يحتفلون اذا ما ختمه أطفالهم ويصلون الفقهاء الذين علموهم ويقدمون الصدقات بهذه المناسبة الى الضعفاء ويتطيبون بماء الزهر والورد والبخور ، كما كانـــوا يعتنـــون بتلقين القراءات السبع لمن نبغ في حفظ القرءان .

وبقيت القصور العلوية مهتمة بالقرءان الكريـــم الى يومنـــا هـــذا ، ويذكرون أن محمدا الخامس كان يتلو القرءان كثيرا ، ويحكي وفد قابلـــه سريا أيام اشتداد الازمة بينه وبين المقيم الفرنسي بالمغرب الجنرال كيوم أنه دخل عليه وهو في حالة متأزمة ، ولكنه بالقرءان كان مطمئنا فلم يكـــد

الوفد يظهر أمامه حتى أخذ يتلو عليه قول الله العظيم : « قل اللهم مالـك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير » ، فاندهش أعضاء الوفد لصبره بالقرءان في مثل تلك الحالة القاسية .

وملخص القول أن معظم الذين قام لهم سلطان أو امارة بالمغرب كان القرءان رائدهم وتثبيت دعائم الاسلام غايتهم ، وان كنا نجد الانحراف قد يمس بعضهم لاسباب سياسية او خلقية تدفعه الى القيام بأعمال لا تقرها تعاليـــم الاسلام .

ومهما يكن فان القرءان كان دائما بالمغرب مرفوع الرأس عالي الهمـــة مؤيدا معززا منصورا من كل متول ، ولو كانت أعماله قد يكـــون فيهـــا انحـــراف .

العقيدة

عقيدة القرءان عقيدة واضحة مشرقة ، لاتتنافى مع العقل أبـــدا . والقرءان دين العقل قبل كل شيء ، ولذلك لا يمكن أن يتعارض مع الفكـر وهو لا يجبر الناس على عقيدته ، بل يدعهم لانفسهم ليفكروا ثم ليهتدوا . والتوحيد في القرءان بسيط لا فلسفة فيه ولا تعقيد .

وحاول المسلمون منذ أواخر القرن الاول الهجري أن يردوا الشبهات التي أثارها أعداء الاسلام فالتجأوا الى منطق أرسطو ليتخذوا منه حجـــة على صحة عقيدة الاسلام ، وآل بهم الحال الى ان يفلسفوا نقاء التوحيد في جوهره الاصلي ، ووقعت مصادمات جعلت آراءهم الفلسفية تتحـــول الى خلاف فلسفي محض ، فألفت المؤلفات للدفاع عن وجهات النظر المختلفة ,وظهر أئمة وزعماء وتكونت طوائف ونحل ، ولكن توحيد القراء بعيد عن كل تلـــك الفلسفـــات .

فاذا قرأ المسلم سورة قصيرة من القرءان استطاع ان يدرك معنـــى التوحيد الذي يريده القرءان للمسلم من غير ان يضطره الى ولوج حمـــأة الفلسفات والتأويلات .

والمسلم قد يقرأ سورة الفاتحة مرات ومرات ولكنه لا يتدبر معناها القيم الذي يريد القرءان أن يتدبره ويمعن النظر فيه .

فباسم الله الرحمان الرحيم يفتح القرءان الكريم ، والله هو كل شيء في تصور المسلم الذي يجب عليه أن يعلم ان عقله الانساني الحادث لا يقدر على ادراك حقيقة الخالق مهما بلغ من العلم والمعرفة .

وآياته سبحانه ناطقة في كل شيء مشاهدة في كل موجود يحسهـــا الانسان في أعماقه مهما بلغ من الكفر والالحاد والادبار .

وهذا الخالق المنزه عن أن تدركه العقول البشرية الحادثة الفانية هو الرب الوحيد القادر العليم المعطي والمانع ,والمتصرف في الكون تصرفـــا مطلقا لا تشوبه شائبة ضعف ولا نقص ولا تردد ولا ابطاء اليه يجب ان يتوجه المخلوق بالحمد والثناء لكونه رب العالمين لا شريك له ولا ولد ولا صاحبة

خلق كل شي فقدره تقديرا ، فهو مالك الخلق ومالك يوم الدين الذي هو يوم الجزاء ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا .

لا نعبد الا اياه ولا نستعين الا به وما عداه ليس الا مخلوقا ضعيفا لا يقدر على دفع الضر عن نفسه ، وفناؤه أكبر دليل على ضعفه ، ومرضه وعجزه ومصائبه شواهد واضحة عن تعنته في مفاهيمه المنحرفة عن جادة الايمان .

ومنذ ضعف الايمان في نفوس المسلمين وهم ينجذبون نحو المفاهيم الاخرى للايمان مع ما بينها وبين العقيدة الاسلامية من فروق جوهرية وتاريخية ، ولم يعد المسلم يعبر عن ايمانه بالله كما عبر أسلافه الاكرمون ، وانما أخذ يستعمل اصطلاحا جديدا أسماه بالطبيعة ووضعه موضع التوحيد ونسب اليه ما كان يجب ان ينسبه للخالق وحده .

وعلى المسلم الحق أن يهتدي بصراط الله المستقيم ، ذلك الذي وفق الله عباده المنعم عليهم بنعمة الايمان ليلجوه وليسيروا فيه حتى ينالوا رضى خالقهم غير مغضوب عليهم ولا ضالين .

والايمان في القرءان يقتضي من المسلم ان يؤمن بما يدركه وبما لا يقدر على ادراكه من غيبيات أخبر عنها القرءان ليمتحن ايمان المؤمنين .

وليس الحس هو كل شيء في حياة الانسان الروحية ، اذ هناك قوة أكبر من الوجود وأضخم من العقل البشري ، اليها المرجع والمآب ، ولها موازينها وقسطاسها ، ولا يتم ايمان المؤمن الا بالخضوع لها كليا وبالاستجابة لما تطلب منه أن يفعله ويؤمن به ليكون من الناجين .

وليس في مستطاع أي انسان ان يدرك هذه القوة التي يعتبر الكون كذرة تافهة بالنسبة الى عظمتها وقوتها وتصرفها .

فعالمنا محدود وخاضع لنواميس معينة ، أما القوة العظمى المتصرفة فيه فهي أسما من ان تدرك بعقل محدود في عالم محدود .

فالايمان بالغيب مسلك من مسالك الايمان المنقذة للانسانية من عالمها المملوء بالضيق والاحراج الى درجة الاختناق .

والماديون الملحدون لا يتعظون من المآسي التي وصل اليها انسان هذا العصر المختنق حيث رجع القهقرى ليصبح وحشا ضاريا متجردا من كل انسانية وفضيلة وأخلاق .

قال تعالى في سورة البقرة : « والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون » .

والايمان الصادق العميق النابع من القلب لا يقبل الخوض فيما هو خارج عن قدرته الادراكية كالتعابير التي عبر بها القرءان في مثل قوله تعالى : « ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات » اذ هذا التعبير القرآني ليس معناه الاستواء كما نفهمه ونتصوره ، وانما يعبر عن معنى السيطرة والقوة الخارقة ، وهكذا يجب ان تفهم مثل هاته التعابير التي ترد في القرءان ، كما ان القرءان قد يذكر أعدادا حسابية لا يقصد بها العدد الحسابي بل يقصد مطلق العدد من غير حصر كقوله تعالى : «استغفر لهم او لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » .

والقرءان يجعل العبد أمام ربه بدون ان يخضعه لقوانين معينة ولا لوساطات ، وينفي فكرة الخطيئة عند المسيحيين ، ولا أصل لها في العقيدة المسيحية نفسها .

ان المرء اذا أخطأ تحمل خطأه وحده ، ولا تقبل الفكرة القرآنية ان يتحمل البشر كله ما تسميه المسيحية بخطيئة الانسان الاول . فاذا كان آدم قد أخطأ في الاكل من الشجرة فقد تاب الى الله بمفرده فتاب الله عليه كما يقول القرءان : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » .

فلا وساطة بين العبد وربه كما تقول آية البقرة : « واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي اذا دعاني فليستجيبوا الي وليومنوا بي لعلهم يرشدون » .

فالمسلم لا يفصله عن ربه فاصل ولا يحجزه حاجز ، فهو قريب منه قربا قد لا يتصوره فليدعه وليتوجه اليه فهو سبحانه كريم على عباده مستجيب لدعائهم .

وقد بينت السنة آداب الدعاء في الحديث المروي عن النبي (ص) أنه قال : « لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع باثم او قطيعة رحم وما لم

يستعجل ، قيل يا رسول الله وما الاستعجال ؟ قال : يقول : **دعوت فلم يستجب لي** » .

ويقول (ص) : « ان الله تعالى ليستحيي ان يبسط العبد اليه يديه يسأله فيهما خيرا فيردهما خائبتين)) .

والاهم صدق النية والاخلاص لله سبحانه في السر والعلانية .

وتعلن سورة الاخلاص : ((قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد » عن التوحيد في صفائه وطهارته واشراقه .

فالله واحد لا شيء غيره ، منفرد بالعظمة ، ليس مثله شيء ، اليه المرجع والمآب ، وعليه الاتكال والاعتماد ، فلا حكم الا له ، ولا سلطان الا سلطانه ، ولا مالك الا ملكه ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، مشيئته نافذة ، وقدرته آخذة ، وعلمه محيط ، وفوق كل علم ، فهو الصمد المقصود الذي لا يقصد سواه ، وما عداه عبيد له وخلائق من خلقه ، لم يلد ولم يولد خلافا لمزاعم المشركين والكافرين ، ولم يكن له كفؤا أحد . فليس له مماثل ولا مشابه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله جل وعلا .

وهكذا تقرر هذه السورة الكريمة معنى التوحيد ، صافيا لا فلسفة فيه ، عذبا لا اشكال فيه ، قلبيا لا يخضع للمادة ولا يتأثر بالاقوال والمذاهب والنحل والاهواء . وبذلك يمتاز التوحيد في العقيدة القرآنية عن كل توحيد مدسوس يخضع لطقوس وأوهام ، ما أنزل الله بها من سلطان .

وفي سورة الرعد : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» لكون الايمان يقتضي من المؤمن ان يكون واعيا لما وضع الله في هذا العالم من نواميس لا تتغير .

والايمان بدون عمل لا يجدي صاحبه ، ويكون معناه العجز والفناء ، والقرءان لا يريد للمؤمنين أن يكونوا عاجزين ، ولا ان يسلموا الارض التي استخلفوا فيها للاوغاد الذين ينقصهم الايمان ولا ينقصهم العمل ، فتصبح رسالة السماء ناقصة ، هذه الرسالة التي بنيت على ركنين أساسيين هما الايمان والعمل معا .

فالخالق لا يغير نعمة أو بؤسا على قوم ، ولا يرفع مكانتهم أو يذلهم الا وفق عملهم وقدرتهم على تغيير اتجاههم ومشاعرهم وأعمالهم ، وعلى وفق ذلك يغير الله أحوالهم .

وفي سورة الانفال : « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

والايمان الصادق لا يدفع عن صاحبه الابتلاء والاختبار ليمتحن في ايمانه أهو سطحي أم عميق ؟

والايمان يجعل الانسان مسؤولا عن عمله ، اذ له من الاختيار ما يمكنه من أن يرجع عن الغي ويسلك طريق الرشاد .

ويقرر القرءان ان نعم الله على عباده تستقر بالشكر وتنصرف بالكفران فيقول : « لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد » .

فالانسان يستطيع أن يستبقي نعم الله بالشكران ويستطيع ان يزيلها بالجحود والنكران .

وعلى حسب أهداف الايمان القرآني فهل من المقبول قرآنيا ان ينتصر المسلمون في معاركهم الحاضرة اذا لم يغيروا ما بأنفسهم من الانحرافات والتراجعات ؟

وفي سورة يونس : « ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » .

ومشيئته من أن يجعل البشرية أمام مسؤولياتها ، ولم يشأ سبحانه أن يجبر الناس على الايمان ، ولو شاء سبحانه ذلك لكان ، ولو كان ذلك لم تتحقق للبشرية الارادة في الاختيار بين الهدى والضلال .

وللتربية والتكوين أثر وأي أثر في توجيه الانسان الى طريق الخير والهدى أو الى طريق الشر والضلال .

ولا يستطيع أحد ان يجادل في ما تعطيه التربية في البيت والمدرسة والمجتمع من قيمة للانسان .

والشر لا يمكن ان ينمحي من أي مجتمع مهما كان ، ولكن قوة الشر تتقلص في المجتمعات التي تربى على النشأة الاخلاقية .

وأحسن عصر تتمثل فيه مزية النشأة الكريمة هو عصر النبوة حيث أشربت نفوس من المسلمين بتعاليم القرءان فكانت خير جيل للبشرية

يضرب كمثل للتكوين النفسي والروحي والاخلاقي والعملي بل وحتى المادي ، وما ذلك الا لكون هذا الجيل الذي عاشر النبي (ص) وتأثر بالقرءان عن بينة وادراك لم يكن جيلا رخوا يعيش على المناقشات الفارغة بل كان جيلا عمليا خيرا ، لا يتعلق بالفلسفات التي انتشرت وعمت لتزلزل العقائد عن صفائها بخلق مشكلات معقدة ، لم تستطع البشرية الى يومنا هذا من ان تحل عقدها ولا ان تصل ولو الى رأي يقبله العقل ويقتنع به .

ولو ان البشرية رجعت لتعاليم القرءان لاستطاعت ان تحل كثيرا من مشاكلها الانسانية والعقائدية . وقد أدرك بعض الفلاسفة الغربيين ذلك حتى قال الفيلسوف الانكليزي الساخر برنارتشو : ان محمدا هو الرجل الذي يستطيع ان يحل مشاكل عالم اليوم . ولم يقل هذا الكلام جزافا ، وهو العالم الفيلسوف ، وانما قاله بعد دراسة وافية لرسالة القرءان ولشخصية رسول الاسلام (ص) .

ونحن لا نستدل بأقوال هؤلاء الاجانب لنشرف القرءان بحديثهم ، وانما لنقول للمنحرفين من المسلمين بأن الغرب الذي اكتظ بالفجور والعصيان قد أخذ يبحث لنفسه عن طريق النجاة ، فلم يجدها في النصرانية السلبية ولم يجدها في الصهيونية المجرمة ، كما لم يجدها في الشيوعية الملحدة ، بل وفي كل المذاهب المختلفة .

وظاهرة البحث عن الخروج من المأزق تتجلى في الدراسات المتتابعة التي يقوم بها علماء مسيحيون كبار وغير مسيحيين ، بل وحتى من الملحدين في كل من أروبا وأمريكا وآسيا كشفا عن القرءان وتعاليمه علهم يجدون فيه مخرجا من الهوة التي انحدرت اليها الحضارة المادية المعاصرة .

والمسلم الذي يعطل مواهبه عن التفكير في مقاصد القرءان مسلم بعيد عن تصورات القرءان ، ليس اسلامه بثابت ولو أنه ورثه عن آبائه وأجداده .

ان القرءان يحتاج الى فهم متفتح والى دراسات متنوعة عميقة ليستطيع الدارس أن يدرك معنى الايمان الذي يقصد اليه القرءان الذي أراد للناس أن يؤمنوا بدون ركود ولا اكراه ولا رهبانية ولا ضمور .

والآية الكريمة تلقي سؤالها الانكاري الذي يوضح حقيقة العقيدة في الاسلام فتقول مخاطبة رسول الاسلام (ص) أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟

ثم تزيد فتقول : « وما كان لنفس أن تؤمـــن الا باذن الله ويجعـــل الرجس على الذين لا يعقلون » .

فكل نفس تريد أن تكون مومنة يقينا فعليها ان تسلك المسالك التي توصلها لذلك باذن الله ، فلا يمكن للمؤمن الصادق أن يخطو بنجاح الا اذا غمره الايمان العميق بقدرة الخالق الذي يهدي العاملين ويوفقهم .

أما الذين جمدوا وتقاعسوا فانهم ينالون من جمودهم وتقاعسهم ما يستحقـــون .

وفي سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين فان زللتم من بعد ما جاءتكـــم البينات فاعلموا ان الله عزيز حكيم » .

فيدعو القرءان المسلمين للدخول في السلم وعدم الانصيـــاع الى مسالك الشيطان والغواية ، ويريد من المسلمين أن يستسلموا لله وحده فى جميـــع شؤونهـــم .

وكلمة السلام عزيزة على القرءان ، رددها في مناسبات شتى لكونـــه يريد من المسلم أن يكون انسانا مسلما في نفسه ومع غيره وبذلك يصبح الاسلام شعار سلم للبشرية كافة .

ويوجه القرءان المسلم في حربه ان حارب وجهة سلميـــة صرفـــة ويعتبر الحرب شيئا طارئا ، فكلما ظهرت بوادر السلام انحاز اليها ، لانـــه بايمانه المسالم لا يقاتل تعصبا ولا بغضاء وانما للدفاع عن سلام العقيـــدة وسلام الشرف وسلام الكرامة .

وان كل خطوة لا تماشي خطوة السلم فهي من خطوات الشيطان .

ومن من الناس في هذا العالم وخصوصا في الدول المتقدمة لا يشعر بالقلق والاضطراب من أجل تقلقل السلم سواء بالنسبة للنفس او بالنسبة للمجتمعـــات .

وانعدام السلم انعدام لمعنى الحياة التي يريد القرءان للنـــاس ان يحيوها بعيدين عن كل شعور لا يحقق المعنى الاستخلافي الـــذي ينشده القرءان في هذه الارض ، ولذلك تحذر الآية من الانحراف عن طريق السلم بمعانيه المختلفة ، وتسأل في أسلوب استنكاري عن سبب انتظار المترددين من الكفرة للدخول في السلم الذي يريده القرءان .

العبادة

التشريع في القرءان لا ينفصل بعضه عن بعض ، فكما يشرع في العبادات يشرع في المعاملات بدون ان يفصل هذا التشريع عن ذاك لكونه يعتبر تشريعه واحدا كان عبادة او غيرها .

ولا يستقيم أمر المسلم الا بالعمل بهما ، ونحن عند ما نفصل في الحديث بين العبادات وغيرها لا نقصد سوى التبويب في التفصيل والا فالعبادات في تشريع القرءان لا تفصل أبدا عن عموم التشريع فيه .

والقرءان يعتبر الانسان مركبا من مادة وروح فيشرع لهذا المركب في وحدة متكاملة ليكون ايمانه كاملا عقيد وشريعة .

وقد فرض القرءان على المسلمين أن يوحدوا اتجاههم في عبادتهم الى نقطة واحدة ترمز الى وحدتهم في العقيدة والنظام ، وهذه النقطة هي الكعبة المشرفة ، بمكة منبع القرءان .

والكعبة هي بيت الله الحرام الذي بناه ابراهيم أبو الانبياء وولده اسماعيل ليعبد الله فيه وحده بصفته الخالق الموجود المتفرد بالربوبية والالوهية ، فيتجه الخلق اليه سبحانه وحده في صلاتهم التي ترفعهم من ماديتهم الخانقة الى عالم يسبحون فيه بأفكارهم وقلوبهم ويبتعدون عن كل زيف واحراج خاضعين لله وحده الذي لا يغني عنه شيء ، وبذلك تتقوى معنويتهم وتسمو روحهم وتصفو قلوبهم وتتخلص من الرواسب والاوهام ، وفي سورة البقرة : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا وأنتم تعلمون » .

وعند ما رفع ابراهيم القواعد من البيت مع ولده اسماعيل توجها الى الله بالدعاء أن يجعل عملهما متقبلا عنده وأن يجعلهما مسلمين مع ذريتهما ، وأن يجعل الهداية مستمرة في عقبهما .

وقد أمر القرءان بأن يتخذ هذا البيت المقدس قبلة للمسلمين حيث قال : « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » . ومقام ابراهيم هو البيت الذي بناه مع ولده اسماعيل ، فهو مكان القبلة الاسلامية والعبادة الطاهرة من الادران والشوائب ، ولكن مع الايام تعفنت العقيدة وتلوثت حتى صارت وثنية ضالة ، وأصيب العرب بما أصيب به غيرهم من الضلال فملأوا هذا البيت الكريم بالأصنام والأوثان والطقوس .

وجاء الاسلام ليطهر العقيدة مما علق بها ، فوجد من مقاومة قريش ما تقصه كتب السيرة والتاريخ .

وفي سورة البقرة : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

والجهة ليست الا رمزا للوحدة وتجميع الذهن في العبادة وهدفا من أهداف التكتل والقوة .

والله لا جهة له ولا مكان . « قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » .

والحج في الاسلام عبادة ، وهي عبادة ليست مجردة من قصد ربط وحدة المسلمين التي هي أعظم قوة لهم ، فلا يقبل منهم أن يضيعوا فرصة الحج ليجتمعوا ويأتمروا ويدرسوا شؤونهم ويخططوا مستقبلهم وفق منهج الاسلام وسبيله وهم في مظهر عظيم من التجرد عن كل مظهر من مظاهر الحياة المؤثرة في الاتجاه والسلوك ، متساوين فيما بينهم مساواة كاملة ، ترفعهم الى مقام من السمو والتواضع والخير والاحسان والمعروف ، مترابطين برباط الاخوة التي لا انفصام لها رغم تباعد ديارهم وتباين لغاتهم وأجناسهم وألوانهم ، هذه الاشياء التي لا تكون في نظر القرءان عائقا ما دامت هناك وحدة عقائدية تجمع بين المسلم وأخيه في كل مكان من المعمور

بحيث تكون العقيدة القرآنية هي وحدها الرباط المقدس الـذي يجمـع المسلمين كافـة .

وينفي القرءان عن الحج كل مظهر من مظاهر الجاهلية التي كانـت تصبغ الحج كاتيان البيوت من ظهورها وكطواف الناس بالبيت عراة ، وكل شائبة جاهلية تتنافى مع الاسلام وسماحته .

والصلاة رياضة نفسية ترفع الانسان الى عالم الروحانية المنطلقـة والتدبر ، وتوحد بين طبقات المسلمين في تجمعهم لصلاتهـم ، وتبـرز وحدتهم في صفوفهم المتراصة المتكاتفة المتضامنة .

والمسلم في صلاته الجماعية او الانفرادية يشعر بالطمانينة والانجذاب الى مصرف الكون وخالقه الذي لا تخفى عليه خافية مهما تستـرت ، ولا يعزب عن علمه شيء مهما غمض واختفى . وفيها توحيد الوجهة وتطهيـر النفس في فترات متتابعة حتى لا ينحرف المسلم عن طريق ربه الى مجاهل الغواية وتنهاه عن الفحشاء والمنكر .

ويوجب القرءان المحافظة على الصلاة التي هي من أعمـدة الاسلام وأركانه الاساسية ، ففي سورة البقرة : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين فان خفتم فرجالا او ركبانا فاذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون » .

والمحافظة على الصلاة تكون بالمحافظة على أوقاتها وأركانها وشروطها وما يتبع ذلك من خشوع وتدبر وأسباغ للوضوء .

واختلف الفقهاء في المراد بالصلاة الوسطى ، فقيل انها صلاة الصبح وقيل صلاة العصر . ويروي الامام مسلم ما يرجح أنها صلاة العصر ، فقد روى عن النبي (ص) انه قال يوم الاحزاب : ((شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارا)) .

وكل صلاة تجب المحافظة عليها ، ولكن الصلاة الوسطى اذا رجحنا أن المراد بها صلاة العصر للرواية التي رواها مسلم ، فلكون وقتها وقـت اشتغال للناس ، فقد يتهاونون في أدائها في وقتها فنص عليها بعينها .

وتنص الآية على صلاة الخوف وهي الصلاة التي تقع في وقت لا يسمح فيه للمصلي بأداء صلاته على الوجه المستقر المطلوب ، وفي اتجاه القبلة ، فسمح القرءان للمصلي في هذه الحالة بأن يتجه في أي اتجاه « فحيثما تولوا فتم وجه الله » . كان المصلي راكبا او راجلا ويومىء للركوع والسجود ، وهذه درجة من الخوف لا تسمح للمسلم بأداء الصلاة على الوجه المفروض .

وقد يخف الخوف بحيث يمكن ان تقام الصلاة المفروضة ، وهي الصلاة التي تسمى بصلاة الخوف والتي نص القرءان عليها في سورة النساء حيث قال : « واذا ضربتم في الارض فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة ان خفتم ان يفتنكم الذين كفروا ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر او كنتم مرضى ان تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم ان الله أعد للكافرين عذابا مهينا فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فاذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » .

فهذه الآية تنص على الترخيص للضاربين في الارض مجاهدين أو متجرين وخافوا ان يفتنهم الكافرون ان يقصروا الصلاة ، كما رخص لكل مسافر ان يقصر الصلاة تخفيفا عنه ولو بدون خوف .

ان هذه الآية تذكر حكم صلاة الخوف في أرض المعركة وهو خوف يسمح بتقسيم الجند واقامة الصلاة جماعة ، أما اذا كان هناك خطر لا يسمح بتقسيم الجند واقامة الصلاة ، فانه يرجع الى العمل بالآية الاخرى: « فان خفتم فرجالا او ركبانا » .

وكل هذه التشريعات تذكر بقيمة الصلاة وحرص الاسلام على أدائها لكونها سلاحا من أسلحة الايمان ، كما يحرص على ان تقام جماعة ولو في أرض المعركة .

وفي سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين وان كنتم جنبا فاطهروا وان كنتم مرضى او على سفر او جاء أحد منكم من الغائط او لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا برؤوسكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .

فيقرر وجوب الطهارة عند الصلاة لمكانتها ، لان العبد في الصلاة يواجه ربه ولعظم هذه المواجهة فرض على المسلم ان يكون فيها نقيا نفسا وجسما وثوبا ومكانا .

والآية تبين الوضوء الاصغر والاكبر وما فيهما من رخصة عند العجز عن استعمال الماء اما لعدم وجوده او لمرض يمنع من استعماله او لخوف من مرض يطرأ باستعماله او لعجز عن الوصول اليه وما في معنى ذلك ، والقرءان بهذه التشريعات يريد ان لا يحرج المكلفين ويريد بهم اليسر . ((ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم ويتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .

وفرض القرءان الصيام على المسلمين بآية البقرة : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات فمن كان منكم مريضا او على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وان تصوموا خيرا لكم ان كنتم تعلمون ، شهر رمضان الذي أنزل فيه القرءان هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا او على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي اذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله انكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ثم أتموا الصيام الى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » .

وفي الصيام صفاء روحي ينقل الصائم من حمأة المادية الى عالـــم من الشعور الفياض والاحساس المتدفق بالايمان ويجعله قريبا من خالقه بانقياده الى أمره . وفيه من الاستعداد للخير مجال واسع .

ولما فرض الله الصيام وضع بجانب الفرض رخصة الفطر لعـــذر شرعي تيسيرا على المكلفين كما هو الشأن في بقية الفروض الاسلاميـــة لان الله يريد بعباده اليسر ولا يريد لهم العسر . فالمريض له ان يفطـــر وكذلك المسافر ، ولم تقيد الآية ذلك بتقييد وتركت ذلك لضمير المسلم وتقواه الى ان يصح المريض ويقدر على الصوم ويقيم المسافر .

وبعض الفقهاء يضعون تشديدات على الناس بدعوى فساد الضمائر وتحللها ، ولكن تشديداتهم مرفوضة ، فمن فسد ضميره لا ينفع معه تشديد ولا تضييق وبالخصوص فى العبادات ، اذ يمكن ان تقبل بعض التشديدات فى غير العبادات لتقويم الاعوجاج ، ولكنها في العبادات لا تستطيع ان تقـــوم الضمائـــر المنحلـــة .

والاولى بالمسلم ان ياخذ برخص الله كما ياخذ بعزائمـــه ، وان لا ينصت للمتشددين الذين يحاولون ان يجعلوا من تشديدهم سبيلا لاخضاع الناس لشريعة الله مما يأتي بعكس ما يقصدون ، وكان الاولى بهم بدل ذلك أن يعملوا على ايقاظ الوعي القرآني في نفوس المسلمين عوض ان يدفعوهم للمشاكسة والعناد والنكوص .

روى عن جابر قال : « خرج رسول الله (ص) عام الفتح الى مكة في رمضان فصام حتى بلغ كراع الضميم فصام الناس ثم دعا بقدح من مـــاء فرفعه حتى نظر الناس ثم شرب فقيل له بعد ذلك : ان بعض الناس قـــد صام ، فقال أولئك العصاة ، أولئك العصاة » .

وروي عن جابر أيضا قال : « كان النبي (ص) في سفر فرأى رجـــلا قد اجتمع عليه الناس ، وقد ظلل عليه فقال : ما له ؟ فقالوا : رجل صائم . فقال : ليس من البر الصوم في السفر » .

كما رفع الصوم عن العاجزين عنه اطلاقا كالمسنين .

أما قوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين فمـــن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون » . فهـــي

تماشي حكمة التشريع في القرءان من التدرج في الفروض حتى يستأنس الناس بها فقد كان الصوم شاقا في أول الامر على قوم لم يألفوه فشرعت لهم رخصة الفدية اذا اجهدوا ثم رفعت رخصة الاجهاد بدون مرض او ضرر لكون الصيام نفسه أجهادا وتربية وامتحانا للمسلم في صبره وعقيدته وأصبح الصوم واجبا الا على العاجز ، وأعطيت الرخصة للمريض والمسافر.

ومن مميزات شهر رمضان أن القرءان فيه بدأ بالنزول ، وشهور رمضان التي عاشها الرسول كانت خصبة في نزول القرءان وتلاوته وتدبره.

فعلى الامة الاسلامية عند ما تصوم رمضان أن تراعي عظمة هذا الشهر الذي نزل فيه قرآنها ، وان تعي رسالتها الخالدة وان تشكر الله على النعم التي خصها بها .

وفوائد الصيام الجسدية متعددة زيادة على ما فيه من رياضة نفسية ثمينة .

والزكاة عنصر في العبادات هام ، فهي تطهر النفس من الشح والدرن والاثرة وتبعدها عن الاحتكار والاستغلال .

والزكاة تجعل الجماعة الاسلامية قادرة على سد العوز وتشييد المنشآت الاجتماعية وتسييرها وتقوية جانبها ، وتوجد التعاون والتآزر بين الموسرين والمعسرين ليتعاطفوا وليتحابوا ويعملوا يدا في يد بعيدين عن البغضاء المادي الذي يسيطر على المجتمعات المادية المتحكمة في الرقاب والاموال ، قال تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .

ويدخل في حيز العبادة كل خير ومعروف ، والمعروف بالمال من أجود المعروف ، وفي سورة آل عمران : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . والله لا يقبل من النفقة الا ما كان طاهرا وصادرا عن اخلاص وصدق ، ولن ينال البر من ينفق الخبيث دون الطيب ، فالله طيب لا يقبل الا طيبا . وكان المسلمون على عهد النبوة يضربون أروع الامثال في الانفاق من طيب مالهم ، بل منهم من أنفق في سبيل الله أحسن ما عنده استجابة لهذه الآية الكريمة .

روى الامام أحمد عن أنس بن مالك قال : « كان أبو طلحة اكثر الانصار بالمدينة مالا ، وكان أحب أمواله اليه بئر حاء وكانت مستقبلة المسجد ، وكان النبي (ص) يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال أنس : فلما نزلت « لن تنال البر حتى تنفقوا مما تحبون » وان أحب أموالي الى بئر حاء ، وانها صدقة لله أرجو بها برها وذخرها عند الله تعالى ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال النبي (ص) : بخ . بخ ذاك مال رابح ، وقد سمعت وأنا أرى أن تجعلها في الاقربين . فقال أبو طلحة : افعل يا رسول الله . فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه .

ورسول الاسلام (ص) كان يحب – تمشيا مع روح الاسلام – أن يتصدق الانسان على من يعرف والاقارب من أكثر الناس لصوقا بالانسان ، ويستطيع ان يطلع على احوالهم وعوزهم .

والتصدق بمثل هاته البئر التي تصدق بها أبو طلحة هو أعلا قربة وأجل قدرا من التصدق بشيء لا تستمر فائدته .

وكما فعل عمر بن الخطاب (ض) حينما تصدق بسهمه في خيبر الذي كان من أفضل ماله ، فقد روى البخاري أن عمر قال يا رسول الله لم أصب مالا قط ، هو أنفس عندي من سهمي الذي بخير . فما تأمرني به ؟ قال احبس الاصل وسبل الثمرة .

ومن شعائر الاسلام احتفال المسلمين بعيدين دينين هما عيد الفطر وعيد الاضحى .

فعيد الفطر احتفال بانتهاء شهر الصيام الذي هو شهر الواجب والتوجه الى الله ، وفرضت فيه زكاة الفطر رحمة بضعفاء الامة الذين لا يترك الاسلام مناسبة لا يلفت فيها النظر اليهم والى ما يجب على الجماعة الاسلامية نحوهم حتى لا يهملوا فيضيعوا ، ومن حقهم على الجماعة الاسلامية ان يحتفلوا باحتفالها ويفرحوا لكونهم جزء لا يتجزأ منها .

أما عيد الاضحى فهو تحية للفداء الذي يجب على المسلم ان يتذكره باستمرار ليكون مستعدا للتضحية .

ويحتفل المسلمون أيضا بعيد المولد النبوي الكريم ، والاحتفال بهذا العيد احتفال طارىء سنه الفاطميون الشيعيون في مصر ، فالاحتفال به فكرة شيعية قصد بها احياء ذكرى رسول القرءان (ص) .

وكان الفاطميون الشيعيون يحتفلون بهذا العيد في مصر بجانب تأسيسهم للاحتفال بمولد علي وفاطمة والحسن والحسين ، ومولد الخليفة القائم الفاطمي ، ثم انتشر الاحتفال بعيد المولد في بقية أنحاء العالم الاسلامي .

فاذا ما احتفل المسلمون بهذا العيد فيجب ان يكون احتفالهم به احياء لذكرى رسول المبادىء الاسلامية الانسانية التي أخرجت العالم من جاهليته الاولى ووضعته في طريق الهداية والفلاح .

وما زاد على ذلك في الاحتفال بهذا العيد فلا يعدو ان يكون تقليدا خارجيا لا تقره أهداف القرءان ومقاصده .

والشعائر التعبدية في القرءان تقوم على أساس الميل الفطري في الانسان قبل كل شيء ، وتتخذ أشكالا تعبيرية عن الخضوع والاستسلام للخالق جل وعلا دون سواه سواء في الصلاة او في الحج او في الصيام وفي كل الاعمال التعبدية .

والخالق جل وعلا غني عن عبادة المخلوقين ، ولكنه سبحانه جعل العبادة دالة بالقلب والجوارح على كمال الامتثال والخنوع من العبد لربه ، خاصة حتى يتخلص من كل سيطرة أرضية مصطنعة .

والرسول محمد (ص) الذي يمثل الامتثال لله في أجلى مظاهره لم يفتأ يخط للناس طريق التحرر من العبودية الارضية بالاقوال وبالافعال حتى لا يستعبد البشر البشر بأي وجه من وجوده الاستعباد .

قال (ص) وقد خرج على جماعة فقاموا له فقال : « لا تقوموا كما تقوم الاعاجم يعظم بعضها بعضا » .

وقال (ص) : لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، انما أنا عبد الله فقولوا : عبد الله ورسوله » .

وأهم ما يلفت النظر في العبادات الاسلامية أنها تعمل على ترويض النفوس وتوجيهها الوجهة القيمة ، وفي سورة البقرة : « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون » .

فقلب المسلم يجب ان يملأ بالايمان وأعمال الخير والصلاح قبل أن يتوجه قبل المشرق او المغرب .

وان الذين يدعون الاسلام ولا ينفقون في وجوه الخير والاحسان مما آتاهم الله ولا يؤدون الواجبات الاسلامية فاسلامهم ناقص تافه .

والشخص الذي لا يستطيع أن يتحرر من الشح والبخل يحمل بين جنبيه قلبا صلدا فارغا من معنى السمو الاسلامي ، ويبرأ الاسلام من كل من لم يف بعهوده والتزاماته لكونه دين الامانة والوفاء .

ومن سمة المؤمنين الصادقين الصبر في البأساء والضراء فلا تنهار نفوسهم امام الفواجع والكوارث والاحداث ، هؤلاء الذين تتوفر فيهم هذه المزايا هم الصادقون المتقون .

ان جميع العبادات في الاسلام ميسرة لا عسر فيها ، فالذي لا يقدر على الوضوء أو الغسل له أن يتيمم ، والذي يعجز عن أداء الصلاة والاتيان بأركانها له ان يصلي كيفما تيسر له قاعدا او متكئا او مضطجعا ، والذي لا يقدر أن يطوف في الحج أو يسعى راجلا له أن يركب او يحمل ، والذي لا يقدر على الصوم له ان يفطر ويقضي ان كان القضاء ممكنا له ، فان عجز سقط الصوم عنه .

الاعتـــــــدال

انطلق القرءان يغزو القلوب والعقول باعجازه وتسامحه ، يحـــارب الآثام ويقر المودة والرحمة بين الناس ويزيح التشريعات التي سبقتـــه وفرضت على أتباعها فروضا قاسية مهولة .

والقرءان عند ما يأمر بشيء أو ينهي عنه او يدعو اليه أو ينفر منه لا يغفل جانب الرخصة فيضعها بجانب العزيمة لكونه يريد اليسر والسعة ، وهو الذي وصف الانسان بأنه خاق ضعيفا .

وقد بقي رسول الاسلام (ص) طيلة أيام الرسالة يعلن للنـــاس يسر الاسلام وبعده عن المشقة والحرج . وقد قال عمر بن الخطـــاب (ض) : نهينـــا عن التكلـــف .

وكان العلماء المدركون لاسرار الاسلام يسيرون على المبدأ القائل : ان الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه .

قالت عائشة أم المؤمنين (ض) : ما خير رسول الله (ص) بين أمرين قط الا أخذ أيسرهما ما لم يكن اثما ، فان كان اثما كان أبعد الناس منه .

وروى أبو هريرة عن النبي (ص) قال : ان الدين يسر ولـــن يشاد الدين أحد الا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا .

والقرءان لم يربط العقول ولم يامر بما هو خارج عن الطاقة او فيـــه احراج ، ومنح حق التصرف وفق أسسه المقررة .

قال تعالى في سورة البقرة : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها مـــا كسبت وعليها ما اكتسبت » .

فلا تكليف الا بالمستطاع رحمة بضعف المخلوقين ، وليس القصد من التكليف الاحراج وانما القصد الطاعة والامتثال لله بـــدون احـــراج ولا تضييـــــق .

والتيسير القرآني يجعل المسلم يؤدي تكاليفه ,وهو لا يشعر بمشقة ولا خذلان ، والله سبحانه أرحم بضعف الانسان من نفسه .

كما تقرر الآية أن التبعية لا يتحملها الا صاحبها دون سواه .

وفي سورة النساء : « والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا عظيما يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » .

فالله سبحانه يريد للناس اليسر والسعة ولا يريد لهم الضيق والحرج ويريد لهم التوبة والهداية والرشاد ولا يريد لهم العقوبة والزجر والضلال .

ورسالة القرءان تدعو الى الطريق السوي ، ولا تاخذ الناس قسرا ليهتدوا وانما تاخذ بيدهم في هوادة ونعومة وتيسير ، ويقبل الله سبحانه توبة الاوابين اليه .

وتنبه الآية الى أن الغاوين أصحاب المطامع والشهوات يريدون للناس مزالق ومهاوي لا يأذن الله بها حتى يميلوهم ميلا عظيما عن نهج الله القويم .

ان الله سبحانه يريد أن يتوب على عباده ويرحم ضعفهم ويخفف عنهم ، وهو لم يشرع في شريعته الا ما كان ميسرا لينا مقبولا .

وفي سورة البقرة : « يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كبيرا » .

ذلك أن القرءان دين معتدل في تشريعه ، حكيم في قصده ، وحكمته هي التي جعلت منه دين البقاء والخلود والصمود .

والقرءان لسان دين يماشي العقل ويعادي التقليد والجمود .

والاسلام دين الحكمة وهي فضل من الله عظيم ، فمن أوتيها فقد أوتى خيرا كثيرا .

والحكمة توجه الى الحق ، والعالم بدون حكمة قد يوجه الى طريق الضلال . وتقدم العلوم والمخترعات بالحكمة يقود الانسانية الى المجد والخير ، ولكن تقدمها بدون حكمة يقود الى هاوية السقوط والتجني والانحراف .

ومن الاعتدال القرآني ما جاء في سورة الاسراء : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » .

وتنهي آية أخرى عن التبذير فتقول : « ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » .

والتبذير هو الانفاق في غير حق ، لان الانفاق في الحـــق لا يعـــد تبذيـــــرا .

والتوسط في الامور هو القاعدة القرآنية العامة ، وهي التي تقررها آية : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » .

فالبخل مذموم وتصوره الآية في صورة شخـــص غلت يـــده الى عنقـــــه .

والاسراف مذموم وتصوره الآية في صورة شخص بسطت يده فلا تمسك شيئـــا .

وكلا الحالتين حالة البخل وحالة الاسراف يكون صاحبهما ملوما .

واذا فالطريق الذي يجب سلوكه هو طريق القـــرءان في التوسط والاعتدال حتى لا يقع ندم على البخل في حالة لا ينبغي البخل فيها ، او على الاسراف بدون تدبر للعواقب السيئة .

ويقول سبحانه في سورة آل عمران : « لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهـــم الكتـــاب

والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

انها لمنة من الله أن يبعث في المؤمنين رسولا منهم يتميز بفضائل وأخلاق سامية يتلو فيهم آيات الله ويعلمهم كتاب الله والحكمة التي هـــي الركيزة الاساسية لعدم التطرف والشرود .

وبالحكمة والموعظة الحسنة قاد محمد (ص) هذه الامة ونهض بهـــا ونقلها الى مكانة قيادية سامقة .

وهذه الآية تأتي في أعقاب غزوة أحد التي كانت فيها الهزيمة على المسلمين لمخالفة طائفة منهم أوامر الرسول ، ولكن معناها العام يتعدى حدود الغزوة ليعم كل الجوانب .

فالرسول من أنفسهم يخاطبهم بلفتهم ويتحمل من أجلهم ويرشدهم الى صلاحهم ويطهر قلوبهم ويمسح مشاعرهم من الغبش والكفران ويخرجهم من الظلمات الى النور ومن الجاهلية الرعناء الى حياة العزة والمعرفة والحكمة والهداية والتبيان .

فأي رسالة هاته التي جعلت منهم القادة والمفكرين بعد خمول طويل ؟

أفلا يجب عليهم ان يشكروا هاته النعم المترعة التي صبها عليهم القرءان صبا بعد أن كانوا قبائل متفرقة وثنية متقاتلة ، فوحدها الاسلام وجعل لها وجودا عالميا متميزا ؟

فان كانت للمسلمين رسالة في هذا العصر فهي رسالة القرءان الحكيمة الواضحة الميسرة التي يمكن ان تنقذ البشرية من انكفائها لكونها متحررة ، وتستطيع أن تساير العلوم والمخترعات والآراء وتماشي العقول لكونها عقلية ومنطقية وحكيمة .

الانسان في القرءان

قال تعالى في سورة الاسراء : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

فلقد كرم الله الانسان تكريما عظيما على كثير من خلقه حتى أسجد له ملائكته ومنحه امكانيات عقلية جبارة يتميز بها عما سواه ، وسخر له الاكوان ، وجعل له القدرة على ارتياد الاجواء والفيافي والبحار ، كما ركب فيه من القدرة على تسخير كل شيء من أجله .

والبحار رغم هولها مكن من التغلب عليها بالمراكب .

والفضاء رغم خطورته مكن من التغلب عليه بالمخترعات .

والبر رغم تضاريسه مكن من السيطرة عليه وتسخيره واستخراج كنوزه وخيراته .

وقد رزق الله هذا الانسان من الطيبات المتعددات المتنوعات ما لا يكاد يحصى .

هذا الانسان الذي له الخلافة في هذه الارض التي سخرت له بجميع ما فيها من مخلوقات ، بل وسخرت له عوالم أخرى تخدمه ، ويستطيع بعقله ان يرودها لمصالحه وأغراضه .

ولكن القرءان قيد هذا الانسان بقيود خلقية وتشريعية حتى لا يندلع مفسدا ، وقد أراد الله أن يكون مصلحا ، لذلك جعله مسؤولا عن أعماله ووضع له جزاء ، ان خيرا فخير وان شرا فشر .

ان القرءان يكرم الانسان تكريما خارقا ويحاول ان يرفعه من درجة الحيوانية الشرهة الى درجة قدسية كريمة ، فمنحه الخلافة في الارض ليستعمرها كما أراد الله أن تستعمر ، ويستثمرها كما أراد الله ان تستثمر، وينشر فيها السلام كما يريد الله ان ينشر بين خلقه كافة ، وزوده بالعقل والتفكير والادراك ليتفهم رسالته ويعيها .

قال تعالى في سورة البقرة : « واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الاسماء كلها ثم

عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني اعلم غيب السماوات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

وقد خشي الملائكة الذين هم من المخلوقات المطيعة المجبولة على الخير من هذا الانسان المستخلف في الارض من أن يدمرها ويفسد فيها، ولكن حكمة الخالق جل وعلا كانت واعية لمعنى هذا الاستخلاف .

وزاد الخالق في تكريم هذا الانسان لما أمر الملائكة بالسجود له تكريما وتعظيما ، فهو نفحة من نفحات الله ، له مكانته وسيادته وكرامته .

والخلافة في الارض ليست قاصرة على انسان دون انسان ، وانما تعم جميع المخلوقين بدون استثناء .

فعلى الانسان ان يتحمل رسالته في الارض بكل ما تحمله من سمو ورفعة ، وان لا ينقطع عن نبعه الاصيل وارتباطه مع السماء بروابط متينة .

وانسان هذا العصر لم تعد له كرامته التي أرادها القرءان له ، بحيث اعتدى على كرامته ونهبت خيراته ومنع من حقوقه بسبب انحدار مجموعة من الانسان الى درك الحيوانات ففقدت هذه المجموعة كل خلافة في الارض بمعناها القرآني .

وكان لطغيان المادة أثر في تقهقر هذا الانسان المستخلف في الارض .

وفي سورة النساء : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيبا » .

وبذلك يرد القرءان الناس في أصلهم الى منبع واحد لكونهم متساوين لا يفصلهم فاصل ولا حاجز ، فلا فرق بين أسودهم ،وأصفرهم وأبيضهم وأحمرهم ، فكلهم من آدم ، وآدم من تراب . ولكن الجاهلية الرعناء لم تفارق بعض العقول حتى في عصر التقنية والتقدم العلمي وارتداء الفضاء .

ولو رجعنا الى التاريخ لوجدنا فيه من ادعى ان الدم الذي يجري في عروقه هو من دماء الآلهة ، ولوجدنا من حاولوا ان يوهموا الناس بأنهم من أصول نظيفة هي أكرم من أصول غيرهم ، ولكننا اذا رجعنا الى القـــرءان تتلاشى كل تلك الادعات المضللة التي تسيطر على بعض العقول .

وكما يرد القرءان الناس الى أصل واحد يردهم الى معبود واحد هو خالق السماوات والارض ، لا الاه غيره ولا رب سواه .

فالانسان مكرم حسيا ومعنويا ، مكرم حسيا لكونه يتساوى مع غيره في أصل الوجود ، ومكرم معنويا لكون القرءان كرمه من أن يعبد غير خالقه، أو ان يستعبده أي كان سواء عن طريق الطبقية او المذهبية او العقائدية .

والتسوية في القرءان تعم الرجل والمرأة ، ومن أجل ذلك نجـــده يسوي بينهما في الحقوق والواجبات تسوية كاملة تامة ، الا فيما لا يمكن التسوية فيه ، مما يرجع لطبيعة الرجل وطبيعة المرأة من الناحية التكوينية والعاطفيـــة .

وهذه الآية الكريمة تنبهنا الى نظام الاسرة الذي جعله القرءان مـــن ضروريات حفظ المجتمعات من التدهور والانقراض ، ثم تأمر الآية بتقوى الله الذي خلق فقدر ، وبتقوى الارحام التي تربط الوشائج والعواطف .

وصلة الرحم من الاشياء التي اهتم بها القرءان وحض عليها وحـــذر من مغبة مقاطعتها اعتبارا لمكانتها عند الله ، ويقول القـــرءان فـــي سورة الاسراء : « ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها » ليقرر أن عمل الانسان له ، فليختر نوع عمله ، فان كانت نتائجه طيبة فله ، وان كانـــت خبيثـــة فعليـــه .

وهذا مبدأ يقرره القرءان في عدة آيات منها :

« كـــل نـــفس بمـــا كسبـــت رهينـــة » .

« ولا تـــزر وازرة وزر أخــــرى » .

« مــن يعمــل سوء يجــز بـــه » .

« من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها » .

وفي سورة الاسراء : « ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخيــر وكان الانسان عجــولا » .

فمن طبيعة الانسان العجلة حتى لا يكاد يميز بين المنفعة والمضرة ، فهو ينفعل بسرعة ، وقليل من الناس من يضبطون أعصابهم ويسيطرون على انفعالاتهم ، وفي السرعة الندامة ، وفي التأني السلامة ، والعجلــة مــن الشيطان والتأني من الرحمان كما يقال .

والانسان تدفعه العجلة لعمل شيء يعتقد فيه منفعة له ولكنه يعود عليه بالاضرار البالغة ، وقد يتقاعس عن عمل فيه خيره .

وتأتي هذه الآية في سياق هداية القرءان وارشاده للبشر ، فعلــى المسلم أن يستشير القرءان في كل عمل يعمله وأن لا يندم على ما فاتــه ، اذ قد يكون فيه شر عليــه .

واذا كان المسلم مشبعا بروح القرءان ، فانه سيكون انسان عمــل وخير ، فان لم يكن كذلك ، فانه لا يسلم من التردي في الاوحال والآثام .

وقد يغضب الانسان ويدعو ربه بالشر في حالة غضبــه على نفسه وأهله وما له كما يدعو بالخير ، وفي الحديث الشريف : (الغضب جمــرة توقــد في القلــب) .

ان الالحاح في طلب شيء يعتقد الانسان فيه الخير وتدفعه العجلة لان يزيد في الالحاح فينال مطلبه فيكون شرا عليه .

وكل الناس يحبون الخير لانفسهم ، ولكن عليهم أن يتريثوا في الطلب عملا بمبدأ القرءان الكريم الذي يربي الانسان على التروي والاعتدال وعدم المجازفة والالحاح حتى تتبين معالم الطريق .

وفي سورة الانبياء: « خلق الانسان من عجل » . فمن طبيعته انه عجول يريد ان يحقق كل شيء بسرعة ، ولو كان فيه ضرر له ، لان العجلة المركبة في طبعه تحنقه وتملي عليه .

ويقول تعالى في سورة هود : « ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤوس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني انه لفرح فخور الا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » .

انه لا بد للانسان من الايمان ليستقر ويطمئن في متاهات الحياة ، اذ بدون ايمان يضطرب الانسان ويضيق صدره ويغمره اليأس والظلام ، وهذا الانسان يصوره القرءان وفيه جحود وكفران بالنعم ، فهو يطغى بها ويغفل عن مصدرها ، فاذا فقدها ولم يكن معه من الايمان ما يقوي عزمه غضب وثار واشتد وأفسد ، وفي الحديث : كتب على النفس الخبيثة الا تخرج من الدنيا حتى تسيء لمن أحسن اليها ، لجحودها وكفرانها باليد التي ساندتها ، فلم تقابل الاحسان بالاحسان كما كان يجب عليها ، وانما قابلته بالشر والسوء .

أما النفوس الطيبة الكريمة المؤمنة المطمئنة فان ايمانها يمنعها من مقابلة الاحسان بالشر لان طينتها طيبة وسليمة من الكيد للمحسنين .

وفي سورة الاسراء : « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه، واذا مسه الشر كان يؤوسا » .

فالانسان لو ترك لنفسه ولم يقيد بالشرع لعاد الى حيوانيته المفترسة ، هذا الانسان الذي تجعله النعمة طاغيا متعجرفا ، والنعم اذا شكرت قرت ، واذا كفرت فرت . هذا الانسان الذي اذا أصابته شدة ابتأس وداخله القنوط وعمته الحسرة ، فاذا لم يتصل بالله ضاع في مجاهيل الحياة ، والاتصال بالله يورث الطمأنينة ويجعل الانسان متفتحا مؤملا راجيا مستبشرا متفائلا .

الشـــرك واليهوديـــة والنفـــاق

هذا ثالوث شرير تكتل ضد الدعوة الاسلامية ، وتحالف تحالفا جاهليا للوقوف في طريقها وان اختلفت مشاربه ومنابعه وأهدافه .

فالمشركون الوثنيون في مكة هم أول من عارض القــرءان حينمـــا زلزلت آياته مجتمعهم الوثني ونبذت أعرافهم الجاهليـــة وحكمـــت على عقائدهم بالضلال ولم تتوافق مع طبيعة رؤسائهم وأسيادهم .

وقد خاطبهم القرءان بما أيأسهم من الاستمرار في دنس ضمائرهـــم وتلوث قلوبهم فقال سبحانه : « ان الله لا يغفر أن يشرك بـــه » . وقال : « ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » . وقال : « انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار » .

والمشرك مضطرب النفس متقلـــب الاهـــواء عنيـــد مشاكس ، وقد صوره القرءان تصويرا بديعا فجعله في انزلاقه عن التوحيد كمن زلت قدماه ، فهوى الى درك الشرك بالله حيث الضياع والهلاك فيقول سبحانه : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق » . فكأنه سقط من عال فسحق وتمزق فتأكله الطيور أو تقذف به الرياح في هوة سحيقة . وهكذا الذين يشركون بالله ، يسقطون من سمو الايمان الى رذالة الكفر ، ففي الايمان علو وارتفاع ، وفي الشرك سقـــوط وفنـــاء .

أن الشرك لظلم عظيم وكفران صارخ والله لا يغفر الشرك لاحـــد ولا يتجاوز عنـــه أبـــدا .

والشرك الجاهلي الذي نبذه الاسلام ، له صور متعددة يتجلـــى في عبادة غير الله او في اقتران عبادته بعبادة غيره من أصنام وأزلام وحيوانات ونجوم وقبور وغير ذلك ، او ان ينسب لله ما لا يليق به كالقول بأن الملائكة بنـــات اللـــه .

ومن أنواع الشرك الجديد عبادة المادة وتقديسها حتى طمست البصائر والقلوب فغدا الاستغراق في حبها ضرب من ضروب الشرك ، وقـــد قال

سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكـــر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » .

وليس هذا حطا من منافع المال وانما هو تنبيه على ان المال لا ينبغي أن يشغل المرء عن ربه ولا أن يذله ويزري بكرامته ويحملـه على السقوط والانحـــــلال .

ومن جعل بينه وبين الله واسطة فقد عبد الواسطة ، وفـي القرءان الكريم : » والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى اللــه زلفـــــى » .

وروى مسلم وغيره عن النبي (ص) قال : قال الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا : والرسول هو الواسطة المبلغــة للكتاب كما قال تعالى : « ان عليك الا البلاغ » فلا يمكن لاحد ان يتقرب الى الله بشخص الرسول بل بما جاء به الرسول .

والجهل بالاسلام فتح ثغرات مؤلمة بين المسلمين ، فتركوا التوجه لخالقهم مباشرة وتوجهوا لغيره جهلا وضلالا . يقول سبحانـــه في سورة البقرة : « من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه » . فتدل على انفراده سبحانه بالملك والسلطان يوم لا تملك نفس لنفس شيئا . ويقول الشيـــخ محمد عبده : ان في هذا الاستثناء قطعا لامل الشافعين والمتكلين على الشفاعة المعروفة التي كان يقول بها المشركون وأهل الكتاب عامة ببيـــان انفراده تعالى بالسلطان والملك وعدم جرأة أحد من عبيده على الشفاعة او التكلم بدون اذنه ، واذنه غير معروف لاحد من خلقه هـ .

ولقد تصارع القرءان مع المشركين صراعا مكشوفا استمر من زمن البعثة الى ان تغلب التوحيد وانتصر الاسلام ، وقامت له دولة بالمدينـــة المنـــــورة .

أما صراع القرءان مع اليهود فقد كان له وجه آخر ، لان اليهود أهل كتاب وديانتهم من أقدم الديانات ، فكان خطرهم على الاسلام مركزا أكثـر

من خطر الشرك ، خصوصا لما التجأوا في حربهم للاسلام الى تزوير آيات توارتهم وأخذوا يدعون انهم شعب الله المختار ، فــرد عليهم القــرءان أكاذيبهم ودحضها وفضح نواياهم الخبيثة .

والاسلام لم يعاد اليهود ليهوديتهم ولا النصارى لنصرانيتهم ، وقــد ناداهم القرءان بالنداء الجامع فقال سبحانه : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأننا مسلمون » . وهذه الآية تدعو أهل الكتاب جميعا الى عبادة الله وحده وعدم الاشراك به، وهي دعوة انصاف تضع أهل الكتاب أمام مسؤولياتهم ، ومعظمهم وقتئذ في الحجاز من اليهود ، فاذا كانوا حقا يؤمنــون بالله ، فلمــاذا يدلسون في ايمانهم فيومنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعضه ؟ .

لقد وقف الاسلام من اليهود موقفا كريما لكونهم أهل كتاب ، فلما لم يقلعوا عن تآمرهم وغرورهم ، فضحهم القرءان فضيحة تاريخية ووصفهــم بأوصافهم الخسيسة .

ومنذ أن اتصل الاسلام باليهود في يثرب وهو يعطيهم اعتبارهــم ، لكنهم أبوا الا محاربته ولو بالتحالف مع المشركين .

ومعارضة اليهود للاسلام لم تنشأ عن الوعي والارادة الحسنة وانما جاءت معارضتهم من حقدهم وكراهيتهم لنبي الاسلام محمد (ص) الــذي بعثه الله من غير بني اسرائيل .

ولم يقبل اليهود ان ينتقل محمد (ص) بدينه الى يثرب ، هذه المدينة التي كانت على وشك أن تبايع ملكا يهوديا متوجا على العرب يتحكــم في رقابهم ، وكاد اليهودي عبد الله بن أبي بن سلول أن يجلس على عرش يثرب لو لم يداهمه الاسلام وهو يتهيأ للتتويج مما جعله يحقد على الاسلام حقدا أسود فينجر الى حمأة النفاق ويلجأ مع شرذمته اليهودية الى تغيير التوراة حتى لا يطمئن الناس الى رسالة محمد (ص) .

وقد رفض الاسلام ادعاءهم بأنهم شعب الله المختار المتميز عــن المخلوقات بالرسالات السماوية ، لان الاسلام لا يميز انسانــا على انسان ولا شعبا على شعب بمجرد النسبة أو السلالة .

ولم يأت القرءان بما يخالف عقيدة اليهود الواردة في التوراة المنزل على موسى عليه السلام ، وانما جاء بما يصلح ما فسد وجاء بما يلائم البشرية المتجددة ، وجاء بما يلائم جميع الامم والشعوب بما فيها شعب اسرائيل الذي يدعي لنفسه الامتياز على جميع المخلوقين .

ولم يستجب اليهود لنداء القرءان حين ذكرهم بما في كتابهم من العبر والآيات ، وتعددت نداءات القرءان وتوجيهاته لهم وهم لا يزيدون الا كفرا وعنادا وتحجرا ، فقال سبحانه في سورة البقرة : « ان الذين كفروا سواء عليهم آنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » .

وظل اليهود من يومئذ يعادون الاسلام ويكيدون له ويتربصون به ، ومن يتتبع آيات القرءان يدرك أن اليهود من أشد أعداء الاسلام ، لا يوازيهم في عداوتهم له دين ولا مذهب ، ولذلك أطال القرءان في التحدث عن خبائثهم ودسائسهم ، ليس مع الاسلام ونبيه فحسب ، بل ومع انبيائهم من بني اسرائيل ، لانهم قوم غدر لا يؤمن جانبهم .

قال تعالى في سورة المائدة : « لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » .

وقال في سورة البقرة : « أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون » .

وقال في سورة آل عمران : « ودت طائفة من اهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون الا انفسهم وما يشعرون ، يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ، يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » .

وقال في سورة النساء : « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا » .

ان على المسلمين ان يدركوا خطر اليهود على الاسلام منذ ظهوره الى اغتصاب فلسطين على يد الصهيونية العالمية ، وما يحيط بذلك من مكائد دولية ما زلنا نعيشها ونشهد مآسيها .

والخيانة من مميزات اليهود ، فهم لا يترددون في خيانة العهود والمواثيق قديما وحديثا ، وما ثبت أنهم وفوا بعهد من عهودهم . ويقول سبحانه : « او كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم » . ولم يتورعوا فى ضلالهم على عهد رسول الله (ص) من أن يتحالفوا مع المشركين الوثنيين في غزوة الاحزاب .

وقد نشأ عن تعنت اليهود ومروقهم ودسهم مبدأ النفاق ، فهو مبدأ يهودي صرف ، نشأ لتخريب الاسلام من داخله وتشكيك المسلمين في دينهم ، فلم يكد النبي (ص) ينتقل بالقرءان من بؤرة الشرك والوثنية حتى وقع بين براثن اليهودية والنفاق في المدينة ، فكان ذلك من أخطر ما واجهته الدعوة الاسلامية ، وأصبح المنافقون يتظاهرون بالاسلام ويندسون بين المسلمين ليهزموهم ، وتحمل النبي (ص) منهم آلاما وأوجاعا وتلقى من ربه آيات كريمات تكشف عن أحوال المنافقين وأخطارهم على الدعوة الاسلامية ومصيرها . ونهى الله المسلمين عن اتخاذهم خلانا واطلاعهم على أسرار المسلمين ،وصورهم لهم القرءان في اضطرابهم النفسي وتزحزح عقيدتهم وكفرانهم بالنعم والتجائهم الى المداورة والخداع والتآمر والتثبيط ، وأنهم اذا صلوا مع المسلمين تكاسلوا وتثاقلوا وتظاهروا بالايمان وخادعوا الله وهو خادعهم ثم انقلبوا الى جماعتهم ليخططوا ويكيدوا وعندما يفتضحون في نفاقهم يكثرون من الاعذار لرسول الله (ص) ويحلفون أنهم ما أرادوا سوء ، فاذا حقق المسلمون نصرا تألموا ، واذا نزلت بهم مصيبة فرحوا واستبشروا .

وكان النبي (ص) يعرفهم ويحاول ان يخفف عنهم ما يجدونه في أنفسهم من الحقد والكراهية فيعطيهم على أنهم من المؤلفة قلوبهم لعل الله أن يهدي طائفة منهم ، ولكن منهم من أكل النفاق نفسه فلم ينفع معه منطق ولا عطاء ، بل منهم من لم يكتف بمحاربة الاسلام كدين ، بل أخذ يؤذي نبي الاسلام في شخصه ويصفه بصفات تنافي النبوة والرسالة ، فرد القرءان عليهم ،وبرأ رسوله من مفترياتهم .

ولما طفح الكيل نزل القرءان يقول : « يا أيها النبيء جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبيس المصير » .

روي عن قتادة أنه بينما كان النبي (ص) في غزوته الى تبوك وبين يديه اناس من المنافقين فقالوا : أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها ؟ هيهات !! فأطلع الله نبيه على ذلك فقال : احبسوا على هؤلاء الركب ، فأتاهم فقال : قلتم كذا وقلتم كذا ، قالوا : يا نبي الله انما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم : « ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ، لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم ، ان يعف عن طائفة منكم تعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ، المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يامرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم ، ان المنافقين هم الفاسقون ، وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم » .

وقال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يالونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون » .

ان بلية النفاق من البلايا الانسانية التي لم تخفف الحضارات والمذاهب من غلوائها ، فبقيت ترحف في المجتمعات وتحطم فضائل الاخلاق ، ووجد النفاق مرتعا خصبا للنمو في المجتمعات المتحضرة الطافحة بالنفاق والمنافقين الزاخرة بأساليبهم المتعفنة الملتوية ، وازداد انتشارا وتمكنا في المجتمعات الاسلامية التي تتخذ منه أسلوبا في المعاملة والسلوك مع ما يصاحبه من الرياء والاثرة والخيانة والزلفى بحيث يصعب اقتلاعه من النفوس ، لانه مرض قلبي ، وما أصعب شفاء أمراض القلوب .

وكان النفاق على عهد النبوة كفرا وخروجا عن الاسلام ، ثم اتخذ أشكالا والوانا مع الظروف والاحوال .

ان النفاق صراع مستمر بين الهداية والضلالة ، وبين الحق والباطل، وبين الفضيلة والرذيلة ، وهكذا تصارع القرءان مع المنافقين بسموه وانحطاطهم وانسانيته ونذالتهم ، ثم تتابع الصراع بعد وفاة النبي (ص) بتوجيه من اليهود وتدبيرهم ، فبعد انتقال رسول الله (ص) الى الرفيق الاعلا وانتشار الاسلام شرقا وغربا اعتمد اليهود النفاق لتفتيت الدولة الاسلامية الفتية ، وبتدبيرهم النفاقي استشهد الخليفة عثمان بن عفان (ض) فانطلقت اليهودية بنفاقها تدس في الاسلام أحاديث مكذوبة على رسول الله (ص) ، وقد تضخمت هذه الطائفة المخربة للاسلام وتمكنت فيما بعد من أن تصيب المسلمين بالخلاف والاحباط .

وفي الحديث ان النبي (ص) قال : أخاف على أمتي زلة العالم وجدال المنافـــق .

وحديث القرءان مع المشركين واليهود والمنافقين يختلف عن حديثه مع النصارى الذين لم تكن لهم وقتئذ قوة في الجزيرة العربية كقوة اليهود ولم يكن لهم حقد على الاسلام كحقد اليهود ، ولذلك لم يدخل معهم القرءان فى مثل العراك الذي اضطر الى خوضه مع اليهود ، ولانهم كانوا أقـــرب الى الايمان بالاسلام من غيرهم وبحثهم عن الحق ، وحتى الذين لم يدخلوا في الاسلام من العرب المتنصرين لم يسلكوا مسلك اليهودية المقيتة . ولـــم يتعصبوا ضد الاسلام الا بعد ظهور الصليبية المروعة بعد قرون ولاسباب خاصة لعب فيها اليهود بأصابعهم الملوثة بالاجرام أدواراً هامة .

وأعتقد أن الدول النصرانية التي تناصر اليهود الصهاينة في فلسطين اليوم لا تفعل ذلك بدافع ديني ولا حبا في اليهود وانما لسياسة تعمل عملها والدعاية تنفخ أبواقها ، والا لما اختارت الدول النصرانية ان تتعامل مـــع شراذيم الانسانية وحثالات البشرية .

أما من حيث العقيدة والايمان فان القرءان يحكم على اليهود والنصارى بالكفر لعدم ايمانهم برسالة محمد (ص) بعد ما علموا عنها من كتبهم ، ولكنهم غيروا صفاء التوحيد وخلطوه بضلالات لا يقرها الاسلام .

وقد واجههم القرءان بنكرانهم في قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم » .

والقرءان لا ينهى المسلمين عن الاتصال والتعامل مع غير المسلمين، وانما يحذر المسلمين من الكائدين لهم والمتربصين بهم والذين لا يقابلون تسامحهم الا بالاجهاز عليهم ، اذ من الغباوة ان يلتجيء المسلمـــون الى أعدائهم يناصروهم .

وفي القرءان الكريم : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهـــم ، ان الله يحـــب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم مـــن دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولهم ومن يتولهـــم فاولئـــك هـــم الظالمـــــون » .

الجهـــــــــــاد

فرض القرءان الجهاد من أجل الدعوة ورد الاعتداء ، ولم يقصد الى استعباد او استرقاق ، وانما كان يريد وقف زحف الوثنية والشرك وانشاء مجتمع نظيف يعيش الناس فيه مؤمنين متحابين .

وقد أبى الكفرة الا الوقوف في طريق الدعوه القرآنية وتضليل الناس والحاق الاذى بالمؤمنين ليمكن لهم أن يقضوا على البذرة الاولى التي كان يتعهدها الرسول محمد (ص) .

ومبادىء القرءان كانت في حاجة الى قوة تزجر المعتدين وترد كيدهم ، ولم يكن القرءان كتاب حرب وقتال واعتداء .

والسلام لا يتحقق الا اذا زجر المعتدون وفرضت عليهم العقوبات .

ولم تكن حروب الاسلام استعمارية وانما كانت دفاعا عن الدعوة والعقيدة وتبليغ الرسالة التي أنزلها الله عامة .

وتشريعات القرءان في الجهاد ومعاملة الاسرى تعطي صورة متكاملة عن تمسكه بأهداب الحرية والعدالة والمساواة .

وما ورد في القرءان من الحظ على الجهاد والترغيب فيه مقيد بالدفاع عن الدعوة والذوذ عن الحقوق ، فليس الجهاد في القرءان تهجما واستفزازا ، وليس المجاهد طاغية متسلطا ، بل الجهاد فريضة مقدسة محترمة لها شروطها وقوانينها ، والمجاهد في القرءان شريف النفس كريمها بعيد عن شوائب الظلم والتعدي .

وغاية القرءان من الجهاد القضاء على الوثنية والشر واقرار التوحيد والايمان والسلام ، وكان رسول الله (ص) يلوم المسلمين اذا هم خالفوا

مبادىء القرءان في الجهاد ، مع انهم لم يصدر منهم على عهد الرسول شيء متعمدا ، وانما كانوا يخطئون أحيانا فلا يقرهم الرسول على خطئهم .

ونهى المجاهد المسلم عن قتل الاطفال والنساء والشيوخ والمدنيين الذين لا يحملون السلاح فلا يجوز التسلط عليهم ، ومن خرج عن التخطيطات الاسلامية في الجهاد يعتبر مجرد سفاك لا وزن له ولا اعتبار .

فتشريعات القرءان الحربية ليست عنصرية ولا مبيدة وانما هي انسانية سواء في ساحة القتال او في معاملة الاسرى ، والحرب حدث له دواعي محددة بنص القرءان فاذا ما زالت تلك الدواعي فلا تكون الحرب شرعية .

ولما كان الجهاد من فروض الاسلام المؤكدة ، ويعتبر عبادة من العبادات جعل القرءان الذين يصرعون في سبيل الله أحياء يرزقون عند ربهم ، لان تضحيتهم غالية وثمينة ، فالله سبحانه يجود عليهم بحياة أفضل بدرجات لا تقدر من حياتهم الدنيا ، فالذين يصرعون في سبيل الله أحياء عند ربهم يرزقون رزقا حقيقيا نجهل كنهه ونؤمن بوجوده عملا بالايمان بالغيب الذي يعتبر جزء من العقيدة الاسلامية ، قال تعالى : في سورة البقرة : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » .

وقال في سورة آل عمران : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فالجهاد المعتبر في القرءان جهادا هو ما كان لنصرة العقيدة والذوذ عنها والدفاع عن حوزتها وعن أمر الله .

روي عن أبي موسى قال : سئل رسول الله (ص) عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .

وفي سورة البقرة : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث تقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فان انتهوا فان الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين ، الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين ، وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا ان الله يحب المحسنين » .

ان القرءان لا يدعو للقتال ، ومن المؤكد أنه يدعو للسلام في كل مناسبة ، فاذا لم يسالمه خصوم الدعوة ومنعوها من الوصول الى الناس واعتدوا على أصحابها فانه لا يقر المؤمنين على ان يقفوا مكتوفي الايدي ازاء خصوم الدعوة وأعدائها .

والدعوة القرآنية دعوة شاملة عامة ، فاذا تركت تخطو خطواتها بالحجة والدليل ، فلا داعي الى قتال ، أما اذا صدها خصومها بالعنف ووقفوا في وجهها بالتعنت والكيد فمن غير المقبول ان لا يصد العنف والتعنت والكيد .

والقرءان يقرر أنه لا اكراه في الدين ولا اعتداء على الدين ، فمن شاء ان يتقبل الدعوة عن طيب خاطر وادراك تقبلها ، ومن شاء ان يرفضها بالتي هي أحسن رفضها . ولا يقبل القرءان ان يفتن المؤمنون في عقيدتهم لمجرد أنهم أعتنقوها عن طيب خاطر لكون ذلك يتنافى مع مبدأ الحرية الذي يقرره ، وليس من الحرية ان يفتن الناس في عقيدتهم ويؤذوا من أجلها ، فاذا حدث شيء من ذلك وجبت حمايتهم والدفاع عنهم حتى يكون الدين لله .

فالقرءان ينهي عن الاعتداء كيفما كان ويامر بقتال المعتدين ، والله لا يحب المعتدين .

والقرءان من السباقين الى وضع تشريعات نظافة القتال ، فلا يجيز ان يعتدى على الذين لا يقاتلون .

روي عن ابن عمر انه قال : وجدت امرأة مقتولة في بعض مغـازي رسول الله (ص) فنهى (ص) عن قتل النساء والصبيان .

كما نهى (ص) عن النهبى والمثلة وقال : اغزوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليـدا .

وتنهى الآية عن القتال عند المسجد الحرام لقدسيته ، ولكـن اذا اعتدى على المسلمين فيه فيجب رد الاعتداء .

وتقرر الآية ان الفتنة أشد من القتل وهي حقيقـة لا سبيـل الى جحودهـا .

والفتنة تشمل أنواعا شتى من الاعتداء كالاذاية والفوضى التي يضيع بين ثناياها شرف الانسان وحقوقه ، بل وانسانيته ، وتزهق بسببها الارواح البريئة وتنعدم الحياة المطمئنة المستقرة ، وتختل الموازين والاوضاع ، ويضل الناس فيها طريقهم وتزل أقدامهم ويختلط الحق بالباطل والرشد بالغي وتعتم الحياة حتى لا يميز الخبيث من الطيب .

وكل من عاش فتنة يدرك معنى الآية ادراكا محسوسا بينا .

ولا زالت آيات الله تتلى بيننا ، فعلينا ان نسير على منهجها ، فلا نقبل الاعتداء ولا نسمح للاعداء بأن يفتنونا بأي أسلوب من الفتنة ، لان أساليب الفتنة قد تعددت وتنوعت واتخذت أشكالا وألوانا مختلفة . والدعايـة في مقدمتها عن طريق الكتب والصحف والمجلات والنشرات والافلام وما الى ذلـك .

ولا يتأتى الجهاد للمسلمين ولا يتأتى لهم الدفاع عن عقيدتهم وكرامتهم الا بتكوين قوة رادعة تستعمل عند الالتجاء ، وهذه القوة لا تنبنـي بمجرد الكلام والاماني وانما تبنى بالعلم والمال والتكوين النفسي السليم ، ولذلك تأمر الآية بالانفاق في سبيل الله وهو عنصر مهم كاد ان يتلاشى في نفوس

المسلمين ، اذ بالامساك عن الانفاق في سبيل الله نلقي بالامة الاسلامية الى الهلاك والدمار ، والمال قوة والدعوة لا تقوم بالعوز والهوس والافتـــراء والضجيـــــج .

وفي سورة البقرة : « أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثـل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب » .

وهذ الآية توجه المسلمين الوجهة القيمة التي يجـــب ان ترسخ في نفوسهم وقلوبهم وهي ان للكون سننا لا تختلف ، خلقها الله كما هي وجعلها نبراسا لتمييز الخبيث من الطيب وامتحانا لصبر الصابرين وايمان المؤمنين، فالمحنة تصيب المؤمنين لا محالة حتى تكاد تزلزل أقدامهم وقلوبهم وحتى يسألوا : متى نصر الله ؟

والمحن امتحان من الله لعباده ، فاذا صبروا عليها وثابروا وعملـــوا ثبت الله قلوبهم وأتم عليهم نعمه ونصرهم وجعل منقلبهم في آخرتهـم الى رحمة من الله وجنات تجري من تحتها الانهار .

وفي سورة البقرة : « كتب عليكم القتال وهو كره لكـــم وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمـــون » .

والقتال المفروض على المسلم ما كان حقا وفيه خير للناس وهـــو فريضة شاقة لا بد منها عند الضرورة لحفظ الكيان الخـــاص والعـــام للمسلميـــــن .

وتشير الآية الكريمة لفرض الجهاد أن هناك أشياء يحبهـــا الانسان ويكون فيها الشر عليه ، وأشياء يكرهها ويكون فيها الخير له ، فالله وحده هو الذي يعلم سرائر الاشياء ، ومن أجل ذلك فالقتال ولو تكرهه بعـــض النفوس فهو ضرورة لازمة عند الاقتضاء ، والا تغلب الشر ، والله لا يحب الفســـــاد .

وقد يعتقد بعض المسلمين خطأ بأن نصر الله لهم واجب لمجـــرد ايمانهم ، وهذا خطأ فالاسلام لا يخالف ما أجراه الله في الكون من نواميس

يجب الخضوع لها حتى يتميز الخبيث من الطيب والمجد من الكسول والعامل من الخامل .

ان الهزيمة والنصر صنوان ، والايمان الراسخ هو الذي يحقق النصر للصادقين وهو وحده لا يحقق نصراً اذا لم يدعم بالاستعداد والتوجيه ، ولقد انتصر المسلمون على قلتهم في غزوة بدر لتفانيهم في ايمانهم ووقوفهم صفا واحدا متأهبا للنزال ، ولم يكن غرضهم الحطام ، ولكنهم انهزموا في أحد لما تركت طائفة منهم أوامر الرسول واغترت بالغنائم والاسلاب حتى كانت الكارثة التي أصيب فيها رسول الاسلام (ص) وقتل سيد الشهداء حمزة .

وقد استعرض القرءان حوادث غزوة أحد في سورة آل عمران حيث قال : « واذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنين مقاعد القتال والله سميع عليم اذ همت طائفتان منكم ان تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون» الى ان تقول السورة : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس ويعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين ءامنوا ويمحق الكافرين ، أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ، ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ، وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلم يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » .

ثم تقول : « ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » الى آخر الآيات الكريمات .

وفي سورة الحج : « ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز » .

فكل عقيدة لم يدافع عنها وبقيت بدون قوة تحميها فمصيرها الى البوار ، والباطل والكفر لا يحترمان المقدسات .

فلا بد من الحماية والاستعداد لحفظ كيان العقيدة حتى تشق طريقها بين أوصال الشرك والكفر والنفاق والجحود .

والقرءان كتاب سلام ما دام الكفر لم يستأسد ، فاذا استأسد ليمنع رسالة القرءان السلمية ، فانه يوجب الدفاع عن أهدافه السلمية بكل قوة وحزم وبدون اعتداء ولا حقد ولا بغي . والله سبحانه قوي عزيز ينصر من ينصره اذا استجاب لندائه وسلك مسالك شريعته وأقام الصلاة وآتى الزكاة وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر .

فالنصر له شروطه ، ولا يمكن ان يتحقق بدون عمل ، ولذلك يضع القرءان الحقائق كلها عارية أمام المؤمنين فليختاروا أي طريق يسلكون .

وفي سورة محمد : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » .

فهذه الآية تتحدث عن اللقاء في الحرب وتصور شكلها المحسوس الملتحم بالعدو فتقول للمومنين : فاذا أثخنتموهم ، والاثخان شدة التقتيل في العدو حتى يتهاوى ويغلب ، وفي هذه الحالة يكون قد قتل من قتل وأسر من أسر وشد وثاقه ، وهؤلاء الاسارى اما ان يمن عليهم بعد باطلاق سراحهم بلا مقابل ، واما ان يفدوا أنفسهم بمال أو عمل او نحو ذلك .

وما دام العدو قويا عنيدا طاغيا فلا بد من القتل حتى يذل وتقلم أظافره ، وهذا حكم عام . أما ما ورد في السنة من قتل بعض الاسرى فله حكم خاص به ، ووقع في حالات معينة أوجبت القتل .

أما آيات براءة : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . فالمقصود بهؤلاء مشركوا الجزيرة ، اذ غيرهم من المشركين خارج الجزيرة تقبل منهم الجزية .

أما آية : « ما كان لنبي ان يكون له أسرى حتى يثخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » .

فهي خاصة بموقعة بدر يوم كان المسلمون قلة ، فلما كثروا وظهر سلطانهم جاءت آية : « فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » حيث جعلت الخيار بين المن او الفداء .

أما استرقاق العدو وقتئذ فمعمول به تمشيا مع الاحوال التي كانت سائدة في العالم ، فلو لم يسترق المسلمون في بعض الحالات لما وجدوا ما يستبدلون به أسراهم ولاعطوا لعدوهم فرصا للغلبة والتعالي .

ويعلم من النصوص الاسلامية عموما ان الاسلام عدو للرق وأنه دين الحرية ، فكلما وجد فرصة للقضاء على الرق الا واستغلها ليخلص البشرية من شر الرقية والاستعباد .

ومن مجموع نصوص القرءان نستطيع أن نقول : ان الاسلام لا يقر سفك الدماء ، ولكنه لا يقبل الاعتداء ، فاذا وقع المسلمون في حرب فعليهم أن يدافعوا عن انفسهم وأن يقتلوا المعتدين الى الحدود التي حدها القرءان ، ولا ينبغي أن نتخذ من أحكام تتعلق بمشركي الجزيرة خاصة او من أحكام خاصة بظروف خاصة حكما عاما تتخذ منه قاعدة عامة .

فالاسلام دين المودة والسلام وفي نفس الوقت لا يقبل الاعتداء والظلم والمكر ، وأحكامه في السلام ودعوته له شيء مقرر في عدة آيات واضحات .

وجاء في سورة البقرة : « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ان القرءان لم يرد من الناس ان يعتنقوا عقيدته بالقوه وبدون ادراك بل ترك لهم الحرية والتفهم كما لم يقبل منهم ان يقفوا في وجه دعوته .

والمعروف من أساليب القرءان أنه يخاطب العقل والوعي ، ومن هذا شأنه لا يمكن ان يلتجيء للقوة الا عند ما يفرض عليه الالتجاء اليها .

وعقيدة القرءان دون سواها ، تتميز بكونها العقيدة التي اقتحمت العقول بالحسنى ولم تستعمل في يوم ما القوة باختيار ، ولكن خصومها أبوا عليها سلامها وفرضوا عليها ان تواجههم بسبب عدوانهم الآثم ، وكان لا بد من هذه المواجهة لعقيدة تريد الثبات والاستمرار .

وكل من يرجع الى تاريخ انتشار المسيحية يجدها قد فرضت على الناس بالقوة والعنف والجبروت وبالاخص على يد الامبراطور الروماني قسطنطين .

ونجد في عصرنا الحاضر قوة العنف تفرض مذاهب معينة على الناس كما يفعل الشيوعيون والصهاينة والامبراليون .

والعجيب ان الرومانيين الذين قاوموا المسيحية بضراوة هم الذين فرضوها على الناس بوحشية .

والاسلام لم يكن في هديه جبارا ولا متعاليا ، وانما كان رحيما متسامحا .

ونبي الاسلام هو الذي دعا على قومه الذين آذوه بدعاء كريم حيث قال : « اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون » . وهذه طبيعة تفترق عن طباع من سبقه من الرسل كنوح الذي دعا على قومه بقوله « رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » .

وكم من فرق شاسع بين اتجاه الاسلام واتجاه غير الاسلام .

والاسلام في دعوته الرحيمة يربط بين البشرية برباط العروة الوثقى ويريد منها ان تكفر بكل طغيان وان تتمسك بنور الايمان المتحرر من كل قيود وطقوس وظلمات .

العلـــــــوم

القرءان كتاب دعوة وارشاد وتوجيه وتنظيم ، وليس كتاب علم بالمعنى المعـــروف .

وللعلوم مكانها من البحث ، والآراء العلمية تتغير وتختلف ، والدعوة القرآنية لا تقبل الاختلاف والتغيير .

ورغم أن القرءان ليس كتاب علوم بالمعنى المعروف فقـــد أشار في معرض العبرة والتذكير الى أمور علمية هامة تظهر ان هذا القرءان معجز بكل ما اشتمل عليه من اشارات عابرة ، ولكنها عميقـــة .

قال تعالى في سورة البقرة : « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقـــا لكم » .

ولا شك ان الماء هو المنبع الرئيسي للحياة كيفما كانت هذه الحياة وهو المادة التي بدونها لا يمكن ان توجد حياة ، سواء كانت روحيـــة او نباتيـــــة .

والقرءان اذ يتحدث عن الماء كمادة أساسية للحياة ، لا يتحدث عنه حديث الظنون والافتراضات التي اعتاد علماء الحياة ان يتحدثوا بها عـــن نشأة الحياة الاولى على هذه الارض .

والحياة الاولى كما يراها القرءان هي موهبة خالصة من عنـــد الله بأسبابها المخلوقة .

والافتراضات الحياتية كنظريات علمية أرضية تختلف فيهـــا الآراء وتتغير النظريات ، ولكنها كمنحة من الله لا تخضع للافتراضات والظنون ، فالله هو الخالق وحده وهو مانح الحياة وحده .

ونستطيع ان نبحث علميا عن الحياة وتطوراتها ولكننا لا نستطيع ان ندرك كنهها وخفاياها ، والعلم الحديث نفسه وقف حائرا أمام هذه الظاهرة الكونيـــة العجيبـــة .

وفي سورة الانبياء : « ألم ير الذين كفـــروا ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ، وجعلنا فى الارض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا

السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ، وهو الذي خلق الليـــل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون » .

فتاتي هذه الآية لتنبيه الغافلين عن وجود الله بأن ينظروا الى الادلة الكونية الشاهدة على وجوده ليروا كيف كانت السماوات والارض رتقا ، اي سدا ملتئما وملتزما ، ففصل الله بينها وفتقها وجعل كل جزء يدور في فلك بنظام محكم ليؤدي مهمته .

وهذه الآية تأتي بفكرة علمية دقيقة يقرها العلم اليوم بعد ان أثبتهـــا القرءان منذ قرون متطاولة .

فهل فهم المسلمون هذه الآية بعد نزولها حـــق فهمهـــا ؟ أم ان في القرءآن آيات وآيات لم يتمكن السابقون من فهمها ، ولا تفهم الا في هـــذه العصور العلمية التي نعيشها ، ومن ذلك قوله تعالى : « فمن يـــرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد ان يضله ايجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء » .

فلولا خروج الانسان عن الهواء المحيط بالارض لما استطعنا ان نفهم هذه الآية فهما صحيحا .

ان العلم الحديث يقرر أن المجموعة الشمسية كانت سديمـــا ثـــم انفصلت وأخذت أشكالها الكروية ، ويقرر ان الارض التي نسكنها كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها وبردت ومرت عليها دهور لتصبح صالحـــة للحيـــــاة .

والقرءان ككتاب دعوة معجز يأتي بأمثلة في مقام الدعوة تحمل معاني علمية ترشدنا الى مصدر هذا القرءان ومنبعه .

ومن الغلط أن نقرر ان القرءان كتاب علوم ، ولكننا نقرر ان اشاراته العلمية تفتح الآفاق للعقل الانساني لينطلق من عقاله بشرط ان يستمسك بايمانه ، لان العلم بدون ايمان لا يقود الا للمهالك .

والبشرية تشهد اليوم ان المخترعات العلمية الجهنمية تستعمل في ابادة البشر واستعماره واستنزاف خيراته ، واذا فالعلم العاري من الايمان لا تجني منه البشرية الا الوبال والخسران .

ثم تقرر الآية حقيقة علمية أخرى وهي ان أصل الحياة هو الماء .

وتقرر أن الجبال المنبثة على الارض تحفظ للارض توازنها حتى لا تميل وتضطرب ، وتقول : بأن في هذه الجبال فجوات تتخذ سبلا وطرقا وهو شيء مشاهد محسوس .

ثم تقول : بأن السماء سقفا محفوظا من الخلل بنظام محكم .

والسماء كل ما علانا الى فوق فهي في النظر كالسقف المرصع بالآيات الكونية المتعددة .

وجميع ذلك من صنع الله الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر، هذان الكوكبان المرتبطان بحياتنا ارتباطا وثيقا .

وكل الكواكب تسبح في الفضاء بنظام مطرد لا يتغير لحظة واحدة والا لاختلت الحياة وضاعت .

وفي سورة فاطر : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء » .

فهذه الآية أيضا تنهج نهج القرءان في لفت النظر الى الكون لكونه سجلا مفتوحا لمن يريد النظر والاستدلال .

فلينظر الانسان الى الماء المنزل الذي يحيي الارض بعد موتها ويخرج منها الرزق والطيبات والثمرات المختلفة الالوان والاحجام والمذاق .

ولينظر الى الجبال وألوان صخورها وأشكالها وأنواعها وما تحويه من خيرات ظاهرة ودفينة وفيها جدد طرائق وشعاب مختلفة الوانها ، فمنها البيض ومنها الحمر ومنها حالكة السواد ومنها ألوان أخرى .

وكما تختلف الوانها تختلف ظلالها ونباتاتها .

وكاختلاف الوانها يختلف الناس والدواب والانعام لونا وطبيعة وشكلا .

فمن يعقل هذا ويفهمه ويتدبره سوى العلماء الذين يخشون الله .

وهذه اللفتة القرآنية الى العلماء لفتة هامة ، فبالعلم يستطيع الانسان أن يدرك ، وبالجهل لا يستطيع معرفة حقائق الكون وعجائبه .

وان العلماء ليعرفون من أسرار الكون ما لا يعرفه سواهم ، بل ان الكافرين منهم ليقفون مشدوهين أمام سجل الكون وغرائبه ، ومنهم من أنقذه علمه من الكفران حيث أدرك أن هذا الكون لا يمكن ان يكون صنيعة نفسه بنفسه وهو في نظامه الدقيق .

وفي سورة النور : « ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ، يقلب الله الليل والنهار ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار ، والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ,ومنهم من يمشي رجلين ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير » .

فلينظر الانسان وليتدبر كيف يزجي الخالق السحاب ويسوقه من مكان الى مكان ثم يجمعه ركاما يركب بعضه بعضا فيخرج منه الماء وهو فى هيئة الجبال الضخمة المشتملة على قطع من البرد ، وذلك بارادة الله الذي يصيب بالمطر من يشاء ويصرفه عمن يشاء .

وفى السحب من البرق ما يكاد ضوؤه يخطف الابصار حينما يخرج من خلال السحب ويضرب بقوة .

والسحاب يتكون من البخار الذي يخرج من البحار ويرتفع في الجو .

وهذا المشهد القرآني يدل على اعجاز القرءان ، هذا المشهد الرائع الذي يلمسه المسافرون على جناح الجو بكل عظمته وخوارقه .

والاقدمون الذين لم يقدر لهم ان يركبوا متن الجو ويصعدوا فوق السحب لا يستطيعون ان يتصوروا هذ المشهد الذي تصفه الآية كما نستطيع نحن ان نلمسه .

وتستعرض الآية مشهدا آخر من الكون وهو تعاقب الليل والنهار وفي تعاقبهما عبرة لاولي الابصار .

ثم تعرض آية أخرى من هذا الكون فتقول : « والله خلق كل دابة من ماء » .

والدابة اسم لكل ما يدب على الارض ، وكل الدواب خلقت من ماء ، وهي كثيرة الاشكال والانواع والخاصيات حتى لا تكاد أنواعها تحصى ، فمنها الزواحف التي تمشي على بطنها ومنها من يمشي رجلين كالانسان والطير ومنها من يمشي على أربع كالفرس والفيل وكلها مخلوقة بمشيئة الله وقدرته .

وان من يدرس عوالم الحيوانات والطيور والهوام ليدرك عن قرب صنع الله الذي أتقن كل شيء ، وقصد ان يخلقه وجعل له خواص معينة وفوائد شتى .

وليس هناك مخلوق كيفما كانت درجته خلق عبثا حتى الحية السامة القاتلة فيها من الفوائد للانسان ما يدركه علماء الطب والصيدلة .

وان أصغر المخلوقات وأدقها ليؤدي في الحياة مهمة ، لولاها لتوقفت قطاعات كثيرة في الحياة .

وفي سورة الحج : « يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم » .

فليفكر الانسان في نفسه وأصله وتركيبه فانه سيجد يد الصانـــع تعمل عملها المتواصل الدائب .

فالانسان خلق من الارض واليها يعود ، وكل ما فيه أرضي باستثناء ذلك السر الذي به تقوم الحياة وبنزعه تنتهي .

ان الانسان الطموح العجول قد تكون من ذرات دقيقة ومن بويضات تافهة في الرحم بقدرة الخالق الذي كون النطفـــة من ماء يخرج من بيـــن الصلب والترائب ليصبح خلايا حية هذه النطفة التي تتحول الى علقـــة فمضغة فانسان ، هذه النطفة الحية بملايين جراثمها المنوية لتلقح بويضة المرأة في جدار رحمها فياخذ الانسان في التكوين والشكل شيئا فشيئـا وعلى مراحـــل مختلفـــة .

أليس في هذا ما يلفت النظر ويستوجب التدبر ؟

يستعرض القرءان هذا ليظهر عظمة القدرة الالاهية وكمالها الدقيق العجيــــب .

والمضغة وهي القطعة من الدم الغليظ اما ان تبقى في الرحم لتصير انسانا واما ان يلفظها الرحم فلا تنتج اذا لم يقدر لها الله الحياة ، فهـــو سبحانه يقر في الارحام ما يشاء الى الاجل المحدد .

وتستمر الآية في حديثها عن قضية الحياة والاحياء فتقول : « وترى الارض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت ورسبت وأنبتت من كل زوج بهيــــج » .

فالارض تكون هامدة قبل نزول الماء عليها ، فاذا نزل الماء الذي هـــو العنصر الاصلي للحياة اهتزت وتفاعلت وتحركت ونمت وانتفخت بالحياة والنبات من كل زوج وصنف بهيج .

فليلتفت الانسان الى هذا المنظر الرائع الذي تسوقه الآية الكريمة .

وتقول آية سورة المؤمنين : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغـــة

فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقيـــن . »

وفي سورة الاعراف : « وهو الذي يرسل الرياح نشرا حتـــى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كـــل الثمـــــرات » .

فمن الذي أرشد السحب لتحمل الماء وتذهب به الى الارض الميتة لتحييهــــا ؟

ومن الذي أرشد الرياح لتحمل السحب ؟

قد يقولون ان ذلك من عمل الطبيعة ، ولكن القرءان يقرر ان ذلك من فعل الله الذي خلق الطبيعة وما فيها لتسير بنظام على الانسان ان يعرفه ويتدبره ويستفيد منه بكل امكانياته .

وهنا تفترق النظرية القرءانية مع نظرية الملحدين والجاحدين .

وفي سورة البقرة : « ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله مـــن السماء من ماء فأحيى به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » .

ان المسلم الذي لا ينظر في القرءان بما هو واجب ان ينظر فيــــه لا يقدر على فهم معانيه حق فهمها .

ففي السماوات والارض مجالات واسعة للانسان وهي عوالم تشتمل على أشياء وتسير بنظام عجيب .

ويحاول العلم الحديث ان يكشف عن بعض الغوامض في هذا الوجود ولكنه يقف مشدوها أمام العوالم المتعددة التي تسبح في فضاء لا نهاية له تعد مجرة الشمس فيه كنقطة تافهة بين تلك العوالم المهولة في آفـــاق ضخمة ممتدة امتدادا يعجز العقل البشري عن ادراك كنهه .

فلينظر هذا الانسان المتمرد الى دقيق صنع الله في دوران الافلاك ونظامها واختلاف الليل والنهار بتعاقب النور والظلام مرة بعد أخرى .

ولينظر الى الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وليتصرف فيما منحه الله التصرف فيـــه .

وما ذا ينفع النـــاس من الفلـــك ؟

لا شك ان نفعها عظيم وكثير في ميادين التجاره والصيد والحـــرب والسفـــر وغيـــر ذلـــك .

ومن المؤسف ان يكون ما لفت القرءان اليه نظر المسلميـــن ضيعوه فانتفـــع بـــه غيرهـــم .

ثم ليتفكر الانسان في تسخير الرياح وجلبها للامطـــار النافعـــة ، والتلاقيح المفيدة للنبات وما ينتج عن ذلك من فوائد فلاحية هامة .

والماء والرياح يفيدان البشر فوائد لا تحصى ، بل ان الحياة لا توجد بدونهما ، ولكن القدرة الالاهية قد تحولهما الى أداة تخريب ودمار وهلاك .

فعلى المخلوقات أن تلتفت الى هذه الآيات الكونية وتتفهمها عن طريق العلم والبحث لتستفيد منها وتجعلها مصدر خصب ونفع وقوة والا انقلبت وبالا وخرابـــا .

وفي سورة الحجر : « ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء مـــوزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقيـــن وان من شيء الا عندنـــا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنيـــن » .

ففي السماء كواكب ونجوم لا تحصى تختلف حجما ودورانا وتؤدي مهمتها على أكمل وجه وادقه واجمله صنعة وبهجة للناظرين ، وهي محفوظة من كل شيطان رجيم يدنسها بغوايته .

أما الارض التي منحت للانسان بخيراتها ففيها من الجمال والابداع أنواع وأشكال وصنوف ، وفيها رواسيها وما تشتمل عليه من مناظر واختلاف احجام وطبيعة .

وفي الارض حيواناتها المختلفة وحشراتها وهوامها التي لا تحصى .

وفيها معادنها وأنهارها وبحارها .

وفيها نباتاتها وما تحويه من فوائد جمة للمخلوقات التي تعيش على سطحها ، وهذه النباتات وصفت بأنها موزونة ، وكلمة موزون تجمع من المعاني العلمية الدقيقة كل ما في العلم من دقة وأحكام .

وللمخلوقين في كل ما ذكر معايش ، فما عليهم الا أن يعرفوا كيف يتصرفون وكيف يستفيدون .

وفي هذه الارض من لستم له برازقين من المخلوقات التي هي أمم أمثالكم .

والله المسيطر على كل شيء وخزائن كل شيء عنده وينزله عليكم بقدر معلوم مضبوط .

وكلمة القدر المعلوم تحمل معنى الدقة والاتقان .

ويرسل سبحانه الرياح لواقح منتجة فتنزل عليكم الماء الذي يحييكم .

فهل أنتم الذين أتيتم به من خزائنكم ؟

وفي كلمة لواقح ما يشير الى مفاهيم علمية ثابتة ، فالرياح تأتي بالماء وتحمل اللقاح وتفيد النبات والاشجار والانسان وجميع المخلوقات .

فتأملوا في ذلك واستفيدوا منه وآمنوا بمن سخر لكم ذلك .

وفى سورة الانعام : « ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى توفكون فالق الاصباح وجاعل الليل

سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ،وهو الذي انشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكما ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » .

فللقرءان نظرياته في الحياة والخلق وكلها تماشي الايمان وتنبعث من المنبع الاصلي للوجود .

ويقرر القرءان ان الله هو الذي خلق الانسان من طين وسواه حيا ثم تناسل البشر كله من نفس واحدة ، خلق منها زوجها وبث منها رجالا ونساء .

ويلفت القرءان نظرنا في هذه الآيات البينات الى نشأة الحياة في النبات والى الامطار وفوائدها .

فالله جعل من الماء كل شيء حيا وهو سبحانه فالق الحب والنوى ومن انفلاقهما تتكون أشجار ونباتات لا تعد لها خاصياتها وفوائدها .

ويحدثنا القرءان عن هذا الكون الذي كان هامدا ثم تحركت فيه الحياة التي استخلف الانسان بسببها في هذه الارض وفق مشيئة الله الذي أوجد الحياة من العدم والعدم من الحياة بقدرته ومشيئته ، وهو سبحانه الذي يجعل الذرات الميتة خلايا حية والعكس .

والله فالق الاصباح من الظلام وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا وما ينشأ عنهما في هذه الارض من كل ما له صلة بسيرهما ونظامهما الذي لو حدث فيه تغيير بسيط لانعدمت الحياة .

وهذا الخالق المريد هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر وأرشدكم الى معرفة نظامها وتحركاتها .

وهذا الخالق المريد هو الذي أنشأكم من نفس واحدة وجعل الحياة تنتقل من خلية مستودعة في صلب الرجل لتستقر في رحم الانثى لتخرج انسانا كامل الخلقة .

وهذا الخالق المريد هو الذي أنزل من السماء ماء فأخرج به نبـات كـل شيء .

وتذهب الآية في تبيان قضية الخلق والايجاد فتذكر ان مما يصنعه الماء الخضرة التي يخرج منها الحب المتراكم .

ونحن نزرع حبة فتنشأ منها سنبلة أو سنابل ملتفـة على بعضهـا أضعافا مضاعفة . كما يخرج منها ثمر من فروع النخل وجنات من أعناب وزيتون ورمان وغير ذلك من النباتات المختلفة الشكل واللون والمـذاق مشتبها وغير مشتبه .

فانظروا الى هذا كله واستمتعوا به واذكروا خالقه وفضلـه عليكـم واشكروه على نعمـه .

وفي سورة آل عمران : « تولج الليل في النهار وتولج النهـار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي » .

وهذه الآية تشير الى حقيقتين من حقائق هذا الكون .

الاولى : دوران الارض حول الشمس وانتقال أطرافها من ظلمة الى نور ، ومن نور الى ظلمة دواليك . وفي هذه الحركة الدائبة يلج الليل في النهار ويلج النهار في الليل ، أي ان كل واحد منهما يدخل في الآخر بمقدار الدوران بحيث لا ينقشع نور النهار دفعة واحدة ، كما لا يعم ظلام الليـل دفعة واحدة ، وهو شيء مشاهد محسوس .

والثانية قضية الحياة والموت ، فالخلية تكون من التفاهة بمكان ثم تتحول الى كائن يدب ، وقد يكون انسانا فيتعاظم ويتعالى ، ولا يفكر فـي أصـل نشأتـه .

والبذرة تكون جامدة فيخرج منها النبـــات الـــذي يثمر بـــذورا كثيـــرة .

والحيوان الحي ما هو الا تركيب كيماوي من مواد متعددة .

فبيضة الدجاجة جامدة ولكنها تحمل بذرة حياة .

وعلى أي فان هذه الآية الكريمة تحمل من المعاني الطبيعيــة أسرارا ينبغي التعرف عليها .

وفي سورة يونس : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نــورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحــق نفصل الآيات لقوم يعلمون ، ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والارض لآيات لقوم يتقون » .

ففي هذه الآيات التفاتات نستوحي منها ضخامة هذا الكون ومشاهده المتنوعــــة .

ففي الشمس ضياء واشعاع وهي تمدنا من بعد شاهق بالحياة .

وفي القمر نور مضيء ، وينظم لنا حياتنا ويحفظ بجذبه مياه بحورنا بنظـــام دقيـــق .

فلو تغير سير الشمس والقمر ولو بمقدار يسيـــر لحلـــت بالارض كارثـــة مهولـــة .

ومن ينضـــج لنـــا الثمار ؟

ومن يمدنـــا بالحـــرارة والـــدفء ؟

ومن يصنع لنا الحياة في أرضنا في كل مرفق منمرافقهـــا حتـــى بالنسبة للجمادات التي تفيد حياتنا ؟

ومن ينظم لنا حساب الشهور والايام والسنين ؟

زيادة على منظرهما البديع في اشراقهما وغروبهما وصعودهما وهبوطهما وكل حركاتهما .

« ما خلق الله ذلك الا بالحق ، نفصل الآيات لقوم يعلمون » .

وكم خلق الله في السماوات والارض من مخلوقات لا تحصى ومن أجرام لا تعد تختلف أشكالها وأوضاعها .

وفي سورة النحل : « وهو الذي سخر البحر لتاكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وألقى في الارض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون » .

وتتحدث هذه الآية عن البحر وعجائبه وما فيه من لحوم شهية طرية وكنوز مغمورة ولؤلؤ ومرجان وصدف ، وعلى مياهه تحملون أثقالكم وتجارتكم من مكان الى مكان فتبتغون بنقلها فضلا من ربكم على بواخر تركبونها تمخر بكم مياه البحر بجمالها وحسن منظرها .

وفي الارض رواسي تحفظ توازن الارض وتزينها بجمال مناظرها .

وفي الارض أنهار عظيمة ظاهرة وخفية تستفيدون من مياهها وحيواناتها وذخائرها .

وفي الارض مسالك وسبل وعلامات كما في السماء علامات بالنجوم تدل على الجهات يهتدي بها السالكون في البر والبحر .

وكل هذا من نعم الله على خلقه كما تقول الآية بعد : « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

وفي سورة الفرقان : وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » .

ان مشهد البحار من الآيات الكونية العظيمة ، والله سبحانه هو الذي مرج البحرين وتركهما متجاورين فيهما مياه عذبة ومياه مالحة ويلتقي العذب

منها كالانهار بالمالح في البحار عندما تصب الانهار الحلوة في البحار المالحة وجعل بينهما حاجزا من الارض حتى لا تفسد ملوحة البحار عذوبة الانهار المتدفقة من العيون والامطار حيث يستفيد منها الناس في حياتهم .

وللبحار مدها وجزرها بنظام محدد يتمشى مع جاذبية قوية من القمر وجاذبية ضعيفة من الشمس .

ولو أن هذه الجاذبية من القمر او الشمس زادت او نقصت عما هي عليه لحلت بالارض كارثة أهلكت الحرث والنسل .

فمدبر الكون دبره على نظامه العجيب وأحكم سيره وفق نواميس معينة يستطيع البشر بمعرفتها ان يستفيد منها فوائد جلى .

وكما للماء العذب فوائده فكذلك لمياه البحار التي هي الاصل للمياه العذبة والتي تتربى فيها الاسماك والاصداف . وفي آية أخرى : « في البحر عجبا » . وكم من العجائب في البحر يعرف الانسان بعضها ويجهل معظمها .

ويقول القرءان في سورة النحل : « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تاكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤوف رحيم والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » .

لقد خلق الله للانسان الانعام ليستفيد منها فياكل لحومها ويشرب ألبانها ويستخرج زبدها ويستدفىء بأصوافها وجلودها وأوبارها وأشعارها، وفيها أنواع أخرى يحمل عليها أثقاله الى البلدان البعيدة ويركب عليها .

والفلاح يدرك هذا المعنى القرآني حق ادراكه ويفهم معنى جمالها عند الاراحة في المساء والسرح في الصباح .

وكما خلق الله الانعام يخلق أشياء أخرى لمصالح الانسان .

ولم يكن الذين نزل عليهم القرءان يعلمون من أنواع المركوب والنقل والزينة الا ما كان موجودا لديهم وقتئذ ، ولكننا اليوم نعرف أشياء وأشياء كادت أن تعفي على ما كان معروفا ، ولذلك يعتبر من معجزات القرءان انه لم يحصر فيما كان معروفا وترك الباب مفتوحا لما علم الله أنه سيوجـــد ، ولكونه يريد أن يفتح العقول للعمل الدائب والاختراع المتواصل .

كما ورد في سورة النحل : « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويـــوم اقامتكـــم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين » .

وجاء فيها : « وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » .

فعلى الانسان أن يفكر في الحياة وخلاياها وذراتها وكيف تسيـــر بنظام محكم اذا اختل اختلت الحياة من أساسها . فكيف تتحـــول المواد التي يلتهمها الانسان والحيوان الى حياة للخلايا فيمتص الجسم خيرهـــا ويقذف بتفلها حاملا معه ميكروبات الجسم وأضراره ؟

وكيف يدر الضرع الالبان المستخلصة من مواد متعددة والتي تخرج من بين فرث وهو العصارة المتبقاة في الكرش بعد الهضم ، ودم وهو ما يذهب الى خلايا الجسم فيغذيها ويقويها لتقوم بعملها الاحيائي .

والعلم الحديث يعرف الكثير مما تحدث عنه القرءان وأرشد اليـــه وهي مكرمة للقرءان سبق بها العلم الحديث وأرشده الى الطريق .

وفي سورة النحل أيضا : « الم يروا الى الطير مسخرات في جـــو السماء ما يمسكهن الا الله ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

وهذا ارشاد للمخلوقين ليتدبروا شأن الطيور وهي تخترق الاجواء محلقة بقدرة كونية تهديها اليها فطرتها ، فهي تطير سابحة في الفضـــاء ، تقطع المسافات الطويلة ، وتعبر البحار والوهاد والجبال والانهار والفيافي والقفـــار .

ان في ذلك لعبرة للمؤمنين المتدبرين لهذا الكــون وما فيــه من نواميس يستطيع الانسان أن يتدبرها ويعرف أسرارها ويقلدها .

وان الانسان الواعي قد استطاع ان يخترع المراكب ويخترق بهـا الاجواء ويقطع المسافات والبحار بسرعة خارقة .

والقرءان بالتفاتاته سباق الى تنبيه العقل البشري ، مخالفا بنظرياته نحلا أخرى كانت تحرم النظر في الملكوت عن طريق العقل ، وتكفر كل من يسلك هــذا المنهــج .

والقرءان يفتح الآفاق للعقل ويرشده ليحقق معنى الخلافة في هـذه الارض التي استخلف فيها .

وفي سورة فاطر : « ان الله يمسك السماوات والارض ان تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده » .

هذه الاجرام والكواكب المنتشرة في الفضاء لا تمسكها اعمـدة ولا تسندها مسانيـد .

من الذي يمسكها حتى لا يختل سيرها فتكون نهاية العالم ؟

من الذي جعل لها نظامها وجاذبيتها بميزان معلوم ؟

من الذي قدر حسابهـا ودورانهـا ؟

من الذي أرشد البشر الى معرفتهـا ؟

أليس القرءان الكريم هو الكتاب السماوي الذي فتح للانسان آفاق معرفتهـا ؟

وفي سورة الفرقان : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا » .

فمن مشاهد هذا الكون الظلال ، والظل يتكون حين تحجب أشعـة الشمس بحاجز ، وفي كل نور يحجبه حاجب .

والآية تشير الى ظل الشمس وهو يتحرك مع حركة الارض فيكـــون أشكالا مختلفة بحسب الحاجز الذي يحجز نورها وبحسب ارتفاع الشمس وانخفاضهـــا .

وكل ذلك بقدرة الخالق الذي لو شاء لجعل الظل ساكنا ، ولكنه شاء أن لا يجعله ساكنا بسبب تحرك الافلاك ودورانها .

وقد خلق الله هذا الكون على نسق منظم ، لو اختل ولم تسر الارض على الشكل الذي تسير عليه لاختلفت الظـــلال .

ولو كانت الارض ثابتة لسكنت الظلال .

ولا يعرف نعمة الظل الا من لفحته حرارة الشمس وأتعبه لهيبها .

فالظل رحمة بالعباد ، ولولاه لهلك خلق كثير .

ففي الظلال وتحركها وتغيرها آية من آيات الله ، ودليل على أحكـــام دوران الافلاك ودقة نظامها .

وقال تعالى فى سورة النحل : « ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ان في ذلك لآية لقوم يعقلون » .

فنعم الله على خلقه لا تحصى ، ومن هذه النعم ما يتخذ من النخيـــل والاعناب خمورا ، ولم تكن الخمر قد حرمت بعد .

وفي عصير العنب والفواكه من المغذيات والفيتامينات الشيء الكثير والاسلام أحل للمسلم كـــل ذلـــك .

والخمر لم تحرم الا لما فيها من التخمير للعقـــل ، فاذا زال منهـــا التخمير عادت عصيرا نافعا لذيذا .

وقال تعالى : « وأوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا

يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآيـــة لقـــوم يتفكـــرون » .

من من تلاميذ المدارس لم يقرأ عن مملكة النحل وغرائبها ونظامهـــا والهامها وانتاجها لاحسن أنواع الطعام وأكثره فائدة للصحة والجسم ، هذه النحل التي تبني مساكنها بهندسة متناهية الدقة والنظام وتفرز بها عسلها الذي تمتصه من عصارات الازهار والفواكه لتركب للانسان دواء حلـــوا مغذيا ولذيذا وشهيـــا .

وتتخذ بيوتها في الجبال والشجر ومما يعرشون ، أي يرفعون مـــن الكـــروم وغيرهـــا .

ويحاول المغرضون من المستشرقين أن يلصقوا بالقرءان أباطيل هو أبعد ما يكون عنها ، ومن بين هؤلاء المستشرق الاستعماري الماكر الدكتور صمويل زويمر الذي قال في كتابه (بلاد العرب مهد الاسلام) : ان الشهد لم يزل معدودا كالترياق في بلاد العرب استنادا الى القرءان والحديـــث ، وقد كانت الاشارة الوحيدة الى الطب في وحي محمد هذه الكلمة الغيبيـــة التي يقول فيها عن النحل : « انه يخرج من بطونها شراب مختلف الوانـــه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون » . وقد كان هـــذا العلاج الوحيد الذي وصفه الله في كتابه .

وقد تكفل علامة الشرق المرحوم عباس محمود العقاد بالرد عليه في كتابه : « ما يقال عن الاسلام فلننقل الكفاية من رده » .

قال : ان الدجل المتعمد ظاهر في قول العلامة الغبي : ان القرءان حصر الطب كله في دواء واحد هو الشهد ، فان المعنى الذي تفيده الآية بغير لبس ولا محاولة ، ان الشهد شفاء ، ولم تقل انه كل الشفاء ، ولا انه شفاء من جميع الامراض ، فان وصف الشهد بهذه الصفة لا يزيد على أنـــه دواء من الادوية كما يوصف أي عقار من العقاقير في الصيدليات .

ومثل هذا الادعاء التبشيري لا يعتسف اعتسافا على هذه الصورة الا للافتراء المتعمد طمسا للحقيقة مع سوء النية ... لم لا يكون الشهـــد دواء من الادوية وهو خلاصة اعشاب وأزهار ؟ ان علاج الامراض بالاعشاب

والازهار قديم جدا في كل أمة وهو قوام العلاج اليوم في أكثر الادوية التي يصفها الاطباء العصريون لضروب شتى من الامراض وتستحضرها معامل الكيمياء في بلاد الحضارة ...

وبعد وفاة زويمر ببضع سنوات ظهر باللغة الانجليزية كتاب عن الطب الطبيعي للدكتور جارفس الطبيب المتخرج من مدارس الطب الحديث يقول مؤلفه عن الشهد ما كان زويمر يدعيه على القرءان الكريم ، ويعقد المؤلف لخصائص الشهد الطبية فصلا مستقلا يوشك ان يجعله صيدلية وافية تغني عن عشرات من العقاقير ... وهو لا يعلل فائدة الشهد في العلاج بالبركة ولكنه يعلله بأسباب علمية يتعمدها الاطباء والصيدليون في تحضير الادوية وتقسيمها على حسب الجراثيم التي تحدث الامراض او تضاعف أضرارها .

ويقول في تمهيدات فصل مطول كتبه عن الشهد خاصة : انه لا يتكلم عن نظرية معروضة للامتحان بل يقرر التجربة المحققة التي أثبتت ان البكتريا لا تعيش في الشهد لاحتوائه على مادة البوتاس ، وهي تحرم البكتريا تلك الرطوبة التي هي مادة حياتها .

ثم استطرد المؤلف الى بيان المواد الغذائية الموفورة في الشهد وخصائصه النافعة للعلاج ، ولم يذكر في سائر الفصول دواء طبيا آخر ، له مثل هذه الخصائص ، أو لخصائصه مثل هذا الثبوت بالتجارب الواقعة وتجارب المعامل والمشتغلين بالتطبيب ...

وفي سورة الحديد : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب أن الله قوي عزيز » .

فقد خلق الله الحديد وجعل فيه بأسا وقوة ومنافع للناس .

والقرءان هنا ينبه البشر الى ما في الحديد من المنافع الكثيرة والفوائد المهمة في السلم والحرب .

وتأتي هذه الآية في معرض الكلام عن ارسال الرسل وانزال الكتب معهم المشتملة على أحكام الحق والعدل ليقوم الناس بالقسط .

واقام العدل يحتاج الى سلطة ، والسلطة تحتاج الى قوة ، والقوة تصنع سلاحا من الحديد . ولا تستقر المبادىء الا اذا وجدت قوة تنصرها .

ومن يستطيع ان ينكر ما للحديد من فوائد للبشرية قاطبة في نهضتها العلمية الحاضرة ؟

وفي سورة البقرة : « يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج » .

وكان المسلمون على عهد نزول القرءان يسألون عن مظاهر كونية يستطلعون حقيقتها ، وجواب القرءان على اسئلتهم يهدف قبل كل شيء لما يمس الدعوة الاسلامية .

ومن الظواهر التي سألوا عنها مظهر الاهلة التي تبدو في رؤية البصر دقيقة ثم تكبر حتى تصير بدرا ثم تاخذ في التراجع حتى تصبح هلالا ثم يلحقها المحاق ثم تعود أهلة ، وهكذا دواليك .

وهم في نهضتهم القرآنية العقلية يريدون ان يفهموا الاشياء بدقة ويمعنوا النظر فيها لادراك أسرارها .

وكان النبي محمد (ص) لا يستقبح منهم أسئلتهم وتفتحهم على الوجود وما فيه من أسرار ومعه القرءان يرشدهم وياخذ بيدهم ويشرح لهم .

وصيغة سؤالهم وردت في الروايات على شكلين : اما انهم قالوا في صيغتها : يا رسول الله لم خلقت الاهلة ؟ . أو قالوا : يا رسول الله لم تبد الاهلة صغيرة ثم تكبر ثم تتناقص ؟ .

فعلى السؤال بالصيغة الاولى يكون جواب القرءان مطابقا لسؤالهم ، فهي هكذا لكونها مواقيف للناس والحج تؤقت لهم أوقاتهم وتحسبها لهم ليضبطوا الزمن وأوقات العبادات وايؤرخوا بها معاملاتهم وجميع ما يهم حياتهم .

وعلى انه كان على الصيغة الثانية يكون الجواب القرآني ملفتا نظرهم الى ما يجب عليهم أن يسألوا عنه مما يمس صميم الدعوة وهي تهتم بارشادهم الى ما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة من عبادة وعمل ثم عليهم بعد ذلك ان يطلبوا العلم الخاص بالفلك في العلوم التي تهتم بالفلك لكون القرءان ليس كتاب علوم الا بقدر ما يمس الدعوة التي نزل من أجلها .

وليس من واجبات القرآن أن ياخذ في شروح علمية معقدة تحتاج الى بيانات ضافية ومعلومات حسابية دقيقة .

وشأن القرءان أن يهتم بما هو أسما من ذلك ، وهو التكوين الانساني الذي يعتبر من المسائل العويصة والمشاكل المحيرة .

وقد استطاع العلم أن يحل كثيرا من المشاكل العلمية ، ولكنه ما زال لم يحل مشكلة الانسان الغامضة .

ويشرف القرءان انه لم يهتم بمشاكل العلم التي تتغير نظرياته مع التقدم الحضاري والعلمي وترك الناس في ذلك أحرارا ليستعملوا عقولهم ومواهبهم .

ويخطىء كل من يحاول أن يجعل من القرءان كتاب علوم مستندا على ما ورد في احدى آياته : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » . وهي آية لها معناها ودلالتها في شؤون الدعوة والاحكام والتوجيه .

فعلى المسلمين أن يتركوا القرءان يسير في طريق هديه الذي منه أن ياخذوا بالعلوم وما فيها ، وأن يستعملوا عقولهم ومواهبهم كما يشاءون ، وان يستخرجوا من الكون كل ما استطاعوا استراجه مما يفيدهم ويقويهم ويدفع بهم الى مصاف الدول المتقدمة ، مع ايمانهم بأنه لا منافاة بين هدي القرءان وارشاده وبين الخوض في ميادين العلوم على اختلافها .

ومن الانتكاسات الانسانية في عصرنا أن الناس أصبحوا يظنون أن كل شيء يجب أن يخضع للعلم والتقنية ، وغاب عنهم ان الانسان كانسان ليس آلة جامدة بل انه يحمل معنى من السمو الانساني ، يريد القرءان أن يفهمه للانسان ليسعد نفسه واخوانه في الانسانية .

ولا يستطيع مفكر اليوم ان يجادل في ان العلم وحده مجردا عن المعنى الانساني لا يقدر على تحقيق معنى الخلافة التي جعلها الله للانسان في هذه الارض وأوضحها القرءان في آياته .

وفي سورة النحل : « وما ذرأ لكم في الارض مختلفا ألوانه ان في ذلك لآية لقوم يذكرون » .

لقد خلق الله للانسان في هذه الارض أشياء مفيدة له من معادن ومياه وأحجار وذخائر كثيرة ، فما عليه الا أن يستخرجها ويعلم فوائدها وكيفية استعمالها ، وفي ذلك آية لقوم يذكرون .

وفي سورة يوسف : « وكأي من آية في السماوات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

والقرءان يسلك دائما مسلك ارشاد البشر الى التفكير والنظر في ملكوت السماوات والارض ، وفي جميع الالتفاتات القرآنية مغزى يدل على ما لهذا الدين من اتجاه منطقي سليم .

واذا كان القرءان يوجه الانظار في مقام الدعوة الى ملكوت الله فهو يفعل ذلك حتى لا يظل البشر في غفلة عن الكون وما فيه من أسرار هذا الكون المملوء بالمخلوقات على اختلافها ، فكم فيه من معادن ونباتات وحيوانات ومياه وطيور وأجواء ودواب وحشرات وكهرباء وذرات وهوام وغير ذلك مما لا يحصى .

فهل يحق للانسان أن يمر على هذه الموجودات كلها ولا يتدبر أمرها ودخائلها وخاصياتها وهي بارزة أمامه ماثلة لعينيه وعقله وتفكيره .

وعلى نسق هذه الآية تمضي سورة الرعد فتقول : « بسم الله الرحمن الرحيم المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل اليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ان في

ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفي الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

ثم تمضي السورة فتقول : « هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال».

أما بعد ، فالذين يفسرون القرءان يسلكون مسلكين في تفسيره ، طائفة تحبذ تفسيره عن طريق علمي ، وأخرى لا تريد ان تخرج به عن المفهوم الذي كان يفهمه العربي من اللفظ الذي خاطبه القرءان به .

ونحن وان كنا نقرر أن القرءان ليس كتاب علم بالمعنى المصطلح عليه ولكننا نجده يحض على استعمال العقل والتأمل والتدبر والتفكير ويشين التقليد الاعمى والجمود ولا يقف في وجه العلم والمعرفة .

ومن المسلم ان القرءان ليس قرءان العربي الذي عاش في عصر النبوة وانما هو قرءان البشرية كلها بعقولها واتجاهاتها ومعارفها وعلومها.

والقرءان عند ما يدعو الى استعمال العقل يدخل في حسابه هذه البشرية المختلفة المتباينة السلوك والرأي والميول والتقدم والحضارة .

والقرءان لا يغلق لنا تفكيرنا ولا يريد منا ان نكون كالعربي الذي عاش في عصور لم يكن فيها علوم كالعصر الذي نعيشه اليوم .

والقرءان منطقي في كل ما أتى به ، فهو عند ما يدعونا الى التفكير يريد منا أن يكون تفكيرنا متحررا لا يشبه تفكير قوم عاشوا في ظروف خاصة بهم ، وليس من المقبول ان تفكر الانسانية كلها على نسق واحد في جميع الازمان ، وليس معنى هذا أننا ندعو الى الخروج عن فهم نص القرءان الى التأويل ، فهذه مفسدة ما بعدها مفسدة ، وانما ندعو الى تجديد فكرنا ومفاهمنا حسب العصر الذي نعيشه لنسير بالقرءان ومعه في عصر اختلفت فيه المفاهيم وتضاربت الى أقوم السبل وأجلاها .

ومن معجزات القرءان أنه قادر كل القدرة على المضي في مسيرته الخالدة لو وجد من يفهمه حق فهمه ليكون سراجا منيرا للبشرية اليوم كما كان لها في الماضي .

وليس من مصلحة الدعوة القرآنية أن ندعي لها نظرية علمية محددة ونحن نعلم ان النظريات العلمية تتغير فنضطر الى تغيير تفسيرنا كما غير اليهود والنصارى كتبهم لاسباب أخرى غير النظريات العلمية التي نتحدث عنها .

فلو حدد القرءان نظرية علمية معينة لوجب الايمان بها ، وهذا ليس من شأنه ، لانه لا يحدد النظريات العلمية بالتعاريف العلمية .

ومنش القرءان جل وعلا لا تخفى عليه خافية ، وقد وجه بالقرءان التوجيه السليم الذي أراده للبشرية التي فتح لها باب التفكير واستعمال العقل ونبهها الى عجائب الكون وكوامنه .

والقرءان لا يعلق ايمان المؤمن على تفسيرات علمية متغيرة تجعله يغير ايمانه كلما جد لديه جديد من النظريات العلمية التي لا يستقر لها قرار ، فتتغير بحسب البحوث والازمنة والعصور .

العمـــــــــــــــل

يريد القرءان أن يؤسس أمة عاملة سعيدة بناءة يعيش الفرد فيها في رخاء وطمأنينة وسلام ، أمة قادرة بكدها المتواصل وسواعد بنيهـــا على التصرف في ملكوت الله الذي خص به عباده ليمشوا في مناكبه ويأكلــوا من رزقه ويتدبروا كل ما فيه .

ففي الارض متاع أباحه الله لخلقه بوصف خلافتهم في الارض ومهد لهم سبل العمل والتصرف في الطبيعة ومنحهم عقولا قادرة على استيعاب أسرار الطبيعة وأرشدهم الى التدبر في العوالم الاخرى .

قال تعالى في سورة البقرة : « الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » .

وبدون عمل لا يستطيع المسلمون ان يحققوا الرسالة التي أناطهـــا القرءان بهم ، وقد قال رسول الاسلام (ص) : (ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن ياكل من عمل يده . وقال : لان يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل احدا فيعطيه او يمنعه) .

فالمسلم الذي لا يعمل مآله الافلاس والتشرد ، والتقاعس عن العمل رذيلة ، والسؤال خسة ، والكسب من آكد واجبات المسلم .

ويتحمل المسؤولون المسلمون وزر البطالة ، اذ عليهم أن ياخـــذوا بيد العاجزين معتمدين في ذلك على مداخيل معينة قررها القرءان الكريم .

ونعرف من أحوالنا الاجتماعية أن من ألف التسول واراقة ماء وجهه في الطلب ، صعب عليه الاقلاع عن هذه النعرة التي أصبحت حرفة تزرى بمجتمعاتنا الاسلامية .

ان الاسلام يمدح العمل ويرغب فيه ويذم الكسل ويطعنه ، وقد رأى النبي (ص) يد عامل ورمت من العمل فقال : هذه يد يحبها الله ورسوله .

والاسلام من السباقين للدفاع عن حقوق الضعفاء والفقراء والعمال ، لان بناء المجتمعات يقوم على أكتاف هذه الجماعات وبعملهـــم تتحقـــق السعـــادة والرخـــاء .

ان مبادىء القرءان تناقض كل احتكار واستغلال ، والاحتكار فظيع ، والاستغلال شنيع ، لانه يسخر الجماهير الكادحة ويستعبدها بدون رحمة ولا هـــــوادة .

والاسلام يعطف على الضعيف والفقير ولا يرضى لاهله الفقر والضعف، ويريد من المسلم في حالة ضعفه وفقره أن يكون عزيز النفس عالي الهمة، لا يقبل الذل والهوان ، وقد كان النبي (ص) ينهي أصحابه عن أن يكونــوا أذلاء ، لان المؤمن قوي بايمانه .

وما منيت أمة بنظام الاحتكار والاستغلال الا وكان الشقاء حليــف الاغلبيــة فيهــا .

والشره الرأسمالي باب من أبواب المغامرة المحرمة التــي تجعــل صاحبها لا يبحث من اين اكتسب ولا كيف اكتسب .

قال تعالى في سورة الاسراء : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عــدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا » .

يمحو الله ظلام الليل الذي جعله للسكون والراحة ، ويجلو النــور الذي جعله للعمل والكد لتبتغوا فضلا من ربكم وتعملوا من أجل رزقكــم واسعادكــم .

وبتقلب الليل والنهار تعرفون عدد السنين والشهور والايام والفصول لتضبطوا أعمالكم وتقدروها .

فالقرءان لا يسمح للمسلمين بأن يعيشوا في فوضى عارمة كانت من الاسباب التي طوحت بهم في مجاهيل الجهل والتأخر والجمــود وسرت بينهم مقالات قدرية لا تماشي ضوابط القرءان ونظامه ولذلك تقول الآية : « وكــل شيء فصلنــاه تفصيــلا » .

فلم يترك الامور للصدفة وانما نظمها تنظيما محكما وفصلها تفصيلا بينــا دقيقــا .

وآيات الله في الكون اكبر دليل على هذه الدقة المتناهية وما ترشد اليه من نظــام وترتيــب .

وقال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » . فقد أرسل الله الرسل مرشدين وختم رسالتهم بالقرءان الذي جعل العمل من أسس مبادئه .

فليتحمل كل مسلم مسؤوليته من عمله وليتدبر أمره ، فاذا اهتدى فلنفسه ، واذا ضل فعليها ، ولم يواخذ الله أحدا الا بعد ان أوضح معالم الطريق ، ولم يمت رسول الاسلام (ص) حتى قال : (تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك) .

وتزيد الآية فتقول : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

ان المسؤولية في العمل ثابتة ، ولا يحيق المكر السيء الا بأهله ، وكل الذين يقصرون في العمل لا يلومون الا أنفسهم .

وان المنحرفين عن جادة الطريق الكافرين بأنعم الله المخالفين لاوامره المتخذين من الترف والنعيم مطية للعبث واللهو والمجون والافساد والاضرار والفواحش حتى ارتخت انسانيتهم وسقطت أخلاقهم وهلكت حيويتهم ، لا يرجى منهم خير ولا صلاح ولا نفع ، هؤلاء يمهلهم الله ، ولكنه لا يهملهم حتى يضربهم الضربة القاضية ، وحتى يصيبهم بالدمار والخراب والهلاك .

أما غير المترفين فيتحملون مسؤوليتهم أيضا لكونهم لم يتدبروا الامر وخضعوا وضعفوا وجبنوا وانساقوا لاصحاب الترف والجاه .

والعبرة من هذه الآية كبيرة فهي تظهر أن أصحاب الثراء هم الذين يخربون الضمائر ويفسدونها ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه ، لان ترفهم جعل منهم طغاة ومستبدين وفجارا وفساقا وظلمة وماكرين ، ومن أجل هذا نجد القرءان يتخذ قراره في المال ولا يسمح بتكوين طبقة المترفين ، لتسلم الامة من غضب الله الذي يعقب السفاهة والتحلل والارتكاس في الرذائل والشهوات .

فليتدبر المسلمون هذه الآية جيدا وليضربوا على أيدي المترفين المستغلين المنحلين حتى لا يحيق بهم العذاب .

التشريـــــــع القرآنـــــــي

أخذ القرءان يوطد تشريعاته بعد نجاح الدعوة نسبيا ، ثم سار يخطو بها خطوات متئدة رزينة وهي تبني دولة وتؤسس نظاما متكاملا بلغ غايتـه وحقـــق آمالـــه .

والقرءان في تشريعه ينظم العلاقات بين الناس مع بعضهـم ويربط العلاقة بين الخالق والمخلوقين .

وقد حقق التشريع القرآني تنظيم مجتمع مثالي يسير حسب المصالح العامة ويوطد العلاقات بين أفراده في اطار أخوي .

والتشريع القرآني سلك مسالك التدرج في تشريعه ، أما بالنسبـة لاصل العقيدة فانه لم يسلك التدرج وانما أعلن العقيدة من أول وهلة لكونها اساسية بالنسبة لما عداها .

ويضع القرءان في تشريعه الاسس العامة للشريعة الاسلامية ، ويترك الجزئيات للمستنبط منه الذي عليه ان يستنبط وفق مقاصد الشريعة .

ويتميز التشريع القرآني بمرونته وبعدم الحرج وبكونه عمدة أصيلة بالغة للتشريع الاسلامي على العموم .

ويرمي التشريع القرآني الى احترام كرامة الانسان والمحافظة على حريته وحقوقه واقامة العدل بين أفراد المجتمع واحترام العهود والمواثيق والاعراض والاملاك والنفوس والارزاق .

وتستطيع تشريعات القرءان أن تستوعب كل ما يطرأ ويحـــدث اذا وجدت من يفهمها ويضعها في مكانها .

والتشريعات الوضعية ليست أوفق للبشرية من التشريعات القرآنية وهي رغم سموها تمتاز بالتسامح والتخفيف واليسر ونبذ التشديد والمشقة والضيـــق والاحـــراج .

ولننقل مقتطفات من تشريع القرءان كتوضيح لقوته وقابليته وتحرره ويسره وصلاحيته ، لان يحتل أسما مكان بين بقية التشريعات الوضعية .

فقد أباح القرءان للناس أن يتنعموا بطيبات الارض وأرزاقها ولم يستثن من ذلك الا أشياء قليلة جدا لما فيها من الضرر او الفساد ، قال تعالى في سورة البقرة : « يا أيها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيبا » . وقال : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله ان كنتم اياه تعبدون انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم » .

فهذه الآية تحدد المحرمات في أشياء يسيرة وتجعل ما سواها حلالا.

ولا يجهل ما في الميتة والدم المسفوح من الاضرار زيادة عن كون النفس تأنف من تناولهما .

ويوجد في الخنازير دود مضر اكتشفته الميكروسكوبات الحديثة مما جعل المشرفين على الصحة العمومية في بعض الدول التي تتناول الخنازير يقررون عدم تناولها الا بعد طبخها في حرارة مرتفعة .

ويحرم القرءان على المسلم تناول ما أهل به لغير الله لكون العقيدة الاسلامية تعادي الوثنية في جميع أشكالها ، وللقضاء على الوثنية يجب القضاء على كل ما تقوم عليه من قرابين .

ولا يرى القرءان مانعا من تناول الممنوع عند ضرورة حفظ الحياة من الضياع ، ولكن بقدر الحاجة .

وورد في سورة البقرة : « يسألونك عن الخمر والميسير قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما »

فلم تكن الخمر محرمة في أول الاسلام ولم يحرمها القرءان دفعة واحدة تمشيا مع قاعدته في تدريج التشريع وكذلك بالنسبة للميسر .

ولكون الخمر والميسر يحدثان شرورا كبيرة في المجتمع حرمهما القرءان اخيرا تحريما باتا قاطعا بعد ان استأنس الناس بمقاصد الشريعة

الاسلامية وما ترمي اليه من تحريم كل مخرب للحياة ماديـــا ومعنويـــا . وهذه الآية تعتبر خطوة أولى في لفت الانظار الى مفاسد الخمر والميسر .

ثم جاءت المرحلة الثانية في آية سورة النساء : « يا أيها الذيـــن آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » . وذلك لعظم شأن الصلاة ومكانتها في نفس المسلم الصادق . ومن شأن المسلم أن يصلي خمس مرات في اليوم فيعسر عليه ان يتعاطى للمسكر وهو ملزم بالصلاة في وقتها ، وكانت هذه الالتفاتة الثانية أشد من الاولى ، ولا شك أن المسلمين تنبهوا لهـذا فأقلع كثير منهم عن تعاطي الخمر .

ثم كانت المرحلة الاخيرة في آية سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضـــاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » .

وبذلك منع على المسلم تعاطي هذه المحرمات المشينات .

ويصبغ القرءان على الزواج صبغة قدسية عميقة المعنى رفيعة الشأن وسمى عقدة النكاح ميثاقا غليظا حيـــث قال تعالـــى في سورة النساء : « وأخذن منكم ميثاقا غليظا » . وقال في سورة الروم : « ومن آياتـــه أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » . وقال في سورة البقرة : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

وقال : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مومنة خير مـــن مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من شرك ولو أعجبكم أولئك يدعون الى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » .

ولما كان الزواج من أقوى الروابط التي يرعاها الاسلام في نظـــام الاسرة المسلمة قبله القرءان بين طرفين مؤمنين بالله ليمكن له ان يثمـــر ثمرة طيبة ، ومنعه بين مسلم ومشركة أو بين مشرك ومسلمة ، كما منع أن تنكح المسلمة لاي كافر ليس بمشرك حفظا لكرامة المراة المسلمة .

وقد وجدت ظروف خاصة في أول الاسلام تركت الانكحة الجاهلية قائمة بين المسلمين والمشركين ، ولكن لما ثبت الاسلام وجوده في المدينة قطع دابر الانكحة التي لا تتفق وشرف الاسلام ليخطو بجماعته الخطوات التي يريدهـــا .

وتقول الآية : « اولئك يدعون الى النار والله يدعـــو الى الجنـــة والمغفرة باذنه » . ولن يلتقي اتجاه يدعو للشر والكفر واتجاه يدعو للخير والايمـــــان .

وقد أظهرت الوقائع ان الكفر ملة واحدة وصدق القـــرءان وكـــذب المبطلـــــون .

ولو أردنا أن نحلل ايمان الطائفتين الكتابيتين اللتين أحل الله للمسلمين أن ينكحوا نساءهما لما ترددنا في القول بأن معظم الكتابيين لا يتمسكـون بالكتب السماوية الحقيقية بقدر ما يتمسكون بأباطيل ما أنزل الله بها من سلطان ، ومع ذلك لا نريد قطع الاتصال الزوجي بين المسلمين والكتابيين، وان كنا نراه مفسدة اجتماعية خطيرة وبالاخص في هذه الظروف الصعبة التي يجتازها العالم الاسلامي .

وليس في نصوص القرءان ما يجيز زواج المسلمة بالكتابي مهما كانت الظروف ، وكل حكومة اسلامية تسكت عن زواج الكافر بالمسلمة فانهـــا آثمة لا محالة ومفرطة في كتاب الله .

وفي سورة البقرة : « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فاتوهن من حيث أمركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

فيحرم القرءان على المسلم ان يباشر زوجته في حالة المحيـــض لكونه أذى للصحة ، ويحرم على المسلم أن يؤذي صحته .

والمرأة في حالة الحيض تكون في ظروف استثنائية نفسيا وعصبيا وجنسيـــا .

والقرءان لا ينظر للذة الجنسية من حيث كونها لـذة فحسب بـل لما ينبني عليها من تعمير للارض التي استخلف الانسان فيها ، فعلى هذا الانسان المستخلف في الارض أن يترفع عن الحيوانية الضارية ليكـون انسانا كريما كما أراده الله ان يكون .

ويقو تعالى في سورة البقرة : « للذين يولون من نسائهم تربص أربعة أشهر فان فاءوا فان الله غفور رحيم وان عزموا الطلاق فان الله سميـع عليـم » .

فاذا وقع بين الزوجين ما جعل الرجل ينقطع عن مباشرة زوجتـه ويتخذ من الايلاء مسلكا له فان القرءان لا يترك الزوج يتصرف كما يشاء ، بل حدد للايلاء أمدا ينتهي اليه وهو أربعة أشهر وهي مدة كافية في التقاطع الزوجي الذي لا يمكن ان يستمر اكثر ، وهي مدة اختبار عسى ان يتراجع كل من أساء الى السير في طريق الزوجية الصحيح .

والايلاء اما ان يكون بسبب تعنت الزوجة فيقاطعها زوجها عساها ان ترجع عن تعنتها ، وحينئذ لا يسمح للزوج بالاستمرار في المقاطعة أكثر من المـدة المحـددة .

وأما اذا كان ايلاؤه مجرد ايذاء للزوجة فلا يسمح له بالتعـدي على حقوقها الزوجية والحاق الضرر بها .

وفي الحالتين اما أن يعود الزوج لاستئناف حياته الزوجية العادية بعد المدة التي قررها القرءان واما ان تحل عقـدة الزواج بينهما بطـلاق اختياري أو اجباري .

وفي الحالات المعروفة ان بعض النساء قد يحاولن احراج أزواجهن فيعمل الزوج على دفع الحرج بالحرج ، ويتخذ من الايلاء طريقا ، فجعـل القرءان نهاية الايلاء اما التفاهم والتصالح واما فك العصمة الزوجية .

وفي بعض الحالات يكون الاحراج من جانب الزوج لقصد سيء فيقطع عليه الشارع قصده بايقاع الطلاق ، ولا يسمـح له بتحقيـق مطامعـه الخسيسة .

وان كل زواج لا يبنى على المكارمة فمن الاصلح ان يفسخ ليفسح المجال لكل طرف كي يستأنف حياة جديدة قد يسعد فيها .

والقرءان لا يقبل أبدا تعليق الزواج مهما كانت الاسباب والظروف ، فاما زواج شرعي كريم واما فرقة كريمة لا ضرر فيها ولا ضرار .

وفي سورة البقرة : « الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان ولا يحل لكم ان تأخذوا مما آتيتموهن شيئا الا ان يخافا الا يقيما حدود الله فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » .

الطلاق شيء قرره القرءان اذا دعت اليه الضرورة ، وقد قال (ص) : « أبغض الحلال الى الله الطلاق » .

وجعل القرءان الطلاق مرتين ، عسى أن يؤوب الزوجين الى رشدهما وتفاهمهما ليستأنفا حياتهما في ظل السعادة والهناء . فاذا لم يتحقق ذلك وحصل الطلاق مرة أخرى فان الزوجة تحرم على زوجها الى ان تنكح زوجا غيره نكاحا صحيحا غير مشبوه وتطلق طلاقا طبيعيا غير مشبوه ولا تراجع فيه ، وحينئذ يمكن للزوج الاول أن يستأنف معها حياة جديدة ربما تغمرها السعادة والوفاء .

والطلاق مستبشع من الوجهة الاسلامية ، ولكنه قد تكون فيه مصلحة اجتماعية لا سبيل الى تجنبها تحقيقا للسعادة البيتية اللازمة .

وليس في العلاقة الزوجية سوى وجهين لا ثالث لهما ، فاما امساك بمعروف واما تسريح باحسان .

ويحرم القرءان على الزوج ان يسترد شيئا من الصداق الذي كان اصدقه الى زوجته او شيئا مما أنفقه عليها في ايام ارتباطهما مقابل تسريحها ، ولكن اذا رغبت الزوجة في مفارقة زوجها فلها ان تطلب طلاقها بتعويض وهو ما يعرف في كتب الفقه بالخلع ، وتنص الآية على عدم الاعتداء في التعويض ، لان الاعتداء ظلم شنيع .

ويمنع القرءان الاضرار بالزوجة فيقول في سورة البقرة : « واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن ان ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

فالزواج عصمة بمعروف ، فان لم يمكن فتسريح بعدل بدون اذاية ولا اعنات ولا ضغينة .

وقد حرر القرءان المرأة من كل قيد جاهلي فيه اضرار بها ومنحها حقوقها لتعيش في ظلال الاسلام حرة كريمة سليمة من القيود التي تغل الحرية والكرامة .

فاذا وقع طلاق بين زوجين وقرب انتهاء أمد العدة ، فاما أن تحصل رجعة بين الزوجين على كتاب الله وسنة رسوله واما أن تترك المرأة الى نهاية المدة لتبين .

ولا يجوز للزوج أن يؤذيها ولو بالدعاية والتقول أو يعضلها عن الزواج بأي نوع من أنواع الاعضال نكاية لها ، كما لا يجوز له أن يسترجعها ليضربها او يمكر بها .

وهناك جانب مهم يجب الالتفات اليه وهو الاولاد ، فلهم حظهم في المسألة ، فمن سوء التصرف الاضرار بزوجة ارتبطت مع زوجها بأولاد ، لان ذلك يفسد حالهم ويهدم مستقبلهم .

وفي سورة النساء : « وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم الا تعدلوا فواحدة او ما ملكت ايمانكم » .

فقد اباح القرءان للرجل ان ينكح أربع نسوة ، وقيد ذلك بقيد العدل الذي يصعب تحقيقه ، ولذلك جعل واحدة هي الزواج الذي يمكن للرجل ان يعدل فيه عدلا كاملا ، وبهذا أبطل القرءان ما كان شائعا في الجاهلية من تعدد الزوجات بدون حدود ، فجعل لذلك حدا لا يمكن تجاوزه وحتى لا

تهان كرامة الزوجات وحتى لا يصبح الزوج كحيوان جنسي الاجدر بـــه أن يكون في قطيع من البقر او الغنم .

فالتعدد رخصة تستعمل مع العدل ، فاذا انعدم العــدل انعدمـــت الرخصـــــة .

وأعتقد أن القرءان كان حكيما في تشريعه هذا ، فهو لم يمنع التعدد لكون الحاجة قد تدعو اليه ، ولكن قيده بقيد قل أن يتوفر ليجنب المسلمين مآزق التعدد وأخطـــاره .

والقرءان بطبعه ينسجم مع الاحوال والازمان ويسارها بدون تفريط ولا افـــــراط .

وحكمة التعدد عند الاقتضاء فيها انقاذ للمجتمع من الوقوع في براثن الفسق الذي لا يرضاه القرءان المسلمين ويتجلى ذلك في الدول التـــي تمنع التعدد فتصاب المرأة بعاهة تضطر الزوج الى اللجوء لامرأة اخـــرى ونسقط من الحساب القيم الغربية الحالية في مجتمع جاهلي بكل ما تحمله الجاهليـــة من معنـــى .

وما ذا تفعل المجتمعات التي يزيد فيها عدد النساء عن الرجال ؟
هل لا يكون التعدد من وسائل حفظ الاخلاق والكرامة من وجهة النظر القرآنية لا من وجهة النظر الغربية التـــي ارتكست فـــي بـــؤرة الفسق والفجـــــور ؟

والقرءان لا يتحمل جريرة المسلمين اذا انحرفوا عن أهدافه الحقيقية فللقرءان وجهة نظره ، ولكن يجب أن تفهم هذه الوجهة من جميع الجوانب، واذا فهمناها استطعنا أن نصل الى مقصد القرءان في تشريعاته .

وما هو العدل الذي يقصده القرءان في المعاشرة ؟

انه عدل عام في النفقة والعشرة والمعاملة وكل ما يتصل بذلك .

ويسقط القرءان من الحساب ما لاقدرة للانسان على تجنبـــه مـــن الميولات القلبية التي لا يقبل ان يتدخل التشريع في شأنها والتـــي يقول

عنها القرءان : « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة .

ومهما انتفى العدل وجب الا يتزوج المسلم غير واحدة .

والقرءان ينظر الى العلاقات الزوجية على أنها مودة ورحمة وتعاطف،لا نزوة حيوانية بهيمية جنسية محضة . وفي سورة النساء « وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تاخذوا منه شيئا اتاخذونه بهتانا واثما مبينا وكيف تاخذونه وقد افضى بعضكم الى بعض واخذن منكم ميثاقا غليظا » .

حقا انه ميثاق غليظ ، لايمكن التلاعب به والاستهانة بحرماته .

وفي سورة البقرة : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن اراد ان يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس الا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وان أردتم ان تسترضعوا اولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا ان الله بما تعملون بصير .

فاذا وقع الطلاق وانتهت الحياة الزوجية بين زوجين وكان لهما أولاد فان القرءان قد بين حكم هؤلاء الاولاد الرضع ، ولم يتركهم عرضة للصدف والاهواء ، فهم لا ذنب لهم فيما وقع بين والديهما ، ومن الاضرار بالمجتمع أن يتركوا عالة تذروهم الرياح خصوصا اذا كانت خصومة الابوين قد بلغت حدا من القسوة والعنف فنزعت الرحمة من قلوبهما وهو شيء قد يقع .

ففرض القرءان على الام رضاع ولدها حولين كاملين لمن أراد ان يتم الرضاعة وهي المدة التي يقدر فيها الطفل على العيش بدون رضاعة ، وتعتبر أقصى مدة ، ويفرض في مقابل ذلك على الاب الرزق والكسوة بالمعروف .

ولا تضار والدة بولدها ولا مواود له بولده ، فالام ترضع ولدها بدون استغلال للاب ، والاب ينفق بدون ان يستغل حنان الام ليضغط عليها حتى ترضع الولد بدون مقابل .

وتنتقل واجبات الاب الى ورثته فيما اذا توفي محافظة على حقـوق الولد . فلو وقع الاتفاق بين الوالدين او الوالدة والوارث على افطام الطفل قبل المدة المحددة ، ولم يكن في ذلك ضرر فلا جناح في ذلك .

ويمكن للاب أن يستأجر مرضعة لولده اذا اقتضى الحال ذلك .

وفي سورة البقرة : « ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم لا يواخذكم الله باللغو في أيمانكـم ولكن يواخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم » .

ينهي القرءان المسلم ان يجعل الحلف بالله مانعا من فعل الخيـر والمعروف والاصلاح بين الناس ، ويقرر ان الله لا يواخذ باللغو في الايمان وهو ما يجري به اللسان عفوا من غير قصد . ولا يواخذ الا بما كان قصدا فجعل الكفارة في اليمين المعقودة التي ينوي الحالف أخذ أو ترك ما حلف عليه ، وفيها يقع الحنث والكفارة . وكل يمين تعلقت بشيء فيه امتناع عن فعل خير او فيها حلف على الاقدام على شر يجب الحنث فيها .

قال ابن عباس : (لا تجعلن عرضة يمينك الا تصنع الخير ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير) .

قال (ص) : (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عـن يمينه وليفعل الذي هو خيـر) .

وقال : (اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيتـه كـلا واللـه وبلـى واللـه) .

ويختلف الفقهاء فيمن حلف على شيء وهو يعلم انه كاذب هل عليـه كفـارة أم لا .

أما اليمين التي يحلف بها الشخص ليقتطع بها مالا او حقا فهي يمين حذر الشرع منها لكونها مظهرا كاذبا للاغتصاب ، فصاحبها مجرم وفاسق .

وفي سورة البقرة : « ولا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتاكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وانتم تعلمون » .

فيحذر القرءان من أكل أموال الناس بالباطل بأي وجه من الوجوه ، بل أن من الناس من ياكل اموال الناس بالباطل ويلحن بباطله ويغالط بـه عند الحكام ليحكم له و هويعلم انه ظالم . وقد قال النبي (ص) : أمرت ان أحكم بالظاهر . وقال : انما أنا بشر وانما ياتيني الخصم فلعل بعضكم ان يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له ، فمن قضيت له بحق مسلم فانمـا هي قطعة من نار فليحملها او ليذرها .

وفي نفس السورة : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في نفسه وهو ألد الخصام واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم وبئس المهاد » .

ان من الناس من يعجبك قوله بذلاقة لسانه وبتظاهره ولكنه منطو على الشر ، ويفتضح تظاهره وشره عند ما يدعى الى الحق فيمضي في طريقه الملتوي حتى يهلك الحرث والنسل كلما وجد الى ذلك سبيلا .

فالقرءان يحذر من الاشرار المتقمصين صورة غير صورتهم حتى لا يشك أحد في تقواهم ، فظاهرهم مخالف لباطنهم ، لا هم لهم الا الافساد والاهلاك ، وهؤلاء مبغوضون عند الله ، لانه سبحانه لا يحب الفساد .

أما نظام التوريث في الاسلام فقد تعرضت له آيـات سورة النساء ووضعت لكل وارث حظه من التركة بعدل وانصاف وانسانية فائقة تخالف أعراف الجاهليين في التوريث ، تلك الاعراف المبنية على الظلم والجور .

وقد روى عن ابن عباس : أنه لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها ما فرض للولد الذكر والانثى والابوين كرهها الناس وقالوا : تعطـى المرأة الربع أو الثمن ، وتعطى الابنة النصف ويعطى الغلام الصغير ، وليس مـن

هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يجوز الغنيمة . وهذه المقابلة لا شك صدرت من بعض من أشربت نفوسهم برعونة الجاهلية العمياء ، تلك الجاهلية التي لم تهضم مفاهيم القرءان التي أتت بالعدل والحق ورفعت الظلم عن كواهل المظلومين ، ووضعت القوانين الاجتماعية الكفيلة بالقضاء على الفوارق والنظم العقيمة البالية التي كانت لا تورث امرأة ولا صغيراً .

وهل كان في مستطاع الجاهلية ان تهتدي الى حكمة التشريعات الاسلامية ، وهي التي أعمتها الغواية والضلال ؟

وهل كان في مستطاع الجاهليين ان يتصوروا نظام القرءان المالي ، وهو يعمل على تفتيت الثروة بالعدل كي لا يكون المال دولة بين الاغنياء ؟ .

وجاء في سورة البقرة : « كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيراً الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على المتقين فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم فمن خاف من موص جنفا او اثما فأصلح بينهم فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم » .

هذه الآية نزلت قبل آية المواريث ، وبنزول آية المواريث بعدها لم تعد هناك وصية لوارث ، فبقي هذا النص يشمل غير الوارثين من القرابة احسانا لهم ورحمة بهم .

ويحرم القرءان التبديل والتغيير في الوصية بعد وفاة الموصي الا اذا تبين أنه قصد بوصيته الاضرار بالوارثين ، وحينئذ يجوز التغيير بما يدفع الضرر ويقيم العدل .

وفي سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب لعلكم تتقون » .

فالقصاص ضروري لقيام حياة خالية من الخوف والاعتداء ، اذ بدون قصاص لا يمكن ان تستقر حياة سليمة ، فالقصاص حياة .

والقصاص في القتل العمد كما تقول الآية الكريمة يكون مثلا بمثل بدون نقمة ولا ضغينة تزيد في شدة القصاص ، ثم هناك العفو بقبول الدية بدلا من القتل .

واذا ما قبل ولي الدم الدية ورضيها فليطلبها بالمعروف ، وعلى القاتل او وليه ان يؤديها بالاحسان تحقيقا للاخوة الاسلامية الشاملة .

وما أجمل تعبير القرءان هنا بكلمة أخيه .

واذا قبلت الدية فلا اعتداء ولا انتقام لما في ذلك من النكث للعهد ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، والعفو من شيم الكرام .

وموضوع هذه الآية الاعتداء الجماعي الذي كان سائدا بين العرب في الجاهلية والذي يمكن ان يحدث لسبب من الاسباب .

والاعتداء الجماعي اعتداء أعمى لا يميز ، فكان القصاص فيه متعادلا فيقتل حر بحر وعبد بعبد وأنثى بأنثى .

أما آية سورة المائدة : « وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » . فموضوعها الاعتداء الفردي .

وجاء في سورة المائدة : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه أن الله غفور رحيم » .

والسرقة اعتداء على مال الغير من حرز خفية . ويحد الفقهاء الحد الادنى للسرقة بربع دينار . فان أخذ انسان مال غيره من حرز خفية وبلغ القدر المأخوذ ربع دينار فالقطع والا فالتعزير اما بالجلد او بالحبس او ما في معنى ذلك مما يلائم بحسب الظروف التي تكتنف الاخذ .

وتقطع اليد اليمنى الى الرسغ ، فان عاد السارق الى ارتكاب السرقة قطعت رجله اليسرى الى الكعب . ولا يطبق حد السرقة الا عند ما لا يمكن الاستغناء عنه بشبهة او واقع شرعي يصرفه .

وقد يدعى مدع ان حد السرقة حد قاس لا يتوافق والحضارة التي نحياها ، ولكن الواقع يشهد أن اللصوصية قد أصبحت عملا دوليا مخوفا ، سواء بالنسبة لداخل الدول او خارجها ، وما ذلك الا لان اللصوص لا يزجرون كما يجب ان يزجروا والا لاقلعوا عن جرائمهم .

والاسلام لا يقرر القطع من أول وهلة بل يامر بدرء الحدود بالشبهات، ولكن عند ما يروع الناس وتكثر جرائم السرقة ولا يمكن درؤها بشبهة شرعية مقبولة فبماذا لا يحفظ أمن الناس بزجر طائفة معينة من المجرمين نكالا لها .

وقد قال امام المسلمين العادل عمر بن الخطاب (ض) : لان أعطل الحدود بالشبهات أحب الى من ان أقيمها بالشبهات .

وباب التوبة مفتوح في وجه اللصوص . ولا ينبغي ان يواخذ اللص التائب بسوابقه اذا حسنت توبته والا لدفعناه مرة أخرى الى الجريمة فنكون نحن الذين أجرمنا في حقه .

وفي سورة المائدة : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف او ينفوا من الارض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم الا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم » .

وفي هذه الآية حد الحرابة . والحرابة من الجرائم التي نص القرءان على حدها لخطورة شأنها بالنسبة للامن الذي لا يمكن لشعب ان يعيش مطمئنا بدونه .

والحرابة هي الخروج على الامام الشرعي المستوفى لشروط التولية .

والجماعة المجرمة المحاربة هي التي تكون عصابة او عصابات وتعتدي على الاموال والارواح والحرمات فلا تستحق شفقة ولا رحمة ، ويجب على المسؤولين ان يتخذوا من الاجراءات العاجلة ما هو كفيل

بزجر عصابات الاجرام المخربة ، سواء كانت هذه الجماعات من المسلمين او من غيرهم ، وقد اعتبرهم القرءان محاربين لله ورسوله ومفسدين في الارض ومروعين لامن الناس وطمأنينتهم ، اذ كل من وقف في وجه شريعة القرءان فهو محارب الله ورسوله كيفما كانت النحلة التي ينتحلها ، وكيفما كان الشعار الذي يلوح به للناس .

وقد استغلت هذه الآية من جانب بعض الحكام المنتسبين للاسلام في عصور مختلفة ، ولم يكن قصدهم الدفاع عن القرءان وشريعته بقدر ما كان قصدهم ان يدافعوا عن مكاسبهم .

وكل حاكم ينتسب للاسلام ولا يعمل بتعاليم القرءان لا يستحق من وجهة النظر الاسلامية أن يكون هو الامام الذي تقصده هذه الآية الكريمة ، ومن المعروف في التعاليم الاسلامية ان الحاكم اذا انحرف عن جادة الاسلام وتعاليمه فتوليته غير شرعية ، ويجب الخروج عليه لكونه لم يعد حاكما شرعيا .

ونجد الفقهاء يختلفون في تفهم هذا النص القرآني الكريم باعتبار ان العقوبات الواردة فيه هل هي على سبيل التخيير أم هي بحسب الافعال التي قامت بها العصابات الخارجة .

ولا نريد هنا ان ندخل في المجادلات الفقهية ، لانها لا تهم بحثنا هذا، ولكننا نشير الى ان مذهب المالكية أوفق لقطع دابر الافساد والاجرام .

وعند المالكية أن المحارب اذا قتل فلا بد من قتله ، فان اعتدى على الاموال دون الارواح فلا تخيير في نفيه ، وانما التخيير في قتله او صلبه . فان قبض عليه وكان لا زال لم يقتل ولم ينهب فالخيار في أربعة .

ويوضح المالكية معنى التخيير بكون الحاكم ينظر فى أمر المحارب أهو من ذوي الرأي والتدبير أم لا ؟ فان كان من ذوي الرأي قتل او صلب ليقطع ضرره ، وان لم يكن من ذوي الرأي وانما كان من ذوي القوة يعتمد في اجرامه عليها حكم عليه بالقطع من خلاف ، فان لم يكن من أصحاب الرأي ولا من أصحاب القوة والبطش بأن كان من المتربصين للفرص يمكن

التخفيف عنه بالتعزير او بالنفي والتغريب الذي يشعره بالالم والعجز ، لا بمطلق نفي قد يستطيع معه ان يعود الى ترويع أمن الناس .

هذا جزاء هؤلاء المجرمين في الدنيا ، أما في الآخرة فلهم عـــذاب عظيم ، لان جزاءهم ليس مطهرا لهم من جرائمهم .

والقرءان لا يغلق الباب في وجوه الخارجين . فهم اذا تابوا ورجعوا عن غيهم قبل القدرة عليهم فالله غفور رحيم .

وفي سورة الحشر : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنـــه فانتهوا » . وعلى هذا الاساس يتقرر التشريع الاسلامي .

فالكتاب والسنة هما الاساسان اللذان يجب أن يقوم عليهما النظـام الاسلامي في جميع مرافقه ، وكل تشريع لا يرتكز على مقاصد الشريعــة بقرآنها وسنتها ، فهو تشريع منحرف ضال ولو زين بالمظاهر البراقـــة الخادعـــــة .

ان السلطة لله وحده ، ومن هذه السلطة يمكننا أن نقنن وحتى اذا لم نجد نصا فلدينا الكليات العامة التي قررها الكتاب والسنة لتكون نبراسا لنا نهتدي بها في تشريعاتنا كلها . أما اذا وجد نص فلا سبيل الى تركـــه مطلقا ، وكل ما نشرعه يجب ان لا يخالف أصلا اسلاميا ولا مقصـــدا مـــن مقاصد الشريعـــة .

الحكـــــم

ينزع القرءان في تشريعه الحكمي الى جانب العدل والشورى والحرية والمساواة ويحيد عن طريق الغواية والقسوة والاستبداد والظلم والاستغلال .

وقد أمر القرءان النبي (ص) بمشاورة أصحابه ليدربوا على منهج الحكم الاسلامي الذي لا يقبل الاستبداد في الرأي والتنفيذ ، كما مدح المؤمنين على تشاورهم فيما بينهم وخضوعهم لامر الله في ذلك فقال : « وشاورهم في الامر . وأمرهم شورى بينهم » .

ويقرر القرءان أن الامر كله لله ، وان المخلوقين ليسوا سوى أمناء على حكم الله ، فهم جميعا يتحملون مسؤوليته ليحققوا سلطان الله في الارض كما يريده القرءان .

والتنزيه والتقديس المطلق عادة كانت مألوفة عند شعوب عاشت قبل أن ينزل القرءان ليجرف تقديسها الباطل وسلطانها الظالم .

والقرءان يضع للحاكم حدودا لا يقبل منه أن يتعداها كما يعطي للمحكومين حقوقا لا يقبل منهم ان يتجاوزوها كما على الجانبين واجبات لا بد لهما من القيام بها .

ولا يعنف القرءان من يسير في طريق العدالة اذا أحدث من الانظمة ما يحقق تلك العدالة ، اذ من حق المسلمين أن ينظموا أنفسهم تنظيما يماشي التطور الطبيعي بشرط ان لا ينحرفوا عن أهداف القرءان الاساسية .

والحكم مسؤولية ثقيلة وتكليف صعب ، فاذا ونيه المستبدون أو الغوغاء أو السفلة فويل للشعوب المحكومة منهم ومن تصرفاتهم الشائنة ومن شهواتهم العارمة . وقد قال (ص) : ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم الا وحرم الله عليه الجنة . وقال : كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته .

قال تعالى في سورة آل عمران : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » .

فالحكم الذي ينشده القرءان يتميز بطابع الشفقة والرحمة والعفو مع الشورى والعدالة والمساواة . وقد جسم النبي محمد (ص) الحكم القرآني كما يجب ان يكون ، سواء بالنسبة لشخصه او لنوع الحكم الذي حكم به .

ولقد كان (ص) مثالا فريدا في الصفاء الروحي والتفوق الاخلاقي حتى استحق ثناء القرءان عليه في قوله تعالى : « وانك لعلى خلق عظيم ». ولولا مكانته الاخلاقية الرائعة لما تجمع عليه العرب ومعظمهم فيه غلظة وجفاء وتعالي وطموح ، فأذابت أخلاقه (ص) من نفوسهم ركاما من الصفات القاسية وحولتها الى صفات انسانية تستوحي من أخلاقه التي هي من أخلاق القرءان .

ومن يصدق ان العربي الجاهلي الاجلف المستبد على أهله وذويه يتحول بين عشية وضحاها الى رجل يخضع للنظام ويستجيب لامر الله ويحكم بالشورى ، وينصف من نفسه ويترفع عن الموبقات . « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » . نعم لولا كرم خلقه لانفض الناس من حوله .

وجاءت هذه الآية في معرض الكلام عن غزوة أحد ونكباتها وصدماتها، ولا يد للنبي (ص) في كل ما حدث فيها ، فالمسلمون هم الذين تحمسوا للخروج والقتال ، ثم عمل النفاق عمله في صفوف الجيش حتى رجع ثلثه قبل المعركة ، وما بقي ضعف أمره بعد ما شاعت الهزيمة ، وكان الرسول (ص) قد وضع جماعة من الجند في ثغرة وأمرهم بالثبوت في مكانهم فلم يثبتوا وغرتهم الغنائم في أول المعركة فنزلوا من مكانهم حيث هاجمهم العدو من الثغرة التي خلفوها وراءهم ، وخالفوا بذلك أمر نبيهم ، ثم شاع ان النبي (ص) قد قتل فتضعضع الكثيرون للاشاعات وقتل سيد الشهداء حمزة وجرح النبي وكسرت رباعيته ، كل هذه الاهوال لم تثر غضب محمد (ص) الذي ميزه الله بالاخلاق العالية والصفات الحميدة ، لان رسالته كانت أعظم من أن تدعه ينتقم او يغضب او يثور وهو الذي يعلمهم كيف يسوسون انفسهم ويتغلبون على شهواتهم ويكظمون غيظهم ويؤوبون الى ربهم عند المحن والشدائد والاحداث .

وفي غمرة أحداث أحد المهولة يدعو القرءان النبي (ص) لمشاورة المسلمين ولو ان الشورى في هاته القضية لم تأت بالمرتجى ، ومع ذلك يجب ان تكون مبدأ اساسيا لا غنى عنه . « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر » .

فالمشورة في الحكم القرآني أمر من الله لايقبل المجادلة والمراوغة فاما حكم اسلامي شوري واما حكم استبدادي جاهلي .

والقرءان اذ يقرر مبدأ الشورى لا يدخل في التفاصيل الجزئية ويتركها للمسلمين ليسلكوا أنفع طرقها . والقرءان عند ما قرر الشورى قررها كمبدأ عام لنوعية الحكم الذي ينشده ، وخطأ الحكم المطلق خطير اذا قيس بخطأ الشورى ، لو فرضنا انها قد تخطىء لكون خطئها يتحمله الجميع بخلاف خطا الحكم المطلق . ومصداق هذا هذه الآية نفسها التي جاءت عقب نتائج شورية .

والقرءان لا يعتبر جزئية خاصة ليقرر حكما عاما وانما يضع تشريعا متكاملا تندمج فيه جميع الجزئيات .

والشورى التي يقررها الاسلام شورى عملية ، ولذلك تعقب الآية على الامر بالشورى بالعزم والعمل لا بمجرد الخطب والاقوال والانتقادات ، « فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » . فبعد أخذ الرأي وتقليب وجهات النظر واختيار الاصلح لا ينبغي الوقوف عند هذا الحد ، بل يجب تخطيه الى العمل والتنفيذ مع التوكل على الله توكلا يجب ان لا يجرد من معناه القرآني ، وهو التوكل مع العمل ، أما اذا لم يكن مع عمل فهو مذلة واستسلام .

ويستدل بعض الذين لا يفهمون معنى القرءان من المخرفين على معنى التوكل بحديث : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصة وتروح بطانة » . على ان معنى التوكل هو الاستسلام لما يسمونه بالاقدار مع أن هذا الحديث يحض على العمل الدائب المتواصل كعمل الطيور التي لا تفتأ طول النهار تبحث عن الرزق فتغدو خماصة وتروح بطانة . وهكذا يجب ان يكون المسلم دائم العمل والبحث عن الرزق مع التوكل على الله الذي لا تخفى عليه خافية .

وفي سورة الشورى : « فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون والذين اذا أصابهم البغي هم ينتصرون وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق أولئك لهم عذاب اليم ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور » .

فتذكر هذه الآية صفات المؤمنين ومميزاتهم وسماتهم .

والعمل الصالح خير وأبقى ، والمؤمن الحق هو الذي يعمل الصالحات ويتجنب الطالحـــات .

فمتاع الحياة الدنيا جذاب محبب للنفوس ، ولكن ذلك لا ينبغـي ان يجعل النفوس تغفل عن عمل الخير الذي هو عند الله خير وأبقى للذيـــن آمنـــــوا .

والايمان هو الركيزة الاصيلة لكل شيء في القرءان ، وما عداه يبنى عليـــــه .

وهل يقدر الانسان في هذه الحيـــاة ان يعيشـــ مطمئنـــا بدون ايمـــــان ؟

والايمان يحمل معاني واسعة ، فلا يقتصر على توحيد الله ، بل يحمل أيضا معنى التجرد عن الشهوات الجامحة والاغـراض الفاسدة ويجعـــل صاحبه يعمل للصالح العام ويأتي الفضائل الخلقية مع نفسه ومع غيـره ، لان ضميره الايماني هو وحده الزاجر له قبل ان يزجره الخوف والقانـون والسلطـــــة .

والايمان يجعل صاحبه عفيفا كريما نقي اليد واللسان وجميع الجوارح عزوفا عن السلوك المنحط في سياسته وعمله ، خاضعا لسلطان الله وحده الذي له العزة في الاولى والآخرة ، عاملا مجدا متوكلا على ربه ، مستيقنـا أنه سبحانه الذي يهدي للطريق السوي ويعين العاملين على عملهـــم ، لا ينزعج للكوارث ولا تبطره النعمة ولا يهزه الغضب ولا يزعزعه الحقد .

ومن مميزات المؤمنين أنهم يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ، أمـــا صغائرها فقد تصدر عنهم ، لانهم بشر لا عصمة لهم ، ومـــن رحمـــة الله بالمؤمنين أنه رحم ضعف انسانيتهم ففتح لهم باب التوبة والغفران مهما أذنبـــوا .

وهؤلاء المؤمنون اذا غضبوا تغلبوا على غضبهم وعفوا .

والغضب انفعال يصيب جميع الناس ، ولكن الايمان يستطيـــع أن يطفىء جمرة الغضب التي توقد في القلب كما قال (ص) .

وقد كان رسول القرءان لا يغضب لنفسه قط ، وانما يغضـــب اذا انتهكت حرمات الله لكون الغضب في الحق غير مذموم .

والانسان القلق الغضوب يعرض جسمه للامراض الخطيرة القاتلة ، ولذلك قال (ص) : « ألا ان الغضب جمرة توقد في القلب ، فاذا غضـــب أحدكم فالارض الارض » . اي فليجلس اذا كان واقفا او ليتكىء اذا كان جالسا . ومعناه فليعمل شيئا يصرفه عن غضبه .

والرسول الكريم (ص) كان يعلم دواخل النفوس وما يهزها من مشاعر فكان يربي أمته تربية مفيدة جسميا وروحيا .

ومن صفات المؤمنين أنهم يستجيبون لربهم فيمتثلـــون أوامـــره ، ويجتنبون نواهيه ، ويخضعون لحكمه ، ويقيمون الصلاة ، ويؤدون كـــل شرائـــع اللـــه .

وبعد أن وصفت الآية المؤمنين باقامة الصلاة أتبعت ذلك بوصفهـــم الشوري حيث يجعلون امرهم شورى بينهم مما يدل على أن القـــرءان لا يفصل بين العبادة والحكم والعمل .

فاذا كان من صفات المؤمنين أنهم يومنون بالله ويعبدونـــه ، فمـــن صفاتهم ايضا ان أمرهم شورى بينهم في حياتهم كلها .

وتتجلى شورية المؤمن واضحة في أسلوب الحكم الذي يحكم به ، اذ كل مسلم يحكم بدون شورى ناقص الايمان ولو حج وصلى وصام وزكى ، لكون هذه الآية الكريمة تقرن العبادة بالشورى بدون حاجز لانها جزء من الايمان . والقرءان عدو للسيطرة والاستعلاء والتحكم القهري .

والشورى مبدأ أساسي للحكم في القـــرءان ، وعلى المسلميـــن ان يضعوها في القالب الذي يساير أهداف الاسلام .

وكل عصر يصلح له شكل نظام لا يصلح لزمن آخر . وكيفما كان هذا الشكل فيجب ان يكون مماشيا للشورى في أعم معانيها كما أرادها القرءان وكما طبقها النبي (ص) وخلفاؤه الراشدون من بعده .

ومن صفات المؤمنين في هذه الآية انهم ينفقون ولا يبخلون ، ويؤدون واجبات الله ويطهرون قلوبهم من البخل والشح .

ومن مميزاتهم أنهم اذا أصابهم البغي وقفوا في وجهه وردوه ولم يستسلموا له تحقيقا لعدالة الله ودفعا للعدوان حتى لا ينتشر الشر والبغي ، ويستحب العفو اذا كان فيه اصلاح .

والعفو عند المقدرة سمة خطها رسول القرءان (ص) بالعمل قبل أن تخط نظريا .

وتقرر الآية في معرض مميزات المؤمنين ان الذي ينتصر بعد ظلمه ويجزىء السيئة بالسيئة بدون تعد لا جناح عليه ، ولكن يجب زجر الظالمين والوقوف في طريقهم وكفهم عن ظلمهم ولو بالقوة لان الارض لا تصلح للحياة الا وفيها عدل . « والله لا يحب الظالمين فهو الذي أنزل القرءان بالحق والميزان ليقوم الناس بالقسط » .

ومن عادة القرءان أن يحض دائما على الصبر والاعتدال وضبط النفس والسماحة ، ولذلك ختمت هذه الآية بقوله سبحانه : « ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور » .

وفي سورة النحل : « ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون » .

فالعدل أساس في تكوين الحكم الاسلامي بمعناه الواسع البعيد عن كل عصبية او انحراف . والقرءان أمر بالعدل واكده مع رسوخ العقيدة ، اذ الذي لا عقيدة له لا يستقيم في عدله الذي يمس حقوق الافراد والجماعات .

ويريد القرءان عدلا لا يتأثر بهوى في النفس او بعداوة او قرابة او عقيدة او جاه او فقر او غنى .

ولم يأمر القرءان بالعدل وحده بل أمر كذلك بالاحسان حتى يتخفف العدل في بعض الظروف من صرامته وبنوده .

والامر بالاحسان سمة بارزة في تعاليم القرءان ، تلك التعاليم التي تنشد الرحمة والعطف قبل ان تنشد القسوة والجفاف .

والله سبحانه أعدل العادلين وأرحم الراحمين ، وليس بين العدل والرحمة تناقض ، فهما مبدآن مقرران ، ولكنهما يحتاجان الى التفهم والوعي حتى يوضع كل منهما في مكانه .

وكمثال على الاحسان تقول الآية : « وايتاء ذي القربى »

وبعد الامر بالعدل والاحسان تنتقل الآية الكريمة الى النهي عن الفحشاء والمنكر والبغي ، اذ في الفحشاء تجاوز للحد ، وفي المنكر كل ما تمجه الفطرة السليمة وتنكره الشريعة من كل ما فيه فجاجة وانحطاط أخلاقي ومساس بالكرامة الانسانية ، وفي البغي ظلم وتعدي .

وتسير الآية مع المنطق القرآني السليم ، فهي لما أمرت بالعدل والاحسان بهت في نفس الوقت عن الفحش والمنكر والبغي لكونها مخربة للمجتمعات وهادمة للحكومات ومفسدة للعلاقات ومحدثة للفتن والانقلابات.

كذلك تامر الآية بالوفاء بالعهد اذا ثبت بالخيار والموافقة . وتنهي عن نقض الايمان المؤكدة التي نشهد الله عليها . ولا يليق بالمسلم ان يخون عهوده وأيمانه ويسلك مسالك اللف والدوران التي هي طريق ضعيف العقيدة مزحزح الايمان .

وفي سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » .

وهذه الآية تامر المؤمنين بأن يكونوا قوامين بالعدل مع الاقربين والابعدين مع الاصدقاء والاعداء بحيث لا تميل بهم الميولات عن طريق العدل الذي هو منهج القرءان « وإياكم أن يحملنكم الشنآن والعداوة عن الميل عن طريق العدل » . وهنا يحلق القرءان في أجواء من سلامة الحكم لا تصل اليها الا النفوس الخيرة الطاهرة .

وأين هذه النفوس اليوم ؟

وأين عدالة القرءان في الحكم مما يسود عالم اليوم ؟

وفي سورة النساء : « ان الله يامركم ان تؤدوا الامانة الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » .

ان القرءان ينشد الامانة في كل شيء لينشىء أمة اسلامية نظيفة تتلقى منهج حياتها من قرآنها الذي خط لها طريق السير المستقيم وجنبها الموبقات وأراد لها ان تكون خير أمة اخرجت للناس ، ولن يتحقق ذلك اذا لم يترب المسلم على طاعة الله ورسوله ، واذا لم يكن أمينا مع نفسه ومع غيره ، واذا لم يحكم بالعدل والحق .

والتعبير بالامانة تعبير متسع يبتدىء في شموله من خلافة الله للانسان في الارض الى ان يصل الى أقل الاشياء قيمة .

وكذلك الحكم بالعدل يشمل كل ما وقع فيه حكم بقطع النظر عن قيمته او عن من صدر عليه ، لان القرءان ينظر في التشريعات الحكيمة من ناحيتها الانسانية .

فالامانة والعدل لا يخصان المسلمين مع بعضهم ، وهذا من فضائل تشريع القرءان الذي سما عن التعصب والعنصرية .

والواقع التاريخي يشهد بأن الحكم الاسلامي عند ما يكون اسلاميا حقيقة يكون حكما هادفا نزيها ، ولكنه عند ما لا يكون اسلاميا او اسلاميا بالاسم ينحرف عن الهدف ليتبع أمثاله في التعصب والعنصرية والضلال .

وقرن الامانة والعدل في هذه الآية له مدلوله ومعناه ، ولذلك تقول الآية في التعقيب على وجوب أداء الامانات الى أهلها ووجوب الحكم بين الناس بالعدل : « ان الله نعما يعظكم به » أي نعم ما يعظكم به ويامركم به من الموعظة الحسنة الهادفة الى تكوين مجتمع نظيف خالي من المظالم والخيانات ، ولا شك ان الخيانة والظلم من ظواهر انحطاط المجتمعات وتأخرها وتراجعها واندحارها .

وما هو الحكم الذي ينشده القرءان هنا ؟

انه الحكم الموافق لكتاب الله وسنة رسوله الحكم الذي لا شطط فيه ولا اعتساف ، الحكم الذي فيه طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة أولي الامر الذين ينفذون أوامر الله ورسوله ويستمدون سلطانهم من شريعة الله ، ويعترفون بأن لا حكم الا لله في الصغيرة والكبيره ، وبذلك يعبرون عن ايمانهم وتمسكهم بالشريعة ومقاصدها .

وصاحب الامر الذي لا ايمان له ، لا يخضع للحق مهما ادعى ، لان الايمان وحده هو الزاجر الداخلي الذي لا يترك الانسان يسير مع هواه فيسحق الحقوق ويغتصب الكلمة ويدوس الرقاب .

وطاعة أولي الامر من طاعة الله ورسوله اذا توفرت فيهم شروط الولاية وخضعوا للشورى وتجردوا من الطواغيت مهما كانت ومن أين أتت، ولم يحملوا الناس فوق طاقتهم ، ولم يجرفوهم الى الغواية ، ولم يستغلوهم بما لا يتفق وشريعة الله .

وفي صحيح البخاري : (انما الطاعة في المعروف) .

السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب او كره ما لم يؤمر بمعصية ، فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة . وان وقع اختلاف في شيء فيجب ان يرد الى أصول الشريعة لتقول كلمتها ، وليس لاي مسلم أن يدعي لنفسه التشريع خارجا عن كتاب الله وسنة رسوله ، والا كان اسلامه مطعونا وحكمه ظالما .

وفي سورة هود : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » .

وهذه الآية تأمر الرسول (ص) ومن معه من المؤمنين بالاستقامة والتحلي بفضائلها كما جاء بها القرءان بدون غلو ، وتنهى عن الركون الى الظالمين ، مهما كانت سيطرتهم وتطاولهم وتغلبهم .

والركون الى الظالمين والاستجابة لمطالبهم انحراف عن سبيل الله ويفضي الى نقمة الله وعذابه .

ولقد استمر القرءان في كل مناسبة يشجب الظلم والظالمين ، ويعدد مآسي الظلم وما يجره من تخريب وتدمير .

فمن واجب كل مسلم ان لا يساند الحكام الجائرين المستبدين المتعالين الظالمين ، وبمساندته لهم يدخل في زمرتهم ويصبح واحدا منهم، بل ان من واجب المسلم ان يقاوم الظلمة والطغاة بكل ما يستطيع وان لا يمكن لهم وان يتخذ من الوسائل حسب مستطاعه وجهده ما ينزلهم به من عليائهم ويطوح بهم .

ومقاومة الطغاة الظالمين يحتاج الى صبر وعمل وكد وثبات وتضحية وجهاد .

ثم تعطي الآية العبرة من الامم الماضية التي عمها الظلم فاستحقت العقاب فتقول : « فلولا كان من القرون من قبلكم اولوا بقية ينهون عن الفساد في الارض الا قليلا فمن انجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

فهذه الامم التي يتحدث القرءان عنها للعبره والذكرى لو كانت فيها بقية تنهى عن الفساد وتحارب الجور والظلم ما نزل بها العذاب والدمار ولما أهلكها الله وفيها مصلحون لا يقرون الظلم والفساد . وبوجود القلة الصادقة المخلصة المكافحة التي لا تسكت عن الظلم والفساد ينجي الله المؤمنين ويهلك الظالمين المترفين وأتباعهم .

وتوقفنا هنا كلمة أترفوا لتدلنا على ان الحطام هو الاساس الاول في خراب الذمم والضمائر ، وان الحكام يعميهم الترف مع التحكم ليركبوا رؤوسهم ويأتوا كل منكر ويسلطوا على الناس معاولهم ويبتزوا أموالهم

ويسخروا رقابهم ويشتتوا وحدتهم ويمزقوا شملهم حتى يسلم لهم سلطانهم .

وانه لانذار الاهي لا يجمل بالمسلم أن يتجاوزه بدون ان يقف عنده وقفة طويلة فوعد الله حق ، وان تأخر تنفيذه بعض الوقت الوقت ليملي للظالمين حتى يرتعوا في مكرهم .

وينزل سبحانه عقابه على الظالمين في صور شتى ، اما بالدمار والخراب واما بالنقص في الارزاق ، واما بتسليط الوباء . « فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم » .

والقرءان لا يقر حكم الغوغاء ولا حكم المتعصبين . ويريد حكما فيه صلاح للمخلوقين ، والصلاح لا بد له من الرأي السديد ، والحكمة التي تنبع من أهل الفضل والعلم والتقوى . ويقول القرءان لنبي الاسلام (ص) : « وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » . ثم يقول : « وما يتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغني من الحق شيئا » .

ونستطيع من تتبع نصوص القرءان ان نعرف من هم أهل الرأي والشورى بصفاتهم ومميزاتهم . وندرك ان أهل الشورى والرأي ليس كل من دب وهب .

ولا يغفل القرءان جانب العلم والمعرفة وهو يفضل هذا الجانب ويرفع من شأنه فيقول : « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ . يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات . وما يعقلها الا العالمون » .

ويكشف لنا القرءان جانب الشر في الحكم وأهله فيقول عن بني اسرائيل : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » . والنهي عن المنكر واجب مؤكد في الاسلام .

وتبعة الحكم الفاسد لا تحيق بالحاكم وحده بل فساده يتسرب للجماعة المسلمة ويدخل للبيوت . فما على المسلمين الا ان يقاوموا الفساد ليلا يصدق عليهم ما صدق على بني اسرائيل الذين وصفهم القرءان بكل خزي في عدة آيات بينات .

والتعاون في الحكم ميزة اسلامية بارزة تقوم عليها أدلة وشواهد لا تكاد تحصى ، ومهما اختل هذا التعاون الا ويختل الحكم ويتردى ، ولم يصب المسلمون الا من بعض حكامهم الذين يسدون آذانهم عن سماع ما يمليه القرءان في الحكم وما يوجبه من التعاون بين الحاكمين والمحكومين.

المـــــــال

المال من ركائز الدولة وعصبها الدافع ، والاقتصاد المزدهر مــن علامات التقدم والرقي والتفتح والانطلاق ، وفقر الدولة دليل على تأخرها واندحارها وانحطاط مستوى المعيشة فيها . والجماهير تتأثر بغنى الدولة وفقرها ، كما ان الدولة تتأثر بغنى مواطنيها وفقرهم .

والاسلام لا يمنع الناس من أن يجمعوا المال بالطــرق الشريفــة المشروعة ، ولكنه يمنع الشره والاحتيال . واراقة ماء الوجه بالطلــب ، محذور الا عند الحاجة القصوى .

وليس شرف الشخص من وجهة النظر الاسلامية بكثرة المال ، وانما الشرف بالقناعة بعد بذل المستطاع . وما قيمة المال اذا كان وسيلــة للاثم والعصيــان ؟

والمال في القرءان مال الله يتصرف فيه خلقه على أنه وديعة عندهم فيجب عليهم أن يحسنوا التصرف في ا وديعة بالانفاق في الجهات المقررة بدون اسراف ولا تبذير .

والمال نعمة تستحق الشكر بالانفاق في وجوه الخيــر والاحسان والبر . ومن حسن الانفاق ما ينفقه المرء على أهله وأولاده والاقربين اليه .

والزكاة ليست انفاقا خيريا ، وانما هي واجب ، اذا لم يؤده المسلم لا يكون اسلامه قويما .

قال تعالى في سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقــون ولستم بآخذيه الا ان تغمضوا فيه واعلموا ان الله غني حميد ، الشيطان يعدكم الفقر ويامركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليــــم » .

فيريد القرءان من المنفق ان ينفق من طيب ماله لا من رديئه ، ولا يقبل الله صدقة تعطى مما تعافه نفس المتصدق .

وفي آية آل عمران : « لن تنال البر حتى تنفقوا مما تحبون » .

والله غني عن بذل الخبيث .

وفي الناس نوع لا ينفق من ماله خشية الفقر ، والى هذا النوع تتوجه الآية بارشادها وتعد ذلك من نزوات الشيطان ووساوسه .

ويريد القرءان من المسلم ان يتخلق في بذله بسمو وعفة ونبل فيقول : « أن تبدو الصدقات فنعما هي وان تخفوها وتوتوها الفقراء فهو خير لكم » .

وفي سورة التوبة : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

بعد ما تحدثت هذه السورة عن اليهود والنصارى وكفرهم واتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، هؤلاء الاحبار والرهبان الذين ياكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ويقبلون ان يكونوا أربابا من دونه ويضعون تشريعات كاذبة ويحلون الحرام ويحرمون الحلال مقابل المال والمتاع . وتتحدث عن مواقفهم الجارحة للاسلام وتحذر المسلمين منهم ومن مكائدهم التي لا تنقطع ، وتتشكل وتتنوع ، ثم تأتي هذه الآية الكريمة لتصور مآل الكانزين المال الذين لا ينفقونه في سبيل الله.

وهذه الآية وان وردت في سياق الحديث عن الاحبار والرهبان فهي بمعناها نعم كل مسلم فيه من الاوصاف مثل ما فيهم ، لكون الاسلام لا يقر احتكار المال على حساب الناس .

وقد فهم بعض الصحابة كأبي ذر الغفاري من هذه الآية تحريم اكتناز المال فثار عليه المتمولون ونكلوا به .

وقال عمر بن الخطاب : لو استقبلت من أمري ما استدبرت لاخذت فضول أغنيائكم ورددتها على فقرائكم .

وفي سورة البقرة : « يسألونك ما ينفقون قل ما أنفقتم من خيـــر فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ,وما تفعلوا من خير فان الله بـــه عليـــم » .

فيريد القرءان للمسلم ان لا يكون بخيلا شحيحا لا مع نفسه ولا مع النــــاس .

ويعتبر القرءان الانفاق في سبيل الله ضرورة لازمة للحفــــاظ على المجتمع الاسلامي .

وبالانفاق يتضامن المجتمع الاسلامي ويتكامل ويتطهر من الحقـــد والضغينة والشعور بالاضطهاد .

وينفق المسلم من ماله على أقاربه الملتصقين به ثم على غيرهم مـــن اليتامى والمساكين وابن السبيل من كل من يظن بهم الفقر والاحتيـــاج . وسبيل الله باب متسع للانفاق .

ومن تفسير الآية ما روى عن جابر ان رسول الله (ص) قال لرجل : ابدأ بنفسك فتصدق عليها فان فضل شيء فلاهلك فان فضل شيء عـــن أهلك فلذي قرابتك ، فان فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا .

ولا يقبل الاسلام أن يتربى الناس على التسول والاتكــال ، ويريـــد من المسلم ان يكون انسان عمل وجد وكد ، لان المعتمد على غيره ,وهـــو قادر على العمل انسان ساقط النفس مخرب الضمير .

وفي الحديث الشريف : اليد العليا خير من اليد السفلى .

والانسان المحتاج الذي لا يسأل هو أولى بالعطاء من اولئك الملحين الذين يجوبون الشوارع ويحاصرون الجمهور في الاسواق .

واليتيم المعوز اولى بالعطاء وأحق بالرحمة والعطف الى ان يصبح قادرا على العمل والكسب .

وكذلك يعطي ابن السبيل حتى يصل الى أهله وبلده ولو كان غنيا بها .

وروى عن جابر قال : جاء رجل بمثل بيضة من ذهب فقال يا رسول الله أصبت هذه من معدن فخذها فهي صدقة ما أملك غيرها فأعرض عنه رسول الله (ص) ثم أتاه من قبل ركنه الايمن فقال مثل ذلك فأعرض عنه ، فأتاه من ركنه الايسر فقال مثل ذلك فأعرض عنه ، ثم أتاه من خلفه فقال مثل ذلك ، فأخذها (ص) فخذفه بها ، فلو أصابته لاوجعته وقال : يأتي احدكم بما يملك فيقول : هذه صدقة ثم يقعد يتكفف الناس ، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى .

وفي سورة البقرة أيضا : « ويسألونك ما ذا ينفقون قل العفو » .

والعفو الفضل والزيادة ، أما ان ينفق الانسان ما هو في حاجة ماسة اليه ثم يبقى معرضا للاخطار فذلك انفاق مرفوض .

والانفاق في هذه الآية هو غير الزكاة ، لان الزكاة واجبة لا تطوع ، والتطوع ما زاد عن الزكاة .

وتقول الآية : « للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الارض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا » .

فهذه الطائفة المعوزة من المهاجرين الذين تركوا أموالهم بمكة واقاموا بالمدينة يعملون في سبيل الله هم اولى بالعطاء .

والآية عامة في معناها فهي تشمل كل معوز يربو بنفسه من ذلة السؤال ، ولا يجد طريقا للكسب والعمل ، ويحاول ان يخفي حاجته ، فهو أولى بالعطاء لكونه كريما في نفسه ، حكمت عليه ظروف قاهرة بالعوز لم يقدر على التخاص منها ، ولو وجد وسيلة للتخلص منها لاتاها ، وهي صفة من صفات المسلم الصادق .

روي عن أبي هريرة (ض) قال ، قال رسول الله (ص) : ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان ، انما المسكين الذي يتعفف .

وفي سورة البقرة : « الذين ياكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ومن عاد فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » .

فالنظام المالي في القرءان يحرم الربا تحريما باتا لا هوادة فيه ، لما فيه من الدنس والسقوط والاثرة والقذارة .

وجاء تحريم القرءان للربا بعد ما كان التعامل به شائعا ذائعا في الجاهلية بكل مفاسدها وآثامها وشرورها .

والواقع يشهد بأن الربا مظهر كالح من مظاهر الاستعمار والاستغلال، والصهيونية العالمية تتخذ من الربا تجارة تستعبد بها الناس وتخرب ضمائرهم فتسيطر عليهم .

وان الدول الرأسمالية في عالم اليوم قد وقعت تحت تأثير الصهيونية التي جعلت المادة الاها معبودا .

والقرءان لا يقر من المعاملات الا ما كان موافقا لاخلاقه ، بعيدا عن استنزاف الناس ، وحتى لا يبقى المال دولة بين الاغنياء .

والقرءان عند ما يحرم الربا يفتح أبواب المعاملات ولا يقيدها الا بقيود العدل والحق والانصاف ، فللفرد المسلم ان يكتسب المال ، ولكن ليس له ان يحتكره او يسيء به او يتخذ منه طريقا لاذلال الرقاب .

ولقد اعتاد الاستعمار الرأسمالي والصهيونية أن يجعلا من المـــال وسيلة لهدم اخلاق الافراد والجماعات ولتكوين هيأة محتكرة من المرابين تقوم على النهب والغش والسرقة والخداع .

وقد أصبح المرابون اليوم لا يداينون الافراد والجماعات فحسب بل تخطوا ذلك الى مراباة الدول والحكومات ليسيطروا على أرزاق الشعوب بقانون الربـــا والفساد .

وويل لشعب يسيطر عليه المرابون في رزقه وحكمـــه ، وويـــل للانسانية من هذا الاخطبوط الذي نصب شراعه عليها واذاع بين البشرية الشرور والحروب والرعب والجشع والخسة والدمـــار ، وسيطـــر على وسائل الاعلام ليضلل العقول والافهام .

والبشرية اليوم بعد أن وقعت في قبضة المرابين العالميين أخذت تتململ علها تجد مخرجا من قبضتهم الحديدية ، ولكن ذلك يحتاج الى كفاح وجهاد وصبر وأنـــاة .

وقد ظهرت دراسات علمية جادة تبين أخطار الربـــا ، وتحـــاول ان تفتح الافهام لتدرك شروره وآثامه .

ويصور القرءان الآكلين للربا تصويرا مخوفا مرهبا ، فهم لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، لكونهـــم أشبـــه ما يكـــون بالمصروعين والمحمومين الذين ملك الربا عليهم كل مشاعرهـــم وسد في وجوههم كل أبواب الخير والمنفعة لغيرهم .

والربا الذي نزلت فيه الآية وصورته بهذه الصورة البشعة الفظيعـة هو الربا الذي كان معروفا في الجاهلية وهو الذي يعرف في كتب الفقـه بربا الفضل والنسيئة .

وحاول المعترضون على عهد نزول القرءان ممن كانوا يعيشون على الربا أن يدعوا بأن الربا بيع ، ولكن القرءان رد عليهم حينما أعلن : « وأحل الله البيع وحرم الربا » . والمرابي لا يبدي جهدا ولا يتحمل خسارة .

ثم يخاطب الله المؤمنين خطابا محذرا من الوقوع في اثم الربا فيقول: « يا أيها الذين آمنوا اتقو الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنيـــن ، فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وأن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون » . وهو تهديد من الله للمرابين كي يقلعوا عن التعامل بالربا والا فليأذنوا بحرب من الله ورسوله .

ومن يقدر على تحمل غضب الله في حربه . وهل في مقدور الانسان المغرور ان يتحمل حرب الله في أي شكل من أشكالها ؟

وقد يتخيل ان الدول الرأسمالية المتعاملة بالربا تعيش في سعادة وهناء ، ولكن الواقع ان الشعوب التي تعيش في ظل الربا لا تسعد ، وأن اصحاب الربا ولو كدسوا من الملايين والملايير المنتزعة من عرق الناس لا يعيشون في طمأنينة نفسية وهناء ، وانما يعيشون على أعصابهم واختلال أمزجتهـــم .

والدول الربوية تجمع بين اغنياء مرضى بالتخمة لهم نفوس خربـــة وشهوات مستيقظة وضمائر منحلة وبين أشقياء يعيشون في المعامـــل والمصانع والشوارع ويتجرعون التشرد والضنك والبؤس وتسترهم واجهة الترف المزيف ؛ زيادة على ما يكثر في هذه المجتمعات من انحطاط خلقي مزر ومن جرائم متصاعدة .

ويهم المرابين ان تشتعل الحروب الساخنة كي يستفيـــدوا منهـــا ويحولوا ميزان القوى العالمية الى جانب مصالحهم الربوية الدنيئة .

روى مسلم وأحمد عن جابر بن عبد الله (ض) أنه قال : لعن رسول الله (ص) آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه ، وقال : هم سواء .

ويرى القرءان الكريم ان المدين اذا عجز عن اداء الديـــن فليست الوسيلة الوحيدة هي ان يؤخر له الاجل بالربا وانما أن يرحم بالانظار الى ميسرة . وهذه هي السماحة الاسلامية في قمتها حتى لا يتخذ من الدين وسيلة للاستغلال ، ولذلك يقول القرءان : « وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

وتدعو الآية صاحب الدين للتصدق بدينه على المعسر ان أمكن تطوعا وخيرا . كما جعلت آية مصاريف الزكاة مصرفا خاصا بالمدينين يستفيدون منه لاداء ديونهم اذا كانوا قد تحملوها من أجل مصلحة شرعية ، ثم عجزوا عن الاداء .

ويقول القرءان في سورة آل عمران : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة » .

وهذه الآية تصف واقعا كان موجودا ، وليس المراد بها ان المحرم من الربا ما كانت فيه الاضعاف المضاعفة لكون الربا محرما من اصله .

وفي سورة الحشر : « وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » .

فيقرر القرءان في هذه الآية حكم الفيء فيما لم يتحمل المسلمون فيه قتالا وهي تتحدث عن الفيء الذي خلفه بنو النضير وراءهم ، ولكن الحكم لا يخص هذه الحادثة جريا مع القاعدة المقررة من ان العبره بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وتشتمل هذه الآية على قاعدة هامة تتعلق بالنظرة القرآنية الى الاموال ونظامها اقتصاديا واجتماعيا .

وتقيد هذه الآية الملكية بأن لا تكون دولة بين الاغنياء يتداولونها بينهم دون الفقراء مما يوجد طبقة من الرأسماليين الشرهين . وعلى هذه القاعدة يجب ان يبنى النظام المالي في الاسلام .

وبهذه الآية الكريمة وآيات أخرى نستطيع ان نستخرج نظاما ماليا اسلاميا بعيدا عن الاستغلال ، يوزع الثروة ولا يتركها تتراكم في يد واحدة .

ان الاسلام لا يقبل الاحتكار في أي صورة من صوره لكونه ينافي نظامه المالي المبني على العدالة الاقتصادية ، كما لا يقبل الربا لكونه يمتص أموال الناس ظلما وتعديا .

والدول الرأسمالية العالمية كأمريكا يقوم نظامها على الربا والاحتكار حتى أصبح المال فيها دولة بين الاغنياء ، وبذلك سيطر أصحـاب رؤوس الاموال من الصهاينة على امريكا ، فغدت الدولة كلها تحت رحمة المـال المتداول بين طبقة محدودة .

أليس في هذه الآية عمق في التوجيه ؟

ان المال نيجعل الانسان يطغى كما تقول آية سورة العلق : « **كلا ان** الانسان ليطغى ان رآه استغنى » .

فهو يطغى ويتكبر ويأتي المنكرات ، لانه يرى نفسه قد استغنى **عن** غيره بكثـرة مالـه .

وتقول آية سورة النحل : « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة اللـه يجحـدون » .

فاذا كان البعض يستطيع بمواهبه ان يجمع المال وينميه ، والبعض الآخر ليست له مواهب جمع المال ، او كان البعض يعمل ويكد ، والبعض يتكاسل ويخمل ، فان القرءان في كل الاحوال لا يسمح بتكـديس الاموال واستغلال الرقاب بها ، وان كان الناس يتفاضلون في الرزق .

والقرءان في عدة آيات يقرر حقوق الفقراء في أموال الاغنيـاء ، ولا يسمح بالعبث بالاموال .

فالله فضل في الرزق ولكنه أوجب ان يعطي الفقير ويعتنى به .
وصاحب المال يدخله البطر بالنعمة ولا يستجيب لامر الله في المال ويجود بالنزر اليسير أحيانا ويبخل أحيانا اخرى .

وقد كانوا في الجاهلية يعزلون جزء من المال ويجعلونه لآلهتهـم ، ولايردون من أموالهم على رقيقهم ليتساوى معهم في الرزق ، فما بالهـم يردون جزء من أموالهم على آلهتهم ويتركون الذين كان يجـب عليهم ان يردوا عليهم من أموالهم .

أفبنعمة الله يجحدون ؟ فيكفرون ولا يشكرون نعم الله عليهم .

نمـــاذج مـــن أخـــلاق القـــرءان

كل ما يرفع من شأن الانسان ويبعده عن النذالة والرذيلة والسقوط فهو فضيلة في نظر القرءان ، الذي ينهى عن التعاظم والظلـــم ويمقـــت المس بالحقـــوق .

ونجد القرءان يحظ على البر باليتيم والمسكين والاسير فيقـــول : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » .

ويقول : « فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر » لكون هاتـــه الفئات من الناس ضعيفة وتستحق العناية والرعاية .

ويسمو القرءان بالانسان عن أن يسقط عن درجته الانسانية الرفيعة ويوصيه بالصبر عند المصيبة ، وبالصدق في القول والعمل ، وبالعـــدل والاحسان وبالعفو والرحمة ، ويفتح له باب الامل الذي هو مصدر الاستقرار النفسي ويجنبه اليأس والقنوط ، اذ لا ييأس مـــن روح الله الا القـــوم الكافـــرون .

والآداب القرآنية مليئة بالمودة والتعاطف والمحبـــة وبمثل هاتـــه الاخلاق ساد الاسلام وارتفع شأن القرءان عند الامم والشعوب .

وبفضل أخلاق القرءان استطاع النبي محمد (ص) ان ياخـــذ بيـــد أجلاف العرب ليخرجهم من ترديهم وتشاكسهم وتقاعسهم ليجعل منهم خير أمـــة اخرجت للنـــاس .

ولولا أخلاق القرءان لما كان للامة العربية شأن يذكر في التاريـــخ .

قال تعالى : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » .

وقال : « وقولـــو للنـــاس حسنـــا » .

وقال : « ان الله لا يحب كل مختال فخور » .

وقال : « ان الله لا يحب المعتديـــن » .

واذا تحدث القرءان عن صفات الله يتحدث عنها لنستمسك بمعانيها الرحيمة ، ولنحذر من معاني الصفات الدالة على البطش والجبروت ، فهو سبحانه الودود وهو الجبار وهو الغفور الرحيم وهو شديد العقاب الى آخر الصفات التي تملأ آيات القرءان .

فصفات الله التي اتصف بها في اسمائه الحسنى عرضت في القرءان لنتدبر معانيها ونسترشد بمحامدها ، ونحذر وعيدها ان نحـــن عصينـــا وسلكنا السلوك الذي لا يرضاه القرءان المعبر الامين عـــن وحـــي رب العالميـــــن .

ولننقل بعض الآيات البينات من القرءان الكريم لزيادة توضيح أخلاق القرءان قال تعالى : « وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما او كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل اهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » .

« ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحـــق » .

« ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، واوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنـــوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا ، ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاداد ، كل اولئك كان عنه مسؤولا ، ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان بفئة عند ربـــك مكـــروهـــا » .

« فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور » .

« وان الظالميـــن لفـــي شقاق بعيـــد » .

« يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبا فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادميـــن » .

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا » .

« والذين يؤذون المومنين والمومنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينـــا » .

« ولا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتاكلـــوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون » .

« أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وانتـــم تتلون الكتـــاب أفـــلا تعقلـــون » .

« وقل لعبادي يقولوا التي هي احسن ان الشيطان ينزغ بينهـــم ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينـــا » .

« ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينـــه عـــداوة كأنـــه ولـــــي حميـــــم » .

« خـــذ العفـــو وامر بالعـــرف واعـــرض عن الجاهليـــن » .
« قـــول معـــروف ومغفـــرة خيـــر من صدقـــة يتبعهـــا أذى والله غنـــــي حليـــــم » .

« ان احسنتـــم أحسنتـــم لانفسكـــم وان أسأتـــم فلهـــا » .

« ولا تصاعر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختـــال فخـــور واقصـــد في مشيـــك واغضـــض من صوتـــك ان انكـــر الاصـــوات لصـــوت الحميـــر » .

« يا أيها الذين آمنوا اذا قيـــل لكـــم تفسحـــوا في المجـــلس فافسحـــوا يفسح الله لكـــم واذا قيـــل انشزوا فانشزوا يرفـــع الله الذين آمنـــوا منكـــم والذيـــن أوتـــوا العلـــم درجـــات » .

« يا أيهـــا الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فان لم تجدوا فيها أحـــدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكـــم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غيـــر مسكونـــة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » .

« فاذا دخلتـــم بيوتـــا فسلمـــوا على أنفسكـــم تحيـــة مـــن عنـــد اللـــه مباركـــة طيبـــة كذلـــك يبيـــن اللـــه لكـــم الآيـــات لعلكـــم تعقلـــون » ..

« ولا تقولـــن لشيء انـــي فاعـــل ذلـــك غـــدا الا أن يشاء الله واذكـــر ربـــك اذا نسيـــت وقـــل عسى ان يهدينـــي ربـــي لاقرب مـــن هـــذا رشدا » .

« ويطعمـــون الطعـــام على حبـــه مسكينـــا ويتيمـــا وأسيـــرا انمـــا نطعمكـــم لوجـــه اللـــه لا نريـــد منكـــم جـــزاء ولا شكورا » .

« يا أيهـــا الذيـــن آمنـــوا لا تبطلـــوا صدقاتكـــم بالمـــن والاذى » .

« لـــن تنـــال البـــر حتـــى تنفقـــوا ممـــا تحبـــون » .

« ولا يحسبـــن الذيـــن يبخلـــون بمـــا آتاهـــم الله من فضلـــه هـــو خيـــر لهـــم بـــل هـــو شر لهـــم سيطوقـــون مـــا بخلـــوا بـــه يوم القيامـــة وللـــه ميـــراث السمـــاوات والارض واللـــه بمـــا تعملـــون خبيـــر » .

« وثيـــابـــك فطهـــر » .

« قـــل للمؤمنيـــن يغضـــوا من أبصارهـــم ويحفظـــوا فروجهم ذلـــك ازكى لهـــم ان الله خبيـــر بمـــا يصنعـــون وقـــل للمومنـــات يغضضـــن من أبصارهـــن ويحفظـــن فروجهـــن » .

« ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم او الوالدين والاقربين » .

« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين » .

« انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير » .

رسالة الامة الاسلامية

هي رسالة خالدة يجب ان تستمر وتسير لانقاذ البشرية مما آلت اليه .

والمسلمون قد تخلوا عن واجبهم المقدس في العمل والبعث بما حل بهم من كوارث وأهوال .

والقرءان لا زال يتلى بين المسلمين ، فلا ينبغي ان يبقى مجرد كتاب مشلول ، بل يجب ان ياخذ مكانته في العمل والبعث والتطبيق حتى ياخذ المسلمون مكانتهم بين أمم الارض كافة .

ويقول القرءان في سورة البقرة : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

ولا تكون الامة الاسلامية أمة وسطا تشهد على الناس الا اذا بعثت بعثة جديدة ملائمة لاهداف الاسلام وتصوراته وأقامت موازين الحكم على العدل والقسطاس والشورى والمساواة واقتحمت ميادين العلم والمعرفة ، ورجعت الى ايمانها تستنجده فيما حل بها من اندحار وخمول ، وقارنت بين أسباب عزتها في الماضي وأسباب تقهقرها في الحاضر والا لما استطاعت ان تؤدي رسالتها التي اناطها بها القرءان الكريم .

وتعبير القرءان عن الامة الاسلامية بكونها أمة وسطا له دلالات سامية بالنسبة لامة الاسلام ، فهي وسط باعتبار مركزها الجغرافي وباعتبار تفكيرها واعتدالها وتصوراتها وتشريعاتها وزمانها ، فهي أمة لا تغلو في الجانب الروحي ، كما لا تغلو في الجانب المادي .

وفي سورة البقرة : « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون » .

فرسول القرءان ليس الا بشرا هاديا للناس يتلو فيهم آيات الله البينات ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .

ولن يؤدي المسلمون رسالتهم على وجهها الا اذا ذكروا ربهم واستحضروا بطشه وعفوه ، وهو سبحانه يتفضل عليهم بأنهم اذا ذكروه ذكرهم في ملا خير من ملئهم ، وان شكروه زادهم من نعمه عليهم .

ورسالة المسلمين اليوم شاقة وعسيرة وتحتاج الى مزيد من الصبر والثبات والمجاهدة ، والله سبحانه لا يتخلى عن العاملين الصابرين .

قال رسول الله (ص) : المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم .

ولا يظن المسلم أنه بمجرد اسلامه سيحقق الانتصارات ، لان الاسلام يقر نواميس الكون ، فلا بد من النصر والهزيمة ، ولا بد من التجربة القاسية التي يتميز بها الخبيث من الطيب . وفي سورة البقرة : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات » . والصمود من سمات العظماء ، والتجربة محك الامتحان . فلا بد من البلوى والصبر عليها ، والكفاح في ظلها هو المظهر الاسما لعظمة المسلم وجلده وصبره وصموده ، وبعد ذلك لا بد أن ينتصر ويسمو .

وبالامتحان تغسل النفوس من الشوائب والادران وتستقيم على الحق والهدى . وفي سورة آل عمران : « لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا أذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور » .

فكل دعوة لا بد لاصحابها من البلوى والصبر والنضال ، ولا بد أن يؤدي أصحابها ولو كانوا رسلا امتحانا لصبرهم وصمودهم وعزمهم ، ثم تكون العاقبة نصرا وظهورا والله لا يخلف الميعاد .

وأصحاب الدعوة الصادقة والايمان الراسخ لا يتراجعون ولا ينكفئون مهما صادفوا من عقبات ، وقد صادفت الدعوة الاسلامية منذ ظهورها عقبات وعقبات ، ومع ذلك صمد رسولها وأصحابه من بعده صمودا مثاليا رائعا الى أن تحقق النصر بعون من الله الذي وعدهم بالنصر والتأييد .

قال تعالى في سورة النحل : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ان ربك هو اعلم بمن ظل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

لقد كان النبي (ص) يناضل طوائف شرسة من الكفرة والمنافقين والجاحدين ويلاقي منهم العنت والنكوص ، ويوصيه القرءان بأن تكون دعوته عن طريق الحكمة والموعظة والمجادلة بالتي هي أحسن ، وهي طريقة ناجحة وسليمة ، ولكنها تحتاج للمثابرة والصبر وتحمل الاذى .

وكل صاحب دعوة لم يتسلح بالايمان والصبر والثبات لا يمكن ان يحقق نصرا .

وبالموعظة الحسنة يستطيع الداعية ان يدخل الى القلوب لتعي ، والى العقول لتدرك .

وبالتغاضي عن الجفاء يستطيع الداعية ان يخترق الحواجز والسدود ليربط القلوب ببعضها ويكون منها عصبة قوية لا تهين ولا تخور .

وبالجدل بالتي هي أحسن يستطيع الداعية ان يفكك التحجر عن القلوب الصلد وان يمسح الصدأ عن العقول الصم .

والاسلام الذي يقوم على الاخوة الانسانية يخط مسلك الدعوة بدون تجاوز لكونه دين العدل والسلم والاعتدال . فان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . فلا تقبلوا الضيم والمذلة والانتكاس ، ولكن العفو عند المقدرة من شيم الدعوة الاسلامية ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين .

والصبر من الصفات المميزة للدعاة المسلمين العافين عن الناس ، فاذا كان في الصبر ما يفيد الدعوة فليكن الصبر ، ولكن في بعض الظروف قد يكون في الصبر والعفو ضرر بالدعوة وأهدافها ، وحينئذ فليفل الحديد بالحديد .

وفي سورة الاعراف : « خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم » .

ان تربية الرسول محمد (ص) هي من قبس القرءان الذي أثنى على أخلاقه (ص) في قوله : وانك لعلى خلق عظيم ، فكان يواجه في دعوته جماعات مختلفة من يهود ومشركين ومنافقين ، فلو لم يكن مسلحا بالصبر والاناة والفضائل الرفيعة لما استطاع ان يهدي الكثيرين منهم الى الاسلام حتى أصبحوا بعد عنادهم من دعاة الاسلام وقواده العظام .

فالجاهلية اذا قوبلت بجاهلية كشرت عن أنيابها لتصطدم بخصيمتها ولكن أخلاق الاسلام ليست من فصيلة الاخلاق الجاهلية ولذلك استطاعت بفضل ليونتها وصبرها وتحملها تقليم أظافر الجاهلية شيئا فشيئا الى ان

هزمتها هزيمة ماحقة وأحلت محلها مبادىء تتسم بالسمو والرفعة والمحبة والاخـــوة والتسامـــح .

وكان صاحب الدعوة (ص) لا يجادل الا بالتي هي أحسن كما أمـــره القرءان ، ويعرض عن الجاهلية وتعصبها وعنادها . والمراد بالعفو المأمور به في الآية ، الاخذ باليسر من أخلاق الناس عند معاشرتهم ، والعفو عن أخطائهـــم ونقائصهـــم .

وكان (ص) لا يغضب لنفسه الا ان تنتهك حرمـــات الله فيغضـــب لانتهاكها ، وقد أمره الله بأن يامر بالعرف وهو الخير ، وان يعرض عـــن الجاهلين الغاوين الذين لا يميزون بين الخير والشر . ومجادلة الجاهلين وهم متمسكون بجاهليتهم الرعناء مضيعة للوقت وقد تؤدي الى تقولهـــم بالفحش والامعان في الكفر .

والجاهلي في الآية ليس هو الجاهل الذي لا يميز بين الحق والباطل لركود عقله ، بل يشمل ما هو أعم من ذلك من كـــل من يتسم بالجفـــوة والانحراف عن الحق والامعان في الضلال والباطل ولو كان له جانب مـــن المعـــرفـــــة .

وواقع الحياة يشهد بأن من الناس من يملك من الثقافة أعلاها ، ومع ذلك تجده منطويا على الجاهلية بكل ما فيها من شرور فيرتشي ويسرق ويفسق ويأتي جميع المنكرات .

ولما كان رسول الاسلام بشرا ، والبشر قد ينفد صبره اذا تعرض للضغط والارهاق فيثور ويغضب ، امره القرءان عند الضيق والحـــرج ان يرجع الى ربه ويستعيذ به من نزغات الشيطان .

ويقول النبي (ص) : ان الغضب جمرة توقد في القلب . ولا يتغلـــب على غضبه الا أعاظم الرجال .

وتقول سورة العنكبوت : « ولا تجادلوا اهل الكتـــاب الا بالتي هـــي أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وانزل اليكـــم والاهنا والاهكم واحد ونحن له مسلمـــون » .

وهذا من دعوة القرءان الرشيدة العفيفة المسالمة المتميزة عن غيرها من الدعوات التي سبقتها ، وهي دعوة تقوم على الخير والاصلاح وتسلك مسلك المجادلة بالحسنى .

ودعوة القرءان التوحيدية تتفق مع جميع الدعوات التي سبقتها، ولذلك يريد القرءان ان يجادل أهل الكتاب مجادلة خاصة لكونهم أهل كتاب.

ثم تقول السورة بعد ذلك: « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين ».

ان المكر لا يترك الدعوة تسير في طريقها بالتي هي أحسن بل يصدها مما يدعو الى رد العدوان وزجره، وقد وعد الله المجاهدين في سبيل دعوته أن يصل بهم ان أخلصوا وصبروا الى النصر وان يهديهم الى اقوم السبل وان يجازيهم على اعمالهم بالحسنى.

ودعوة الاسلام تعتبر المسلمين أمة واحدة وجماعة واحدة لا تفصلها حدود لكون العقيدة هي الرابط الاسما الذي يربط بين جميع المسلمين، وقد حدث ان تفككت هذه الرابطة، اذ ما كاد عهد الخلافة الراشدية ينقضي حتى عملت الدسائس على تشتيت وحدة المسلمين، وما زال المسلمون الى اليوم لم ينتبهوا جيدا الى ما يحيط بهم من أخطار ان لم يتحدوا ويتعظوا بما حدث لهم في تاريخهم الطويل من أحداث جسام هدت أركانهم وطوحت بهم في مجاهل من الكسل والتراجع والخمول.

وجاء في سورة آل عمران: « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم ».

فالقرءان يبني الوحدة الاسلامية على الاخوة التي يجب ان تكون متبادلة بين جميع المسلمين، وهي وحدة لا يمكن ان تبنى الا على التقوى والايمان دون أي تجمع آخر لا يتوافق مع حبل الله المتين، هذا الحبل الذي استطاع ان يوحد العرب بعد تشتتهم، ثم استطاع ان يوحد بين مجموعات مختلفة من البشر لم يكن يربط بينها رابط، بحيث اضمحلت كل الفروق الجنسية والعنصرية واللونية واللغوية.

وهذه الوحدة جمعت المسلمين حتى كونوا قوة مهابة .

فهل يعتبر المسلمون نداء الله ويراجعوا أنفسهم ليعودوا الى وحدتهم التي أمرهم بها دينهم ويهدموا الحواجز المصطنعة التي تفصل بينهم ، اذ لا حدود بين دول الاسلام لكون أرض الاسلام هي لجميع المسلمين . فمتى تزول هذه الحدود ؟

ويريد القرءان من المسلمين المتحدين ان يكونوا دعاة خير واصلاح بين أنفسهم وبين الناس ، يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات .

ولا يسمح بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر لكل فوضوي يريد أن يستغل المشاعر لاشعال الفتن وايقاظ الغرائز ونشر الضلال .

واذا كان المسلمون خير أمة أخرجت للناس فيجب ان يكونوا في هذا المستوى ، وان يرتفعوا عن الضعة والجهالة والضعف والخمول ليمكنهم ان يحققوا الرسالة التي أناطها الله بهم وجعلهم من دعاتها .

ومما يبين ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبات كل مسلم ما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان .

ونرى في هذا الحديث أن التغيير بالقلب من أضعف الدرجات لكونه مجرد تأثر وانفعال ، وان الدرجة الاولى هي التغيير باليد عند القدرة وبينهما درجة وسطى وهي التغيير عن طريق القول والكتابة .

وروى الترمذي عن أبي سعيد أيضا ، قال ، قال رسول الله (ص) : ان من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر .

يقول المؤرخ الانجليزي مونتجومري وات فى كتابه (الاسلام والجماعة المتحدة) : « وقد تفرد الاسلام بخلق هذه الوحدة بين أتباعه فاشتملت

أمته على أقوام من العرب والفرس والهنود والصينيين والمغول والبربر والسود والبيض على تباعد الاقطار وتفاوت المصالح » .

ويقول الله تعالى في سورة الحجرات : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين ، انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

فالاسلام أوجب على المسلمين ان يتحدوا ويتآزروا مهما تباعدت ديارهم ، وان وقع بينهم خلاف ، فالقرءان بينهم حكم وعدل حتى لا يجزئهم الخلاف ويضعف شأنهم ، فان وقع وتخالفوا واشتد خلافهم حتى اشهروا السلاح بينهم ، فعلى بقية المسلمين ان يدخلوا بينهم لاصلاح ذات البين ، فان وقع الصلح فيجب أن تعود الاخوة الى صفائها وتعاونها . أما اذا بغت طائفة ولم تقبل التراجع ، ولم ترضخ للحق ، او استمر الجانبان معا في بغيهما ورفضهما الرجوع الى حكم الله ، فعلى المسلمين ان يقاتلوا الباغين حتى يرجعوا الى حكم الله ، فان رجعوا أصلح الوسطاء بينهم بالعدل لكونهم اخوة في الله يجب ان يسود بينهم الود والصفاء والتعاون .

فهذه الآية يجب ان تكون دستورا للمسلمين اذا اختلفوا ، لان الاستعمار والصهيونية يهمهما ان لا يتوحد المسلمون حتى يستمر استغلالهم لهم وتسلطهم عليهم ، « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » .

فهرس

الصفحة

كلمة أولى	5
هذا القرءان	9
القرءان الكريم	31
المغاربة والقرءان	63
العقيدة	77
العبادة	85
الاعتدال	95
الانسان في القرءان	99
الشرك واليهودية والنفاق	105
الجهاد	113
العلوم	123
العمل	147
التشريع القرآني	151
الحكم	167
المال	179
نماذج من أخلاق القرءان	189
رسالة الامة الاسلامية	195

تـــم بحـــول اللـــه طبـــع هـــذا الكتـــــاب
بمطـابـــــع « فضـالـــــة »
المحمديـــة (المغـــرب)

رقـــم الايـــداع القانونـــي : 598 / 1982